المائة الخامسة

١١٢ — سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المستعين بالله ، أبو أيوب

قدمتْه البرابرةُ عند قتل عمه هشام بن سليمان بن الناصر القائم على المهديِّ محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، باعثِ الفتنة بالأندلس ، وموقِد نارها الخامدة ، وشاهرِ سيفها المغمد .

وكان المهدى حاقداً على العامريين قتلَهم أباه هشاماً فى دولة المظفر عبد الملك ابن المنصور محمد بن أبى عامر ، لاتهامهم إياه بمبالأة الوزير عيسى بن سعيد القَطّاع قتيلِ عبد الملك[1] ، فقام على هشامٍ المؤيد فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين

---

(١) المراد عبد الملك المظفر بن المنصور محمد بن أبى عامر.

وعيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بالقطاع كان وزيراً للمنصور محمد بن أبى عامر ثم لابنه عبد الملك المظفر . وقد بلغ فى عهد هذا الأخير سلطاناً عظيما بعد أن تخلص من الفتى طَرَفة الذى كان حاجب المظفر ، وقد كثر خصومه وأعداؤه ، وتزعم هؤلاء عبد الرحمن بن أبى عامر أخو المظفر . وكان عيسى بن سعيد صديقاً لهشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فاتُّهم الاثنان بالتدبير على المظفر لقتله والمناداة بهشام هذا خليفة ، وانتهى الأمر بأن قتل المظفر وزيره بيده فى مجلس شراب ، ثم قبض على هشام وأودع محبسا ، « فكان آخر العهد به » .

ابن عذارى ، البيان المغرب ٣/٣١ — ٣٥ .

وثلاثمائة وخلعه وحبسه عند وزيره الحسين بن حى[١] ، وقتل عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر — وهو الملقب بالناصر — وصلبه ، وأدرك به ثأرَه .

وأقام بقرطبة ، مدعوًّا له على منابرها وسائر منابر الأندلس ، إلى أن ثار عليه فى آخر شوال من السنة هشام بن سليمان المذكور وحاربه ، فظفر به المهدى وعجل قتلَه . فهرب سليمان المستعين بالله وأهل بيته ، خيفةً من المهدى ، واضطربوا فى نواحى قرطبة . فالتف البربرُ على سليمان هذا وقدموه خليفةً ، وأصفقوا على بيعته ، لانحرافهم عن المهدى واضطغانهم عليه قتلَ عبد الرحمن بن أبى عامر . وتعجلَ سليمانُ بهم النهوضَ إلى الثغر ، مستجيشاً بالنصارى على محاربة المهدى . ثم عاد فالتقوا جميعاً بقَنْتِيش[٢] ، فكانت الوقعة المشهورة على أهل قرطبة ، قُتِل فيها نيفٌ على عشرين ألفاً — ذكر ذلك الحُميدى وغيره .

---

(١) فى البيان المغرب لابن عذارى (٣/٧٧) : الحسن بن حى .

(٢) ورد موضع هذه الواقعة على هذه الصورة عند ابن حيان (برواية ابن بسام ، قسم ١ — مجلد ١ ، ص ٣٠ و٣١) وهو موضع إلى شمال شرقى القليعة Alcolea غير بعيد من ملتقى وادى أرملاط Qualmellato بالوادى الكبير . وقد ورد ذكر موضع الموقعة ٤ مرات عند ابن بشكوال (الصلة ، تراجم أرقام ٢٦ و ٤٦٢ و٩٥٨ و١٠٣٠) مع اختلاف فى الصورة فى حالتين ، فقد وردت مرة فنتيش Fuentes ومرة بنتيش Puentes وهما صورتان مقبولتان للاسم . وورد فى بغية الملتمس للضبى قنتش بدون شكل أوحروف علة ، ويمكن فى هذه الحالة قراءة اسم الموضع Quintos .

وفى تطور أحداث الفتنة الأندلسية الكبرى تعتبر موقعة قنتيش من المعارك الحاسمة ، فقدكانت أولا قاضية على خلافة محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدى وعلى كل أمل فى إعادة الخلافة الأموية القرطبية ، وكانت ثانياً مؤكدة لانقسام العسكر الأندلسى إلى قسمين رئيسيين متعاديين : البربر فى ناحية ، والأندلسيين فى ناحية أخرى . وقد انهزم فيها محمد بن عبد الجبار المهدى والأندلسيون هزيمة قاصمة ، وانتصر البربر تؤيدهم فرقة من النصارى يقودها الكونت سانشو غرسية ودخلوا قرطبة وعاثوا فيها . وبعد ذلك مباشرة شعر حكام النواحى ألا أمل فى إعادة سلطان مركزى ، فبدأ كل منهم يستقل بناحيته ، ولهذا فإننا نستطيع اعتبار تاريخ هذه المعركة وهو ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠/٣ نوفمبر ١٠٠٩ المبدأ الحقيقى لفترة الطوائف .

Cf : LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, II, 810. et n.1

ودخل سليمانُ قصرَ قرطبة ، وبويع له بالخلافة للنصف من شهر ربيع الأول سنة أربعمائة ؛ وتَسمى حينئذ بـ « الظافر بحول الله » مضافاً ذلك إلى لقب « المستعين بالله » . واستتر المهدىُّ بعد انهزامه إلى أن لحق/ بطليطلة ، والثغورُ باقية [١٣٧-ب] على طاعته ودعوته : من طَرْطُوشة قاصية شرق الأندلس إلى الأشبونة من غربها : فاستجاش هو أيضا النصارى وأقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه سليمان ، فهزمه المهدىُّ بموضع يعرف بعَقبة البَقَر(١) ، ودخل قرطبة كرةً أخرى والياً ومستولياً [على الخلافة](٢) فلم يلبث أن وثب عليه العبيدُ العامريون مع واضح الصقلبى فقتلوه وصرفوا هشاماً المؤيد . وسليمانُ المستعين أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس [ورجاله ومن معهم من البربر ينهبون ويقتلون و](٣) يُقفرون المدائن والقرى بالسيف ، وينهبون كل ما يجدون من الأموال . إلى أن دخلوا معه قرطبة عنوة فى صدر شوال سنة ثلاث وأربعمائة ، فاستباحوها وقتلوا أهلها . وغيَّب سليمانُ هشاماً المؤيد فلم يره أحد بعد ذلك ، وكان لِدَتَه : وُلِدا جميعاً فى ليلة واحدة ، ثم تقاربا فى الوفاة . وأقام سليمانُ والياً إلى أن [ثار عليه] علىّ بن حمود العلوى الإدريسى ، وكان فى [جملة جنده] ، فقتله بيده يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة سبع وأربعمائة ، وقتل معه أباه حَكم بن سليمان وأخاه عبد الرحمن ، وادعى أن هشاماً المؤيد عهد إليه بالأمر من بعده .

---

(١) عقبة البقر ، اليوم **El Vacar** ، وهو حصن على عشرين كيلومتراً شمال قرطبة إلى الجنوب الغربى قليلا من **Ovejo** ، وقد ذكرها الإدريسى باسم « دار البقر» . وكانت الموقعة فى ٥ شوال ٢٢/٤٠٠ مايو ١٠١٠ وبعدها مباشرة دخل محمد بن عبد الجبار المهدى قرطبة وهرب منها البربر وبدأت خلافته الثانية .

(٢) بياض فى الأصل .

(٣) بياض بالأصل ، أكملناه بالمعنى من التفاصيل التى قدمها ابن عذارى فى البيان المغرب (٣/٩٧ – ٩٩) .

وفى ذلك اليوم انقرض مُلك بنى مروان بالأندلس على رأس مائتى سنة[١] وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوما ، مُحصاةً من يوم الأضحى الذى تقدم فيه عبدُ الرحمن بن معاوية إلى مقتل سليمان هذا . ثم عاد بعد ذلك سنين يسيرةً ، وانقرض على الأثر فلم يعد إلى اليوم .

وكان سليمان المستعين من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة . وهو القائل — فيما أخبرنى به القاضى أبو الخطاب أحمد بن محمد ابن واجب القيسى ، مناولة ببلنسية عن القاضى أبى بكر بن العربى ، إجازةً[٢] عن أبى بكر محمد بن طرخان ، عن أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحُميدى ، وأخبرنى أيضا القاضى أبو بكر محمد بن أحمد بن أبى جمرة[٣] فى كتابه من مرسية مرتين ، عن القاضيين أبى بكر بن العربى المذكور وأبى الحسن شُريح بن محمد الرعينى ، وأخبرنى أيضاً قاضى قضاة المغرب أبو القاسم أحمد بن يزيد بن بقى فى كتابه إلىّ من قرطبة ، عن أبى الحسن شُريح بن محمد بن شريح ، كلاهما عن الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن حزم ؛ قال الحُميدى : منهما[٤] أنشدنى

[١٣٨-ا] أبو محمد على بن أحمد ، قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادي الشاعر ، وكان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر ، قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه ، قال أبو محمد — هو ابن حزم : وأنشدنيها قاسم بن محمد المروانى ، قال : أنشدنيها وليـــد بن محمد الـكاتب لسليمان الظافر :

---

(١) فى الأصل هنا لفظ « ثنتين » ، وهى زائدة .

(٢) دوزى ، ص ١٦١ : إخبارة .

(٣) الكلام من أول « ابن العربى » إلى هنا مكتوب فى الهامش وفوقه كلمة « صح » .

(٤) كذا ، والأصح : عنهما .

عجباً ! يهابُ الليثُ حدَّ سِنانِىْ وأهاب لحظ فواتر الأجفانِ
وأقارِع الأهـوال لا متهيباً منها سوى الإعراض والهجران
وتملَّـكَتْ نفسى ثلاثٌ كالدُّمَى زُهْرُ الوجوهِ ، نواعمُ الأبدان
ككواكب الظلماء لُحْنَ لناظرٍ من فوق أغصانٍ على كُثْبان
هذى الهلالُ ، وتلك بنتُ المشترِى حُسناً ، وهذى أختُ غصنِ البان
حاكمتُ فيهنَّ السُّلُوَّ إلى الهوى (١) فقضى بسلطانٍ على سلطانى
فأبحنَ من قلبى الحمى ، وتنيْنَنى (٢) فى عزِّ مُلـكى كالأسير العانى
لا تعـذلوا مَلِـكاً تذلَّل للهوى ذلُّ الهوى عز ومُلك ثانِ
ما ضرَّ أنى عبـــدُهن صَبابةً وبنو الزمان وهنَّ من عُبدانى
إن لم أطع فيهن سلطانَ الهوى كَلَفاً بهن ، فلستُ من مروان
وإذا الكريمُ أحبَّ أمّن إلفَهُ خطبَ القِلَى وحوادثَ السُّلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهلُ الهوى عاش الهوى فى غِبطةٍ وأمان

قال الحُميدى : وهذه الأبيات معارضة للأبيات التى تنسب إلى هارون الرشيد ، أنشدنيها له أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان العمرى وهى :

ملَك الثلاثُ الآنساتُ عِنانى وحللْن من قلبى بكل مكانِ
مالى تطاوعنى البريةُ كلُّها وأطيعُهن ، وهنَّ فى عِصيانى ؟
ما ذاك إلا أنَّ سلطانَ الهوى — وبه قَوِينَ — أعزُّ من سُلطانى

قلت : وقد صرح الرشيد بأسماء هؤلاء الجوارى الثلاث فى قوله :

إن «سِحْراً» و «ضِياءً» و «خُنُثْ» هنَّ سحرٌ ، وضياءٌ ، وخنثْ

---

(١) الذخيرة (قسم ١ مجلد ١) : الصبا .
(٢) الذخيرة : وتركننى .

[١٣٨-ب] / أخذتْ سحرٌ — ولا ذنبَ لها — ثلثيْ قلبى ، وتِرْباها الثلُثْ

وقال أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبى الفيَّاض — المعروف بابن الغَشَّاء[١] — فى كتاب « العِبَر » من تأليفه ، وذَكر سليمان هذا : له قصائد طويلة فى فنون كثيرة ، مع المعانى العجيبة ، والألفاظ الغريبة . إلا أنه تقلد فى قيامه بالمُلك عظيماً ، وحمل إلى عنقه من دماء المسلمين جسيماً . وكان — قبل الخلافة — ربما امتدح من خدَمة السلطان المستخدمين : أُخبرتُ عن الوزير ابن صاعد أنه امتدحه أيام ولايته على جَيَّان ، وكان يَبَرُّه فى ضيعة له ولا يكلفه عليها عُشوراً ولا حَشداً[٢] . قال : وكأنى أراه قائماً بين يدىِ ابنِ عمه المهدىِّ القائم على بنى أبى عامر ، والمهدىُّ جالس على مقعد الخلافة ، وهو أمامه قد لبس ثوبَ خزٍّ ، وعليه طاقُ خزٍّ ملونٌ ، وأخروفُ[٣] وَشْيٍ ، وقد رمى بثيابه على عاتقه ، و بيده

---

(١) لم أجد هذه التسمية لابن أبى الفياض إلا هنا . وهو مؤرخ أندلسى وجغرافى معروف ، ولد فى إسنجة سنة ٣٧٥/٩٨٦ وعاش فى المرية « ويكنى بأبى بكر ، سمع بإستجة من يوسف بن عمروس وبالمرية من أبى عمر الطلمنكى وأبى عمر بن عفيف والمهلب بن أبى صفرة وغيرهم ، وله تأليف فى الخبر والتاريخ ، وتوفى سنة ٤٥٩ (١٠٦٦) وقد جاوز الثمانين سنة . ذكره ابن مُدَيْر » .

انظر كذلك : المقرى ، نفح الطيب (طبع أوروبا) ٢/١٢٣ .

وترجمة جايانجوس لهذا الأخير ، ج ١ ص ١٩٣ و٤٧٤.

و« جامع أقوال المؤرخين فى بنى عباد » : ٢/٣٤ .

وبونس بويجس ، رقم ١٠٥ ص ١٣٨ .

وتاريخ الفكر الأندلسى لپالنثيا وترجمتنا ، ص ٢١٢ .

(٢) العشور معروفة ، وأما الحشد فضريبة مالية كانت تفرض فى الأندلس على أصحاب الضياع فى الريف وعلى الناس فى المدن معونة للخليفة على شؤون الحرب ، وكان الناس أولا مكلفين بالخروج إلى الحرب ، وكان عليهم أن يخرجوا إلى الحشد عندما يجىء أوان الصائفة ، ثم استبدلت بضريبة مالية أوعينية لمن لا يريد الخروج ، ثم أصبحت ضريبة مالية خالصة تؤدى للحاشد أو الحشاد فى كل منطقة .

(٣) الأخروف ، غطاء من أغطية الرأس . وقد ذكره دوزى فى :

***Dictionnaire detaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, P. 23.**

فى صورة أخروق بالقاف ، ثم عاد فصوب القراءة فى الحلة (ص ١٦٢) وأضاف تعليقاً ضافياً .

سيف ، وهو ينشد شعراً طويلا يهنيه فيه بالخلافة ، ويَمُتُّ إليه بالقرابة ، أوله :

الحمد لله حمـــداً لا نقلِّلُهُ هذا السرورُ الذى كنا نؤملُهُ

وهى قصيدة كبيرة رائقة ، واختراعاته فيها فائقة ، مع المعانى الجزلة . ورفع إليه بعضُ خدمته معتذراً ، فوقَّع له على ظهر كتابه :

قرأنا ما كتبتَ به إلينا وعـــذرُك واضح فيما لدينا

ومَن يكنِ القريضُ له شفيعاً فتركُ عتابه فرضٌ علينا

قال ابن أبى الفيّاض ، وأخبرنى أحد إخوانى ، قال : كتب إليه الوزير يوسف بن أحمد الباجى يذكره بزمانه معه ، ويَمُتُّ بخدمته له ، ويسأله تجديد المعارفة لديه ، ونظم أبياتاً أولها :

قل للإمامِ المستعـــينْ ورســـول رب العالمينْ

فوقّع له سليمان :

أنت المصدَّق عنـــدنا بصريح ودٍّ مستبينْ

فارْبَعْ عليـــك فهمُّنا توطيـــدُ أمر المسلمين

فإذا توطـــد واستقا م وخاب ظن الحاسدين

أصبحت من دنياك فى أعلى محـــل الآملين

قال : وكتب إليه القاضى أبو القاسم بن مِقدام يشكو إليه ضيق حاله — وكان معه فى تجوله مع البربر — بشعر أوله :

أهَلْ ترضى لعبدك أن يُذالا وأن يبقى على الدنيا عيالا ؟

فبعث إليه بصلة وكسوة ، ووقّع له على ظهر كتابه :

معاذَ الله أن تبقى عيالا وأن نرضى لمثلك أن يُذالا[1]
وكيف وأنت منقطع إلينا وقد عِلقتْ يداك بنا حبالا ؟
[١٣٩-١] / ودونك من نوافلنا يسير ولكنا انتقيناه[2] حلالا

ولما نهضَ إلى قرطبة — بعد تغلبه عليها ، وأخذه إياها عنوةً بالفتكة الأخيرة القاهرة — خرج أهلُها إليه ، متلقين له ومسلمين عليه ، فأنشد متمثلا :

إذا ما رأونى طالعاً من ثَنِيَّةٍ يقولون : « مَن هذا ؟ » ، وقد عرفونى
يقولون لى : « أهلا وسهلا ومرحبا ! » ولو ظفروا بى ساعةً قتلونى .

فكان بهما فى هذا الموطن أحقّ من قائلهما .

١١٣ — عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، أبو المطرف المستظهر بالله

أخو أبى الوليد محمد بن هشام المهدى ، بويع له بالخلافة بقرطبة فى رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ، بعد ذهاب دولة بنى حَمُّود وانقراضها من قرطبة ، وهو ابن ثلاث — أو اثنتين — وعشرين سنة .

ثم ثار عليه ابنُ عمه المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد فى طائفة من أراذل العوام ، فقُتل المستظهر لثلاث بقين من ذى القعدة من السنة ، فكانت خلافتُه سبعةً وأربعين يوماً ؛ ولم يعقِّب .

---

(١) ذال الشىء يذيل : هان ، وأذلته : أهنته ولم أحسن القيام عليه ، وأذال فلان فرسه وغلامه إذا أهانه ، والإذالة الإهانة . . والمذال : المهان . اللسان : ١٤/٢٧٧ .
(٢) الأصل : اتقيناه .

قال أبو محمد بن حزم الفقيه : كان المستظهر فى غاية الأدب ، والبلاغة والفهم ورقة النفس . وقال ابن حَيَّان : لم يكن فى بيته يومئذ أبرع منه . وكان قد نَقَّلَتْه المخاوف وتقاذفت به الأسفار ، فتحنَّك وتخرَّج وتمرن ، وكاد يستولى على الأمر لو أن المنايا أنسأته . وقال فى موضع آخر : وكان فتًى أىَّ فتًى لو أخطأته المتالف . وكان قد أخرج رسلَه إلى جماعة الرؤساء بالأندلس يلتمس البيعة ، ويستنفر الكافةَ ، ويدعو إلى كَرَّة الدولة ، فأخفق ما طلبه ، وعوجل ولما تقتضِ الأجوبةَ رسلُه ، واضمحل أمرُه ؛ والبقاء لله وحده . قال : وكانت سِنه يومَ قُتل ثلاثا وعشرين سنة . وكان على حدوث سِنه يقظاً أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرف فى ما شاء من الخطاب بديهةً وروية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة[1] . وهو القائل يخاطب « شنف »[2] زوج سليمان المستعين ، عندما / خطب ابنتها منه المسماة « حَبِيبَة » وتُكَنَّى أمَّ الحكم ، فلَوَتْه وسوَّفته : [١٣٩-ب]

---

(١) نقل ابن الأبار كلامه عن عبد الرحمن المستظهر عن ابن حيان وابن بسام (انظر الذخيرة : قسم ١ مجلد ١ ص ٣٤ وما بعدها) . وقد كان عبد الرحمن هذا أقصر خلفاء بنى أمية حكما ، فقد حكم - كما يقول ابن حيان - « سبعة وأربعين يوماً ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، ولا تجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنه يوم قتل ٢٣ سنة » . وقد وصل إلى الخلافة على صورة من الغصب والمباغتة رواها ابن حيان فى أسلوبه اللاذع وعرضها فى صورة مهزلة مبكية . وكما كانت خلافته أقصر الخلافات فقد انتهت أسوأ وأخزى نهاية . فقد أقره فى الحكم رجال الدائرة أى حرس الخليفة ، وانتظروا أن يفيض عليهم العطايا ، ولكنه كان مفلساً « لا يقع بيده درهم إلا من صُبابة مستغَلٍّ جوف المدينة (قرطبة) أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها » . وأراد أن يصالح البربر ورؤساءهم فانقلبت عليه الدائرة فنادوا بابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر وأتوا به إلى القصر ، فهرب المستظهر واستخفى فى أبزن الحمام (أى فى مخزن الفحم والخشب) ثم عثروا عليه بعد قليل « فأخرج فى قميص مسودٍّ فى حال قبيحة » وضربوه أمام ابن عمه ثم قتلوه . ويثنى عليه ابن حزم لأنه كان صديقه ، وقد استوزره واستوزر كذلك ابن عمه عبد الوهاب ابن حزم والشاعر أبا عامر بن شهيد .

(٢) عند ابن بسام : مُشْنَف .

وجالبةٍ عـــذرًا لقصرِفَ رغبتى ... وتأبى المعالى أن تجيز لهـا عذرًا
يكلفها الأهـــلون ردى جهالةً ... وهل حَسنٌ بالشمس أن تمنع البدرا ؟
وماذا على أم الحبيبة — إذ رأتْ ... جلالةَ قدرى — أن أكون لها صِهرا ؟
ربيبـــة ملك [... ... ...] ... [... ... ...][1] حبـــه نكرا
جعلتُ لها شرطاً علىّ تعبُّـــدى ... وسُقتُ إليها فى الهوى مهجتى مَهرا
تعلَّقتُها من عبـدِ شمسٍ غريرةً ... مخدرةً[2] من صـــيد آبائها غرّا
حمامةُ بيتِ العبشمِيِّين رفرفتْ ... فطِرتُ إليهـا من سَراتهمُ صقرا
تَقِلُّ الثريا أن تكون لهـا يدًا ... ويرجو الصباحُ أن يكون لنا نَحْرا
لقد طال صومُ الحب عنكِ ، فما الذى ... يضرك منـه أن تكونى له فِطرا ؟
وإنى لأستشفى لمـا بى[3] بداركم ... هدوءا ، وأستسقى لساكنها القطرا
وألصِق أحشـــائى ببرد تُرابها ... لأطفىء من نار الأسى بكمُ جمرا
فإن تصرفينى يا ابنـــةَ العم تصرفى ... — وعيشِك — كفوًا مد رغبتَه سترا
وإنى لأرجو أن أطوِّق مَفخرى ... بملـكى لهـا ، وهى التى عظُمت فخرا
وإنى لطعّـان إذا الخيل أقبلتْ ... جرائدُها ، حتى تُرى جونُها شُقرا
ومُكرِمُ ضيفى حين ينزل ساحتى ... وجاعلُ وَفْرى عنـــد سائله وَفْرا
وإنى لأولَى الناس من قومها بهـا ... وأنبُههم ذكرًا ، وأرفعهم قدرا
وعندىَ ما يُصـــبى الحليمةَ ثيباً ... وينسى الفتاةَ الخودَ عُذرتَها البكرا
جمال وآداب وخـــلق موطّأ ... ولفظ إذا ما شئتَ أسمعك السحرا

---

(١) أورد ابن بسام القصيدة كاملة ، إلا هذا البيت . وكأنه كان أيضاً مضطرباً فى الأصول التى نقلت عنها نسخ الذخيرة الموجودة بين أيدينا .

(٢) الذخيرة (قسم ١ مجلد ١ ص ٤٠) : مُحَدَّرة .

(٣) الذخيرة : بمَرَّى .

/ وله وقد لمحها يوماً وأومأ بالسلام فلم ترد عليه خجلا : [١٤٠-١]

سلام على مَن لم يَجُدْ بكلامهِ ولم يَرَ لى أهلاً لردِّ سلامهِ
سلام على الظبى[1] الذى كلما رمى أصاب فؤادى عامداً بسهامه
بنفسى حبيبٌ لم يَجُد لمُحبهِ بطيفِ خيالٍ زائرٍ فى منامه
ألم تعلمى يا عذبةَ الإسم أننى فتًى فيك مخلوع عذارُ لجامه ؟
وإنى وفىٌّ حافظ لأذمَّتى إذا لم يقل غيرى بحفظ ذمامه
يبشِّر ذاك الشَّعرُ شِعرى أنه سيوصل حَبلى بعد طول انصرامه
وما شكَّ طرفى أن طرفَك مُسعدى ومنقذُ قلبى من خبالِ غرامه
عليك سلام الله من ذى تحيةٍ وإن كان هذا زائداً فى اجترامه[2]

---

(١) الذخيرة : الرامى .

(٢) هنا يضطرب المخطوط اضطراباً شديداً ، فقد أورد هذه الأبيات فى ترجمة عبد الله ابن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى الذى سبقت ترجمته ، والمشهور أنها لعبد الرحمن بن هشام المستظهر الذى يترجم له ابن الأبار هنا (راجع الذخيرة ، طبعة القاهرة ، قسم ١ مجلد ١ ص ٣٥ وما بعدها) . ثم كتب الناسخ بعد ذلك : « ورفع إليه شاعر هنأه بالخلافة يوم بيعته شعراً فى رق مبشور . . » وهذا لا يمكن أن يكون المراد به عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أمية بن الحكم الربضى ، ومن الثابت أنه وقع لعبد الرحمن المستظهر بن هشام (راجع الذخيرة ، نفس الجزء ، ص ٤٢) . ثم يتبع الناسخ ذلك بالحديث عن إدريس بن يحيى العلوى ، ويستمر فى شعراء الأمراء والأعيان فى المائة الخامسة حتى يصل إلى أبى عبيد البكرى (ص ١٠٩ من المخطوط) ويقول : وأنشد له ابن فرج فى الحدائق :

سقيا لهم من ظاعنين حسبتهم . . الأبيات .

وبعد ذلك فى ص ١١٠ — ب يعود إلى استكمال سيرة عبد الله بن عبد العزيز المروانى ، ثم يستطرد فى ذكر نفر من المروانيين من أهل المائة الرابعة .

ويُتبعهم (ورقة ١١٢ — ب) بمعاصريهم من الأدارسة .

ثم يعود فى ورقة ١١٣ — ا إلى رجال المروانية فى المائة الرابعة . وفى ورقة ١٣٤ — ا يعود إلى المائة الخامسة بادئاً بالخليفة سليمان المستعين . =

وله أيضاً فيها :

تبسّم عن درٍّ تنضّد فى الوَرْسِ وأسفر عن وجهٍ ينوب[1] عن الشمس
غزالٌ براه الله من نورِ عرشِه لتقطيع أنفاسى ، وليس من الإنس
وهبت له روحى ومُلكى ومهجتى ونفسى ، ولا شىء أعز من النفس

وله :

طال عمر الليل عندى مذ تولعتَ بصدى
يا غزالا نقض العهـ ـدَ ولم يوفِ بعهـ ـدى
أنَسيتَ العهد إذ بِتْـ ـنا على مفرش ورد
واجتمعنا فى وشاحٍ وانتظمنا نظمَ عقد
وتعانقنا كغصنَيْـ ـنِ وقدّانا كقدّ
ونجوم الليل تحكى ذهباً فى لازوَرْدِ

ورفع إليه شاعر ممن هنأه بالخلافة يومَ بيعته شعراً فى رَقٍّ مبشور ، واعتذر من ذلك بهذين البيتين :

الرَّقُّ مبشور وفيه بِشارةٌ بِبَقا الإمامِ الفاضلِ المستظهرِ

= ويستمر فى شعراء الأمراء من المائة الخامسة حتى أبى عبيد البكرى ، وفى أثناء ترجمته يعود إلى عبيد الله بن عبد العزيز المروانى !

لهذا كله كان لابد من إعادة ترتيب هذه المواد على النحو الذى يراه القارئ هنا .

وقد فعل مثل ذلك دوزى مستعيناً بفهرس تراجم الحلة الذى أورده ميخائيل الغزيرى فى فهرس مخطوطات الإسكريال . ولكن دوزى نسب لعبد الله بن عبد العزيز المروانى شعرا ليس له . ولم تبق إلا مشكلة الأبيات : « سقيا لهم من ظاعنين » . . الخ التى نسبها المخطوط لعبد الرحمن المستظهر ، ولا يمكن أن تكون له مادامت مروية عن ابن فرج فى الحدائق ، وقد مات ابن فرج قبل المستظهر ، ولا يمكن أن تكون بالتالى لأبى عبيد البكرى ، لأنه مات بعدهما ، فتركناها فى شعر عبد الله المروانى ، وإن كنا فى شك من صحة هذه النسبة .

(١) الذخيرة : يتيه .

مِلِـكاً أعاد العيشَ غضًّا شخصُه وكذا يكون به طوالَ الأدهر

فأجزل صلته ، ووقع على ظهر رقعته بهذه الأبيات :

قبلنا العـذرَ فى بَشْر الـكتابِ لِما أحكمتَ من فصلِ الخطابِ

وجُـدنا بالجزا مما لدينا على قدر الوجود ، بلا حساب

فنحن المنعمون إذا قدرنا ونحن الغافرون أذى الذناب

ونحن المطْلِعون بلا امـتراء شموسَ المجد من فَلَكِ التراب

وله يوم الوثوب عليه :

يا أيها القمر المنـير كن نحو شِبهك لى سفيرْ

بتحيـةٍ أودعتُهـا شـوقاً بُنَيّات الصدورْ

١١٤ — أبو الحسن بن هارون

قرأت فى تاريخ أبى بكر بن عيسى بن عيسى بن مُزَيْن[1] ، أن أبا جعفر

(١) أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين مؤرخ أندلسى معروف نشر له دوزى فى أبحاثه قطعة عظيمة القيمة عن افتتاح الأندلس وما اتبعه العرب الأول من نظم فى توزيع أراضيها ، وهو يكتب فى أسلوب بسيط واضح دقيق . ويبدو أن كتابه الذى ينقل عنه ابن الأبار هنا غير كتاب آخر ينسب إليه اسمه « مغناطيس الأفكار ، فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والآثار » ، ومدينة الفرج هى وادى الحجارة Guadalajara ، وربما جاز لنا من هذا أن نستنتج أن أصل أسرته من هذا البلد . ومع أن كتابه هذا يتناول جغرافية وادى الحجارة إلا أننى لم أجد فيه فقرة واحدة تمكننى من الحكم عليه كجغرافى ، ولهذا فقد استطردت عنه فى بحثى عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس . ولا نعرف سنة ميلاده أو وفاته ، ولكن لدينا ما يدل على أنه كان حياً سنة ٤٧١/ ١٠٧٨ . وسينقل عنه ابن الأبار مرة أخرى عند كلامه عن ابن طاهر قائلا : « قرأت فى تاريخ أبى بكر محمد بن عيسى بن مزين الكاتب ، وأبوه عيسى هو مخلوع المعتضد عباد بن محمد من شلب ، =

أحمد بن سعيد المعروف بالدّبّ[1] ، وزير سليمان المستعين بالله وكاتبه الخاص به ، ولما تحركت فتنة على بن حَمّود العلوى بَعث إلى شَنْتَمَرِيَّة الغرب — وهى مَرسَى أكشُونبَة مما يلى البحر المحيط الغربى — ذا الوزارتين أبا عثمان سعيد بن هارون المارِدى الدار ، وكانت بينهما مصاهرة ، قال : فلم تطل المدة حتى قُتل الدّبّ ثم قُتِل سليمان ، فملك ابنُ هارون ما بيده إلى أن مات فى سنة أربع — أو خمس — وثلاثين وأربعمائة ، فورث حاله ابنُه محمد بن سعيد — وحُكى أنه سُمى بالمعتصم — إلى أن أخرجه عباد بن محمد — يعنى المعتضد — فى سنة أربع وأربعين ، فصارت فى يده ثم فى يد ابنه محمد بن عباد .

[١٤٠-ب] وقال ابنُ بسام ، وذَكر أبا الحسن بن هارون هذا ولم / ينسُبه : وهو علىّ ابن محمد بن سعيد بن هارون ، جدُّه لأمه أبو الحسن بن الإستِجّى ، فأما سلفه من قبل أبيه فقد انخدع لهم الزمان بُرَيهة ، وهينَمَ بأسمائهم السلطانُ هُنَيهة بشنتمرية الغرب ، إلى أن نبّه الدهرُ الغافلُ على أمرهم ، وأسكت عن ذكرهم على يدى المعتضد عباد بن محمد ، مُخْلِى الأوطان ، وملحق الأقران بالأقران .

= وكان صهره » . ويفهم من هذا أن عيسى ابن مزين والد المؤرخ تولى أمر شلب زمناً حتى خلعه المعتضد ، وهو فى هذا يشبه أبا عبيد البكرى فقد كان أبوه قد تملك وَلْبَه Huelva وجزيرة شلطيش على مقربة من شلب حتى عزله المعتضد فى نفس الوقت تقريباً .

انظر : پونس بويجس ، رقم ١٣٤ ص ١٧١ و :

DOZY, *Scriptorum Arabum Loci de Abbadidis* (Leiden 1852) II, 123 et n. 144.

(١) أورد ابن عذارى فيما نقل عن ابن حيان اسمه : أحمد بن يوسف بن الدب ، وقال ساخراً عندما تحدث عن مقتل المستعين « دولة كفاها ذما أن أنشأها شانجه ووزرها دب ، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى » .

البيان المغرب : ٣/١١٨ .

ويفهم من رواية للرقيق أن أحمد بن الدب هذا اشترك مع محمد بن سليمان المستعين فى قتل هشام المؤيد . (البيان المغرب : ٣/١١٧) .

ومن شعره :

عادت إلى أذنابها هَيْفُ واطرد الإسراف والحَيْفُ
وامتنع الإصْبَعُ من وصلنا وزاد حتى امتنع الطيف
شنتمرىُّ القطر غربيُّـــهُ وربما حَنَّ له الخَيْفُ
ذو لحظة إن لم تكن فى الحشا رمحاً ، وإلا فهى السيف

وله :

يا ليلةَ العيدِ عُدتِ ثانيـةً وعاد إحسانُك الذى أذكرْ
إذ أقبل الناسُ ينظرون إلى هلالِك النِّضْوِ ناحلاً أصفر
وفيهمُ مَن أحبـــه وأنا أنظرُه فى السماء إذ يَنظر
فقلتُ — لا مؤمناً بقولىَ — بل معرِّضا للكلام ، لا أكثر :
أثَّرَ شهرُ الصيامِ فيكَ ، أبا محمدٍ ؟ قال لى ، وما أثَّرْ :
بل أثَّر الصومُ فى هلالـكمُ هذا الذى لا يكاد أن يظهر !

أحسنُ من هذا قولُ أبى الحسن بن الزَّقّاق[1] :

---

(١) أبوالحسن على بن عطية بن مطرِّف بن سلمة المعروف بابن الزقاق المتوفى سنة٥٢٨/ ١١٣٣ أو ٥٣٠ / ١١٣٥ وسنه تقارب الأربعين ، فلابد على هذا أن يكون قد ولد بين سنتى ٤٩٠ و٤٩٢ . ولد فى بلنسية فى فترة عصيبة من تاريخها الإسلامى ، إذ كانت إذ ذاك تحت سلطان السيد القمبيطور ، ولهذا يسمى البلنسى ، ويسمى أيضاً بالمرسى خطأ ، وقد أدرك سن الطلب بعد تحرر المدينة وعودتها إلى الإسلام على أيدى المرابطين . وأمه أخت الشاعر المعروف أبى إسحق إبراهيم بن خفاجة (٤٥٠ — ٥٣٣/١٠٥٨ — ١١٣٨) ، ومن المعروف أن هذا ينتسب إلى قبيلة هوارة البربرية . ويسمى ابن الزقاق باللخمى ، أى أن أباه عربى وأمه ترجع فى نسبها البعيد إلى البربر ، فهو على هذا نموذج طيب للتمازج بين هذين الجنسين الكبيرين . وقد نشأ ابن الزقاق نشأة متواضعة حتى كان أبوه — وكان صاحب متجر صغير — يلومه على السهر للدرس لأنه لا يملك=

وشهرٍ أدرْنا لارتقابِ هـــلالِهِ جُفوناً[1] إلى نحو السماء مَوائلاَ
إلى أن بدا أحوى المدامع أحورُ يجرّ لأذيال الشـــباب ذلاذلاَ
فقلت له : أهلا وسهلا ومرحباً ببدرٍ حوى طيب الشمول شمائلا
أتطلبك الأبصارُ فى الجو ناقصاً وأنت هنا[2] تمشى على الأرض كاملا؟

وذكرت بقول ابن هارون ما حُكى أن عبد الصمد بن المعَذّل رأى مخنثاً
[١٤١-ا] ليلةَ الرابع عشر من رمضان وهو / مضطجع على ظهره يخاطب القمر وهو يقول :
« لا أماتنى الله منك بحسرة أو تقع فى السِّلّ ! » ، فلما كانت ليلة اليوم السابع
والعشرين منه رأى عبدُ الصمد الهلالَ فقال :

يا قمراً قد صار مثلَ الهلالْ مِن بَعد ما صيَّرنى كالخيالْ
الحمـــد لله الذى لم أمُتْ حتى أرانيكَ بهذا السُّلالْ

ولابن هارون :

وحديقة شرقت بِعِدٍّ[3] نَميرها يَحكى صفاء الجو صفوُ غديرِها
تُجرِى المياهَ بها أسودٌ أحكمتْ من خالِص العقيانِ فى تصويرها[4]
فكأنها أسْدُ الشَّرى فى شكلها وكأنَّ وقْعَ الماء صوتُ زئيرها

* * *

= ما يشترى به الزيت للقنديل . وقد درس ابن الزقاق دراسة طيبة على أيدى شيوخ أجلاء يذكرهم ابن الأبار فى التكملة (ترجمة رقم ١٨٤٤) ثم أخذ فى قول الشعر واشتهر أمره ، غير أنه لم يعمر طويلا كما ذكرنا . وشعره رقيق جميل إلا أنه قليل ، وقد جمعه إميليو غرسية غومس ونشره فى مدريد :

IBN-AL ZAQQAQ. *Poesías* (edición y traducción en verso. Madrid, 1956)

وقدم له بمقدمة شافية عن حياته وشعره .

(١) فى الديوان (ص ٨٦) : عيونا .
(٢) فى الديوان (ص ٨٦) كذا .
(٣) العِدّ هو الماء الكثير .
(٤) لم يورد دوزى (ص ١٦٩) هذا البيت .

ومن أمراء إفريقية فى هذه المائة :

١١٥ — المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُقين : ابنه تميم بن المعز ، أبو الطاهر

ولاه أبوه المعزُّ بنُ باديس المهديةَ سنة خمس وأربعين وأربعمائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقد استفحل أمر العرب[1] بعد هزيمتهم إياه ، واستشرى شرهم وجدُّوا فى تخريب القيروان إلى أن تم لهم ذلك ، ثم تخلى أبوه عن القيروان وخرج من المنصورية لائذاً بالمهدية فنزل قصرَها ، وتميمٌ القائمُ بالأمر فى حياة أبيه إلى أن هلك سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

---

(١) المراد هنا العرب الهلالية (الأثبج ورياح وزغبة وعدِيّ وغيرهم) الذين كانوا يسكنون فى صعيد مصر على الضفة الشرقية للنيل دون أن يسمح لهم بعبوره ، فلما انقلب بنو زيرى على العبيديين وتخلوا عن المذهب الشيعى وعادوا إلى السنة ودعوا لبنى العباس أذن لهم الجرجرائى أو البطائحى الوزير الفاطمى (عند ابن خلدون أن الذى سمح هو أبوالحسن اليازورى) بعبور النيل والذهاب إلى المغرب ، فمضوا إلى برقة فانثالوا عليه انثيالا لا يبقون على شىء ، حتى إن جماعة منهم رأت فى مسيرها قرية فقال بعضهم : هذه القيروان ! فانقضت الجماعة عليها ونهبتها من حينها . واستقروا فى برقة بعض الوقت . وكان زعيم أولئك الهلالية مؤنس بن يحيى الصَّرِّى الرياحى قد وفد على المعز بن باديس قادماً من برقة وخدمه ، ثم أراد المعز أن يستعين بالعرب الهلالية على أبناء عمه ومنافسيه بنى حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم فى الجزائر الحالية وعلى زناتة من أنصار بنى أمية الأندلسيين ، فطلب إلى مؤنس استقدام العرب من برقة ، فنصحه بألا يفعل ، فأصر المعز ، وكانت النتيجة أن أقبلوا فنهبوا بلاد إفريقية وخربوا القيروان ، ولم يجد المعز بداً من أن يلجأ إلى المهدية ليعتصم خلف أسوارها بعد أن انهزمت قواته هزيمة قاصمة عند القيروان فى شوال ٤٤٣ . وفى سنة ٤٤٩ اقتحم الهلاليون القيروان وخربوها . وقد ولد المعز سنة ٣٩٩ وتولى إمارة إفريقية سنة ٤٠٧ وسنه ٧ أعوام وتوفى سنة ٤٥٥ وعمره ٥٨ سنة .

ابن عذارى ، البيان المغرب : ١/٢٨٨ — ٢٩٥ .

ابن خلدون ، العبر : ٦/١٥٧ — ١٥٩ .

فاستبد تميم بالمملكة ودخل إليه القضاة والفقهاء ووجوه القواد والأجناد وقد برز إليهم من الطاق(١) ، فنزّوه عن المعز وهنّوه بالملك وأنشده الشعراء فى ذلك ، فأجزل جوائزهم وأكثر عطاياهم . وأقام إلى أن توفى منتصف رجب سنة إحدى وخمسمائة ، وهو ابن تسع وسبعين سنة .

مولده بالمنصورية يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من رجب سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، فكانت مدة ولايته بعد أبيه سبعاً وأربعين سنة غير أربعين يوماً . وخلّف من الوَلد ما جاوز عددهم المائة . وطالت إمارته فتمهد سلطانُه وعلا شانُه ، وانتجع حضرتَه جماعة من شعراء المغرب والأندلس / [١٤١-ب] منهم أبو إسحاق بن خفاجة فى صباه وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوشى وأبو الحسن على بن عبد العزيز الحلبى المعروف بالفكيك وغيرهم . وخدمه بالشعر من أهل إفريقية جماعة أيضاً ، منهم أبو الحسين بن خصيب وأبو عبد الله محمد ابن على القفصى الأعمى وأبو الحسن على بن محمد الحداد الأقطع ، ومدحه قبل هؤلاء من شعراء المعز — أبيه — أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن شرف(٢) وأبو على حسن بن رشيق ، وفيه يقول :

---

(١) لم أفهم المراد بهذه العبارة ، وابن الأبار لا يكتب شيئاً إلا عن تدقيق . والمفهوم من العبارة أن تميم بن المعز كان بعيداً عن أبيه ، وأنه تخوف عندما جاءه خبر موت أبيه من أن يكون الخبر خدعة ، ولهذا فقد كلموه من خارج قصره ، فلما اطمأن إلى صحة الخبر برز إليهم من الطاق . والخلاف بين المعز وابنه تميم معروف ، ويبدو أن سبب ذلك خطأ المعز فى استقدام العرب والاستعانة بهم . وقد انقسم هؤلاء بعد استقرارهم فى إفريقية قسمين : قسما ناصر بنى زيرى الصنهاجيين (زغبة ورياح وسليم) وقسما ناصر الزناتيين الذين نافسوا بنى زيرى على سيادة المغرب الأوسط (الأثبج وعدى) ، وقد استسلم المعز بن باديس من أول الأمر للنكبة ولجأ إلى المهدية تاركاً العرب يفعلون ببقية بلاده ما يشاءون ، فى حين أن ابنه تميماً ظل فى الميدان يناضل قدر استطاعته ، ويبدو أن أباه تخوف منه ، وهذا ظاهر من إشارة لها معناها أوردها ابن عذارى فى حوادث رجب ٤٣٣ (البيان المغرب : ١/٢٩٨) .

(٢) أوسع ما لدينا إلى الآن عن ابن شرف هو ما أورده ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٤ — مجلد ١) ص ١٣٣ وما بعدها ، وفيه كذلك الكثير عن معاصره ومنافسه ابن رشيق .

أصحُّ وأقوى ما رأيناه فى النَّوَى من الخَبر المأثور منـذ قديمِ
أحاديثُ تُمليها السيولُ عن الحيَا عن البحر عن جود الأمير تميم

ولأبى الحسين عبد الكريم بن فضّال المعروف بالحلوانى فيه :

عَرِّسا بى فَذَا مَناخٌ كريمُ هذه جَمَّة[1] وهـذا تميمُ
هذه الجنـة التى وعد الا ه وهذا صراطه المستقيم

وكان تميم حليماً جواداً ممدحاً ، هجاه ابنُ الحداد الأقطع ومما قال فيه :

الوم أحسن عنـدى إذا اختـبرت الأمورا
من أن يكون تميمٌ على الثغور أميـرا

فطلبه ، ثم استتر ، ثم حبَّر قصيدةً يستعطفه بها ، وأنشده إياها ، فصفح عنه وأحسن إليه . ذكر ذلك أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى تاريخه ، قال : وكان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظَهم ، فلا يتخلص منه إلا الماهر . أنشده بعضهم فى وقت هَرْج :

تثبَّتْ لا يخامِرْكَ اضطرابُ إليك تمدُّ أعينَها الرقابُ

فقال له : « أرأيتنى — ويحك — طِرتُ خفةً ورميت بنفسى من هـذا العلو قلقاً واضطراباً ؟ » وسكَّتَه ، فلم يسمع من قصيدته غير هذا البيت .

وكان ابنه يحيى بن تميم وأبوه المعز بن باديس والحسن بن على بن يحيى بن تميم شعراء ، وسيأتى ذِكرُ كل واحد منهم فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن شعر تميم :

/ بِكَرِّ الخيلِ داميةِ النحورِ وقرعِ الهامِ بالقُضُب الذكورِ [١٤٢-١]
لأقتحمنَّها حـربا عواناً يشيب لهولها رأسُ الصغير

(١) لعل المراد بهذا مدينة « الجم » من كبار مدن تونس .

فإما المُلك فى شرفٍ وعزٍّ علىّ التاجُ فى أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبىَ العوالى فلستُ بخالدٍ أبدَ الدهور

وله :

سأسكتُ صبراً واحتساباً فإننى أرى الصبرَ سيفاً ليس فيه فُلولُ
عدانىَ أن أشكو إلى الناس أننى عليلٌ ، ومن أشكو إليه عليل
وإن امرَأً يشكو إلى غير نافعٍ ويسخو بما فى نفسه لجهول

وله فى غلام من مواليه اسمه « مُدام » ، وهو من مشهور شعره ويغنّى به

مُدامٌ يطوف بكأسِ المُدام فلم أدرِ أيّهما أشربُ
فهذا الصديقُ وهذا الرحيقُ وهذا الهلالُ وذى الكوكبُ
وهذا بمدٌ[1] بألحاظه لى وهذى بألبابنا تلعبُ
وما البدرُ والنجمُ من ذا وذاك ولكنه مَثَل يُضرب

وله :

قام بكأسٍ فقلتُ غصنٌ عليه آسٌ وجُلَّنارُ
كأنما الفرعُ منه ليلٌ والوجه من تحته نهار
يا غصنَ بانٍ على كثيبٍ لبَّدَهُ الغَيثُ والقِطار
هل من نوالٍ لمُستهامٍ جانبَه النومُ والقرار ؟
ليس له فى السُّلُوِّ رأىٌ ما اختلف الليل والنهار

وله ، وهو مما يستحسن له :

لها نهدانِ قد نجمَا كنابَىْ فيلِ شطرَنج

وله :

---

(١) الأصل : يجد .

إلى كمْ أقاسى الحبَّ والشوقَ والوجدَا وما أجملتْ «جُمْلٌ» ولا أسعدتْ «سُعْدَى»[1]

/ وجوهٌ كأقمارٍ قمَرْنَ تجلُّدى على كلِّ قدٍّ قدَّ منى الحشا قدَّا [١٤٢-ب]

وكان ابتداء الحبِّ هَزْلا ولم أكنْ علمتُ بأن الهزلَ قد يبعث الجدَّا

وله :

همُ عرَّضونى للصَّبابة والهوى وهُمْ قطعوا حَبْلى وهمْ صرفوا رُسْلى

جُفونى جَنَتْ قتلى علىَّ صَبابةً ولم أرَ مقتولا بألحاظِه قبلى

وله :

ولما افترقنا وساروا ضحًى شققنا لوشْكِ الفراقِ الجيوبا

ولو كان فينا وفاءٌ لهم شققنا مكانَ الجيوب القلوبا

وله :

أقبلتْ بدرَ تمامٍ بعدما لاحت هلالاَ

غادةٌ ذاتُ محيَّا فيه نورٌ يتلالا

كتب الحسن عليه : صنعةُ الله تعالى

وله :

لو كنتِ حَلْياً لكنتِ عِقدَا أو كنتِ طِيباً لكنتِ نَدَّا

أو كنتِ وقتاً لكنتِ صبحاً أو كنتِ نجماً لكنتِ سعدَا

أو كنتِ غصناً لكنتِ آساً أو كنتِ زهراً لكنتِ وردَا

وكم طلبتُ السُّلوَّ جَهدى فلم أجد من هواكِ بُدَّا

وله :

أقول لها وقد عَرضتْ فكانتْ منتهى أملى

(١) فى الأصل : سعدا .

لئن أصبحتِ لاهيـــــةً فإنى منـــكِ فى شُغُلِ
ولا شغلٌ سوى مَطْلى ولَيِّ الوعـــــدِ بالعلل

وله يصف بركة ماء :

بركةٌ بالماء تَطَّرِدُ للصَّبا فى مَتْنِها زَرَدُ
[١٤٣-١] / بات فى أحشائها قمرٌ مثلَ قلبِ الصبِّ يرتعدُ

١١٦ – إدريس بن يحيي العلوى الحَمُّودى ، أبو رافع ويلقب بالعالى

[٦٢-ب] /

هو إدريس بن يحيى بن على بن حَمُّود بن أبى العيش ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب(١) .

أخرج من [قرطبة مع أبيه يحيى بعد خلافته الأولى عندما خلعه البربر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، واستقر فى مالقة حتى](٢) بويع له بالخلافة بمالقة

(١) نسب بنى حمود وارد هنا بأوفى مما هو عند ابن حيان . انظر الذخيرة قسم ١ مجلد ١ ، ص ٧٨ .

(٢) بياض بالأصل ، فأضفت هذه العبارة ليستقيم السياق . وإدريس بن يحيى بن حمود هو الخامس ممن تولوا الخلافة فى قرطبة من أفراد هذا البيت فى سنوات الاضطراب البالغ أيام فترة الطوائف الأولى التى تمتد من موقعة قنتيش التى أشرنا إليها فى ربيع الأول سنة ٤٠٠/ نوفمبر ١٠٠٩ إلى إخراج هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس من قرطبة وإلغاء الخلافة من هذا البلد فى ذى الحجة ٤٢٢/ نوفمبر ١٠٣١ .

وكان سليمان المستعين قد أقام القاسم بن حمود وأخاه علياً حاكمين على منطقة العدوة ، وكانا من زعماء الطائفة البربرية التى اعتمد عليها سليمان المستعين هذا ، وقد حسب سليمان أن ذلك =

بعد أبيه يحيى المعتلِى ، وتَسَمى بأمير المؤمنين وتَلَقب بالعالى . ثم خلفه ابنُ عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود واعتقله . ثم عاد ثانية إلى مالقة . وفى ولايته يقول أبو محمد غانم بن وليد المخزومى الأديب[1] ، من أبيات :

واستقبلَ المُلكَ إمامُ الهـــدى فى أربعٍ بعـــد ثلاثينا
خلافةُ الله سمتْ نحـــوَهُ وهو ابنُ خمسٍ بعد عشرينا
إنى لأرجو يا إمامَ الهدى أن تَمـــلِكَ الدنيا ثمانينا
لا رَحِمَ اللهُ امرَأً لم يقلْ عنـــد دعائى لك : آمينا !

وفيه يقول أبو زيد عبد الرحمن بن مُقَانا[2] الأُشْبُونى ، من قصيدته المشهورة التى يتداولها القوّالون لعذوبة ألفاظها وسلاستها :

يزيد مركزه قوة ، ولكنه أخطأ فى حسابه إذ أن الأخوين تقاسما السيطرة على جهتى العدوة ، فاستقر على فى سبتة والقاسم فى الجزيرة الخضراء ، وتبينا من أول الأمر أن أمر سليمان معتمد على تأييدهما اعتماداً تاماً ، وبدأا يمهدان لانتزاع الخلافة من يده ، فزعم علىّ أن هشاما المؤيد أوصى له بالخلافة وأعلن استقلاله فى سبتة عن سليمان المستعين ، وتواطأ مع زاوى بن زيرى زعيم الصنهاجيين فى الأندلس — وكان مستقراً فى غرناطة — ومع خيران الفتى العامرى على خلع سليمان . ثم دخل قرطبة فى ٢٢ المحرم ٤٠٧/أول يوليو ١٠١٦ وعزل سليمان المستعين وقتله وأخاه عبد الرحمن وأباه الحكم وتولى الخلافة متلقباً بلقب الناصر لدين الله ، وبدأت بذلك قصة خلافة بنى حمود التى وصلت بالخلافة القرطبية إلى قمة الأزمة التى أدت إلى زوالها .

(١) غانم بن محمد بن عبد الرحمن المخزومى من أهل مالقة ، ذكره ابن سعيد فى « المغرب » باسم غانم بن الوليد بن عمر بن غانم الأشونى (نسبة إلى أشونة Osuna) الساكن بمالقة « فقيه ومدرس وأستاذ فى الآداب وفنونها ، مجود مع فضل وحسن طريقة » كما يقول ابن بشكوال ، وقد توفى سنة ٤٧٠ .

ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٩٧٩ ص ٤٥٠ — ٤٥١ .

ابن سعيد ، المغرب ، ١/٣٧٠ .

ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ — مجلد ٢ ص ٣٤٥ وما بعدها . والأبيات التى أوردها ابن الأبار هنا واردة فى الذخيرة ، ص ٣٥٤ مع خلاف قليل فى اللفظ .

(٢) انظر عنه : المغرب لابن سعيد ، ١/٤١٣ .

وكأنّ الشمسَ لما أشرقتْ وانثنتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وجهُ إدريسَ بنِ يحيى بنِ على بنِ حمودٍ أميرِ المؤمنين
خطَّ بالمسكِ على أبوابهِ : ادخلوها بسلامٍ آمنين
ملكٌ ذو هيبةٍ لكنهُ خاشعٌ لله رب العالمين
وإذا ما رُفعت راياتُهُ خفقتْ بين جناحى جَبْرَئِين
وإذا أشكَلَ خطبٌ مُعضلٌ صَرع الشكَّ بمفتاح اليقين
وإذا راهن فى السبق أتى وبيمناه لواء السابقين
يا بَنى أحمدَ يا خيرَ الورى بأبيكمْ كانَ رِفْدُ المسلمين
نزلَ الوحىُ عليه فاحتبى فى الدجى فوقهمُ الروحُ الأمين
[٦٣-١] /خُلقوا من ماء عدلٍ وتقًى وجميعُ الناسِ من ماء وطين

وأول هذه القصيدة :

أَلِبَرْقٍ لائحٍ مِن أَنْدَرِينْ ذَرفتْ عيناكَ بالدمع المَعين[1]
لعبتْ أسيافهُ عاريةً كمخاريقَ بأيدى اللاعبين

ومنها :

ومصابيحُ الدُّجى قد أطفئتْ فى بقايا مِن سوادِ الليلِ جُونْ
وكأن الطَّلَّ مِسكٌ فى الثرى وكأن النَّوْرَ درٌّ فى الغصون
والندى يقطرُ من نَرجِسِهِ كدموعٍ أسلمتهنَّ الجفون
والثريا عُلِّقَتْ فى أُفْقِها كقضيبٍ زاهرٍ من ياسمين

---

(١) وردت أبيات من هذه القصيدة فى معظم مراجعنا . وقد أسقط ابن الأبار بعد هذا البيت بيتاً لا يستقيم السياق بدونه :

ولصوتِ الرعدِ زجرٌ وحنين ولقلبى زفَراتٌ وأنين

وهذا من أحسن ما قيل فى تشبيه الثريا .

وكان إدريس هذا متناقض الأمور : كان أرحم الناس قلباً ، كثيرَ الصدقة يتصدق كلَّ يومِ جمعةٍ بخمسمائة دينار ، وردَّ المطرودين إلى أوطانهم وصرفَ إليهم ضياعَهم وأملاكَهم ، ولم يسمع بَغْياً فى أحد من الرعية . وكان أديب اللقاء حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبياتَ الحسان . ومع هذا فكان لا يصحب ولا يقرِّب إلا كل ساقط نذل ، ولا يحجب حُرَمَهُ عنهم ، وكل من طلب منهم خِصناً أعطاه إياه . وسلَّم وزيرَه ومدبرَ إمامته وصاحبَ أبيه وجده موسى بنَ عفان إلى أمير صنهاجة فقتله ، وكان الصنهاجي سأل ذلك منه وكتب إليه فيه ، فلما أخبر إدريسُ موسى بنَ عفان بذلك وبأنه لا بد من تسليمه إليه قال له : « افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . وهو القائل بديهاً ، وقد غُنِّى ما لم يَرضَهُ فى مدحه فقال للمغنى : « أعد الصوتَ وقل :

إذا ضاقت بك الدنيا فعرِّجْ نحو إدريسا
إذا لاقيتَـــه تلقى رئيساً ليس مرءوسا
إمامٌ ماجدٌ ملكٌ يزيل الغمَّ والبوسا »

هؤلاء خاتمة الأدباء من الملوك العلوية والمروانية ، لذهاب سلطانهم وانقراض مُلكهم بالأندلس والمغرب فى هذه المائة الخامسة ، واستيلاء الثوار على الأقطار .

وفيها أيضاً كان انقراض الدولة العُبَيدية بإفريقية على يدى المعز / بن باديس [٦٣ - ب] الصنهاجي .

وافترقت الجماعة بالأندلس على رأسها إلى وقتنا هذا ، وتسلَّط العدوُّ أثناء ذلك فتحيَّفَها ، ثم والى مَغَاره وخَسَارَه حتى أتلفها . ونظَمها فى هذه الفترة ملكُ المغرب أحياناً ، وانفردت بالثائرين فيها أحياناً . وفى كل ذلك لم تقم

لها قائمة ، ولا أغنت عنها واردةٌ ولا حائمة ، وما برحت تُخِلُّ بها وتُؤذِن بعَطَبها فاتحةٌ من فتنتها وخاتمة .

* * *

ونعود إلى ذكر أمراء الفتنة :

١١٧ — جَهْوَر بن محمد بن جهور بن عبيد الله، أبو الحزم — رئيس قرطبة

قد تقدم ذِكرُ جدِّه أبي الحزم جهور بن عبيد الله والرفعُ فى نَسَبه ، وكان جدهم أبو أمية عبد الغافر بن أبى عبدة من وزراء عبد الرحمن بن معاوية . وسماه عيسى بن أحمد الرازى فى حُجّاب هشام الرضى بن عبد الرحمن بن معاوية ، قال : وكانَ من أهل الخير والدين والفضل ، وهو صاحب الخاتم للإمام هشام ولابنه الحَكم — يعنى الرَّبَضى . وسَمّى أيضاً فى حُجاب الحَكم هذا عبدَ العزيز أبا عبدة أخا عبد الغافر .

وما زال هؤلاء الجَهاوِرَة يتعاقبون على الخُطط السنية البشريفة ، من الحِجابة والوزارة والقيادة والكتابة ، إلى أن وقعت الفتنة العظمى بالأندلس ، وأولُ من أَرَّث نارَها ، وأورث شنارها ، محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى . فتناوب قصرَ قرطبة جماعةٌ من الأموية والعلوية فى المدة القريبة ، آخرهم هشام بن محمد ابن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر المُعْتَدُّ ، لم يكن عندهم غَناء ، ولا فُقد بتوليتهم التواء ولا عناء . وحينئذ استولى على الأمر بقرطبة ، دارِ الخلافة وقرارة المُلك ، أبو الحزم هذا الأخير زماناً الأول سلطاناً ، وإن كان ما فارق رسْمَ الوزارة ولا تحول عن داره إلى قصور الخلفاء ، لاتصافه بالرجاحة والدهاء .

قال ابن حَيّان — وذَكر اجتماعَ الملأ من أهل قرطبة على تقديمه : أعطوا منه قوس السياسة باريها ، وولوا من الجماعة داهيتها[١] . فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه ، فاقترن صلاحُهم به . وأجاد السياسة[٢] ، فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدتَه . وحصَّل كل ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتلتِه ، وصيّر ذلك فى أيدى ثقاتٍ من الخدَمة ، [مُشارفاً لهم بضبطه ، فإن فَضَل شىء تركه بأيديهم مثقفاً مشهوداً عليه ، لا يتلبس لهم بشىء منه][٣] ، ومتى سئل قال : « ليس لى عطاء/ ولا منْع ، هو للجماعة وأنا أمينهم » . وإذا [٦٤ – ١] رابه أمر عظيم ، أو عزم على تدبيرٍ ، أحضرهم وشاورهم . وإذا خوطب بكتاب ، لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء . فأعطى السلطان حقه من النظر ، ولم يخل مع ذلك من نظره[٤] لمعيشته ، حتى تضاعف ثراؤه ، وصار لا تقع عينه على أغنى منه . حاط ذلك كلَّه بالبخل الشديد ، والمنع الخالص ، اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعناً ، ولـكَمُل لو أن بشراً يكمُل .

قال : وكان — مع براعته ورفعة قدره وتشييد [ه لقديمه][٥] لحديثه — من أشد الناس تواضعاً وعفة ، وأشبههم ظاهراً بباطن ، وأولا بآخِر ، لم تختلف به حال ، من الفَتاء إلى الـكهولة .

واستمر فى تدبيره قرطبةَ ، فأنجح سعيُه بصلاحها ولمّ شعثَها فى المدة

---

(١) ابن الأبار ينقل هنا عن ابن حيان ، وقد نقل نفس العبارة ابن عذارى فى البيان المغرب (حـ ٣ ص ١٨٦) ، وقد ورد فيه هنا : أمينها .

(٢) عند ابن عذارى : وأحادوا السياسة فيه .

(٣) أسقط ابن الأبار هذه العبارة من كلام ابن حيان رغم أهميتها الكبيرة فى تفصيل النظام الذى سار عليه أبو الحزم بن جهور فى سياسة أمور قرطبة ، ولهذا جعلتها بين أقواس . أما رواية ابن بسام (قسم ١ مجلد ٢) فتضيف هنا : متهوداً عليه [إلى أن يعن وقت تصرفه] .

(٤) الكلمة غير واضحة فى الأصل ، وقد قرأها دوزى (ص ١٦٩) : ربحه . والعبارة التى أثبتها واردة فى البيان المغرب . وفى رواية الذخيرة : ترقيمه.

(٥) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ١١٦ .

القريبة ، وأثمر الثمرة الزكية ، ودب دبيب الشفاء فى السقام ، فنعَش منها الرفات ، وألحفها رداء الأمن ، ومانع عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتوزعين أسلابَها ، بخفْض الجناح ومعاملة الرفق[1] ، حتى حصل على سَلمهم واستدرار مرافق بلادهم . ودارى القاسطين من ملوك الفتنة ، حتى حفظوا حضرتَه ، وأوجبوا لها حرمةً ، بمكابدته الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله ، فرَخَت الأسعارُ وصاح الرخاء بالناس أن : هلموا[2] ! فلبّوْه من كل صقع ، فظهر تزيُّد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها . وغَلَت الدور ، وحرّكوا[3] الأسواق ، وتعجب ذوو التحصيل للذى أرى[4] اللهُ فى صلاح الناس من القوة — ولمّا تعتدل حال أو يهلك عدو أو تَقْوَ جباية — وأمر الله تعالى بين الكاف والنون .

وقال الحميدى : لم يدخل فى أمور الفتن قبل ذلك ، وكان يتصاون عنها . فلما خلا له الجو وأمكنته الفرصة ، وثب عليها — يعنى قرطبة — فتولى أمرها واستضلع بحمايتها . ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً ، بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه ، وجعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجىء مستحق يُتفق عليه فيُسلم إليه . ورتّب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور ، على ما كانت عليه أيامَ الدولة ، ولم يتحول من داره إليها . وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتّبهم لذلك ، وهو المشرف عليه . وصيّر أهلَ الأسواق جنداً ، وجعل أرزاقَهم رؤوسَ أموال تكون بأيديهم مُحصاة عليهم ، يأخذون ربحها فقط ورؤوسُ الأموال باقية محفوظة ، يؤخذون بها ويُراعَوْن فى الوقت بعد الوقت

---

(١) عند ابن عذارى : والرفق فى المسائل .

(٢) فى البيان المغرب (٣/١٨٧) : أن يعلموا ، وهو خطأ .

(٣) فى البيان المغرب : فتحركت الأسواق .

(٤) فى البيان المغرب : أرأى ، وهو خطأ .

كيف حِفْظُهم لها . / وفرّق السلاحَ عليهم ، وأمرهم بتفريقه فى الدكاكين [٩٤-ب]
وفى البيوت ، حتى إذا دهم أمرٌ فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه . وكان
يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جارياً فى طريقة الصالحين . وهو — مع ذلك —
يدبر الأمر بتدبير السلاطين المتغلبين[1] ، وكان [مأموناً][2] وقرطبة فى أيامه
حريماً يأمن فيه كلُّ خائفٍ من غيره ، إلى أن مات فى صفر — وقال ابن حيّان :
ليلةَ الجمعة السادسة من محرم ، ثم اتفقا — سنة خمس وثلاثين وأربعمائة .

ومن شعره ، وكتب به إلى المنصور محمد بن أبى عامر :

متع الله سيدى بالسرور ... وتولاه فى جميع الأمورِ
وهنيئاً له بعـــزة دهرٍ ... تتوالى بظلِّ تلك القصور
دعوةٌ أقبلَ الضميرُ بنجوا ... هُ عليها لصَفْوِ ما فى الضمير[3]

هكذا وجدتُ هذه الأبيات منسوبةً إلى جهور بن محمد فى كتاب « مطمح الأنفس » للفتح بن عبيد الله ، وقد بينتُ غلطَه فيما نَسب إليه مما ثبتَ أنه لجده جهور بن عبيد الله ولغيره . ولا يبعُد أن يهنِّئ المنصور فى آخر دولته ، لأنه حينئذ — بل عام وفاته — كان يشارف الثلاثين فى سِنِّه . ولعل هذه الأبيات — على ضعفها — لأبيه أبى الوليد محمد بن جهور بن عبيد الله الوزير ، فإنه كان خاصًّا بالمنصور ، وهو الذى أطلعه على أمر جعفر بن على الأندلسى صاحبِ المسيلة واختلافِ البربر إليه بقصر العُقاب ، واستأذن على المنصور فى وقت لم يكن يصل فيه إليه أحد ، فكسَر رائحةَ النبيذ عنه ، ووارى الحُرَم ، وأصغى إليه ، وقبل نصيحته ، فقتل جعفر على أثر ذلك .

---

(١) وردت الكلمة فى الأصل : المـ ن ، وقد أكملتها من كلام الحميدى ، وعنه ينقل ابن الأبار هنا . جذوة المقتبس ، بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٣٧١) : ص٢٨ .
(٢) بياض بالأصل ، والتكملة من جذوة المقتبس للحميدى.
(٣) لم أجد هذه الأبيات فى نسخة مطمح الأنفس المطبوعة .

وتوفى أبو الوليد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة . ذكر ذلك ابن حيان فى تاريخه الكبير ، وصدّر به المتوفين فى الدولة العامرية من الوزراء والخواصّ . ولم يُنشد الحُميدى لأبى الحزم الأخير شعراً ، وأنشد لأبيه أبى الوليد هذا :

أبلغت فى حبك اسماعى فصرتُ لا أصغى إلى الداعى
من صممٍ أورثنيه الأسى وحُرقة [تُشعِـ]ـل[(١)] أوجاعى
كلفتَنى الصبرَ وأنّى به وكيف بالصبر لمرتاع ؟
جزعتُ فى الحب على أننى [فى الخطب][(٢)] جلْد غير مجزاع

وسيأتى ذكر أبى الوليد محمد بن جهور بن محمد — الذى خلف أباه فى رئاسة [٦٥-١] قرطبة وتدبير أمرها ، إلى أن قَبض/عليه المعتمد محمد بن عباد — بعد هذا ، إن شاء الله تعالى .

١١٨ — محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى القاضى ، أبو القاسم

قال أبو رافع الفضل بن على بن أحمد بن حزم فى كتابه الموسوم بـ « الهادى إلى معرفة النسب العَبّادى » : هو أبو القاسم محمد بن ذى الوزارتين أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عِطاف بن نُعيم . وعِطاف — وضبطه بكسر العين وتخفيف الطاء المهملتين — عن غير أبى رافع ، هو الداخل منهم بالأندلس فى طالعة بَلْج بن بشر القُشَيْرى ، وقيل إن عِطَافاً ونُعَيْماً هما الداخلان معاً إلى الأندلس . وكان عِطافٌ من أهل حِمْص من صقع الشام ، لَخْمِىّ النسب صريحاً ، وموضعه من حمص

(١ و٢) التكملة من جذوة المقتبس للحميدى .

العريش ، والعريشُ فى آخر الجِفَار بين مصر والشام . ونزل بالأندلس بقرية يُومِين من إقليم طُشَانَة[1] من أرض إشبيلية ، وعلى ضفة نهرها الأعظم . وقال غير أبى رافع إنهم من وَلد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وبذلك كانوا يفخرون ويُمدَحون ؛ وهذا ابن اللبانة يقول :

من بنى المنذرين وهو انتساب[2] زاد فى فخره بنـــو عبادِ
فتية لم تلد ســـواها المعالى والمعالى قليـــلة الأولاد

وقال ابن حَيَّان : إسماعيل بن عباد قاضيهم القديم الولاية[3] ، ورجل

---

(١) فى الأصل : لمشانة ، والتصويب من الذخيرة لابن بسام ، مخطوطة أوكسفورد ، ورقة ٢ ظهر .

وطشانة هى Tocina فى مديرية إشبيلية حالياً .

أما « يومين » فقد حقق اسمها دوزى فى تعليقاته على الترجمة اللاتينية لهذه القطعة فى *Script. Ar. Loci de Abbad.* I, 227. وقال إنه وجد فى كتاب :

Repartimiento de la muy nobe y leal ciudad de Sebilla que hiço el Rey Alonśo el dezimo, Rey de Castilla y Leon que por excelencia fue llamado el Sablo, era de 1291, que es Ano del Senor 1253 (Mus. Brittan. Ms. Egerton 478,fol.2v.)

عبارة تقول إن القرية التى كان العرب يسمونها Torconina غيَّر الملك ألفونسو اسمها إلى مولينا Molina . ورجح فى ظن دوزى أن الاسم مصحف فى هذا المخطوط ، وأن صحته Toriomina وهو بالعربية طُور يُومين أى جبل يومين .

(٢) فى الأصل :

من بنى المنذر بن ماء السماء وهو انتساب زاد فى فخره بنو عباد

وهو واضح الانكسار ، وقد صوبه دوزى على هذا النحو ، وهو صحيح .

Abbadides II, 47 n.c.

(٣) عند ابن بسام : قديم الولاية ، وقد نشر دوزى نص الذخيرة لابن بسام فى الجزء الأول من مجموعه عن أقوال المؤرخين فى بنى عباد وعنوانه :

Historia Abbadidorum (Lugduni Batavorum. Leiden, 1846) pp.220 sqq.

وعنوان الجزء الثانى من هذا الكتاب يختلف عن ذلك ، وقد سبق أن ذكرناه . وسأشير إليه فيما يلى من التعليقات بعبارة : دوزى ، بنو عباد .

الغرب[١] قاطبة المتصل الرئاسة فى الجماعة والفتنة . وكان أيسرَ مَن بالأندلس وقتَه[٢] : ينفق من ماله وغلّاته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ، ولا خدمَه[٣] . وكان واسع اليد بالمشاركة[٤] . آوى صنوف الجاليَـة من قرطبة عند احتدام الفتنة . وكان معلوماً بوفور العقل وسُبوغ العلم والزكانة ، مع الدهاء و بعد النظر و إصابة القَرْطَسَة[٥] .

فأما ذو الوزارتين أبو القاسم ابنُه فأدرك متمهلا ، وسما بَعدُ إلى بلوغ الغاية ، فخلّط ما شاء ، وركب الجرائم الصعبة . وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه إسماعيل ، ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بَعد بُعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة ، فخانه تخوّن الأيام عند إدبارها عنه ، إيثاراً للحزم وطلباً للعافية ، وصَدَّه عن إشبيلية بلدِه لما قصده من قرطبة مفلولا .

وكان الذى وطّد له ذلك نفرٌ من أكابرها المرتسمين بالوزارة ، مناغين فى [٦٥–ب] ذلك لوزراء/ قرطبة على تحميلهم لابن عباد كِبْرَ ذلك ، لإنافَتِه عليهم فى الحال

---

(١) الأصل : المغرب ، والتصويب من ذخيرة ابن بسام ، مخطوط أوكسفورد ، ورقة ٢ ظهر . والمراد غرب الأندلس . ومن المعروف أن ابن بسام – فى مضاهاته لتقسيم يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى إلى أقطار يذكر فى كل منها ما يختاره لشعرائها – قسم الأندلس إلى ثلاثة أقسام : الشرق والغرب والموسطة .

(٢) نص ابن حيان برواية ابن بسام (الذخيرة ، ورقة ٢ ظهر) : « وكان أيسر مُكَوَّر بالأندلس وقتَه » . ومكور أى معمَّم ، كناية عن أنه كان من أهل الفقه والعلم والقضاء . انظر ملحق القواميس لدوزى : ٢/٤٩٧ .

(٣) غريب أن يقول ابن حيان أن إسماعيل بن عباد لم يخدم السلطان ، وهو يقول قبل ذلك أنه كان قاضياً ، بل قديم الولا ية فى القضاء . ولعله أراد أن إسماعيل بن عباد لم يتول شيئاً من الوظائف الإدارية أو السياسية .

(٤) المشاركة هنا تعنى المزارعة ، أى تقديم أراضيه للفلاحين يزرعونها بالمشاركة ، له حصة من المحصول ولهم حصة ، وتسمى أيضاً المقاسمة والمناصفة .

(٥) القرطسة هى الهدف الذى كان يوضع ليتدرب على إصابته الرماة .

انظر : ملحق القواميس لدوزى : ٢/٣٣٠ .

وسعة النعمة ، و إحصائهم عليه مِلكَ ثلث إشبيلية ضيعة وغلة ، يخادعونه بذلك عن نَشَبه إبقاء منهم على نعمهم ، وهو يشترى بذلك أنفسهم ولا يشعرون ، إلى أن وقعوا فى الهوة . وكانوا جماعة ، منهم ولد[1] أبى بكر الزبيدى النحوى و بنو يَرَيم[2] وغيرهم ، راض بهم الأمورَ ، واستمال العامة ؛ فلما توطأت له قبض أيدى أصحابه هؤلاء[3] ، وسما بنفسه وأسقط جماعتَهم .

قال : وسلك سيرةَ أصحاب الممالك الذين بالأندلس لأول وقته ، وقام بأصح عزم وأيقظِ جدٍّ ، واخترع فى الرئاسة وجوهاً تقدم فيها كثيراً منهم ، [وامتثل رسمهم[4] ابن يعيش[5] صاحب طليطلة من بينهم فى تمسكه بخطة القضاء وارتسامه

---

(١) رواية الذخيرة : بنو أبى بكر الزبيدى.

(٢) فى الذخيرة : بنو يريم صنائع ابن عباد . وقد ترجم دوزى هذه العبارة بقوله : filii Jarīmi ministri Ibn Abbadī أى أبناء يريم وزراء ابن عباد ، والنص لا يحتمل ذلك . وورد ذكره فى البيان المغرب لابن عذارى : ابن مريم .

(٣) نص ابن حيان عند ابن بسام يقول هنا : « وجرت له فى تدبيرهم أمور يشق إحصاؤها ركب فيها [أحزم] طرق طلاب الدول ، حتى انفرد بسابقته ، ومهد لدولته ، واجتمع أهل عمله على طاعته ، فدانوا له » . والتكملة بين المعقوفتين من البيان المغرب لابن عذارى : ٣/١٩٦ .

(٤) بياض بالأصل ، والتكملة من الذخيرة ، ورقة ١٣ .

(٥) لم أجد ذكراً لابن يعيش فيما ذكر ابن حيان من أخبار بنى ذى النون وأولية أمورهم (الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ١ ، ص ١٠٩ وما بعدها) ولكنى وجدت بعض التفصيل فى :

ANTONIO PRIETO Y VIVES, *Los Reyes de Taifas. Estudio histôrico-numismático de los Musulmanes Espanoles en el siglo V. de la Hégira* (XIo de J.C.), Madrid, 1928, p. 51—52.

وملخصه أن طليطلة استولى على الأمور فيها عند قيام الفتنة جماعة من رؤسائها منهم ابن مسرة ومحمد ابن يعيش وسعيد بن شنظير ويعيش بن محمد بن يعيش المذكور وأبو عمرو أحمد بن سعيد بن شنظير وعبد الرحمن بن متيوه ، وقد اجتهد يعيش بن محمد بن يعيش حتى أصبح الرئيس الفعلى للجماعة (كما فعل إسماعيل بن القاسم بن عباد) ولكنه لم يستطع الاستمرار فى الحكم إذ اختلف عليه الناس وأخرجوه ، واحتاجوا إلى من يقوم بأمرهم بعد ذلك فخاطبوا إسماعيل بن ذى النون — وكان مستقراً فى شنتبرية Santâver إلى شمال شرقى طليطلة ، وكان زعيماً من زعماء البربر فى كورة طليطلة ، وكان سليمان المستعين قد ولاه مدينة أُقْلِيش ، ثم أضاف إليها كُونْكَة ، فأقبل بجنده ودخل البلد واستبد بأمره وأعلن انفصاله عن قرطبة والجماعة ، فكان أول من فعل ذلك ممن سموا بعد ذلك =

بها ، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابرة . وأقبل يضم الأحرار من كل صنف ، ويشترى العبيد والجد يساعده والأمور تنقاد له ، إلى أن ساوى ملوك الطوائف ، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه ، فنفع الله به كافةَ رعيته ، ونجاهم من مُلك البرابرة[1] . وتوفى لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة . وهو القائل يفخر :

ولا بد يوماً أن أسود على الورى ... ولو رُد عمرو للزمان وعامرُ
فما المجد إلا فى ضلوعىَ كامنٌ ... ولا الجودُ إلا مِن يمينىَ ثائرُ
فجيش الملا ما بينَ جنبىَ جائلٌ ... وبحر الندى ما بين كَفىَ زاخرُ

وله :

محبٌّ ما يساعـــده الحبيبُ ... رأى وجهَ الإنابة لو يُنيبُ
ويبكى للصِّبا إذ زال عنهُ ... فيضحك فى مَفَارِقِه المشيبُ
وكم أخيتْ حشاشتَه أمانٍ ... يباعدُ بينَها الأجلُ القريبُ

وله فى الياسمين :

وياسمينٍ حسنِ المنظرِ ... يفوق فى المرأى وفى المخبرِ
كأنه من فوق أغصانه ... دراهم فى مِطْرفٍ أخضرِ

= ملوك الطوائف . وقد ترجم ابن بشكوال لأبى بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى ، وقال إنه من أهل طليطلة ، ثم رحل إلى المشرق لطلب العلم ، « وكان حافظاً للفقه ذاكراً للمسائل ، وتولى الأحكام ببلده ، ثم صار إليه تدبير الرياسة به ، ونفع الله به أهل موضعه ، ثم خلع من ذلك وصار إلى قلعة أيوب وتوفى بها سنة ٤١٨ ، كذا قال ابن مطاهر ، وقال ابن حيان : توفى فى صفر سنة ١٩ » ترجمة رقم ١٤٠٥ ص ٦٢٨ .

(١) وقف ابن الأبار هنا بكلام ابن حيان ، وبقيته فى الذخيرة ، بنوعباد : ١/٢٢١ وما بعدها .

وله فيه :

يا حبـــذا الياسمينُ إذ يزهرْ فوق غصـــونٍ رطيبةٍ نُضّرْ
/قد امتطى للجمال ذروتَها فوق بساط من سندس أخضرْ [٦٦-١]
كأنه والعيونُ ترمقـــه زمرد فى خِـــلاله جوهرْ

وله فى الظيان[1] :

ترى ناظر الظَّيّان فى لونـ إذا مرّ ماء السحائب يغتذى
وحفَّت به أوراقُه فى رياضِهِ وقد قُدَّ بعضٌ مثلَ بعضٍ وقد حُذى
كصُفرٍ من الياقوت يلمعْنَ بالضحى منضَّدة من فوق قُضْبِ الزمرذِ

وله فيه :

كأن لونَ الظَّيّان حين بدا نُوّاره أصفراً على ورقِهْ
لونُ محبٍّ جفاه ذو مللٍ فاصفرّ من سُقمهِ ومن أرقِهْ

وله فى النيلوفر :

يا حُسنَ منظرِ ذا النيلوفر الأرِجِ وحُسنَ مَخبرِهِ فى القَوح والأرَجِ
كأنه جامُ دُرٍّ فى تأنُّقِـــهِ قد أحكموا وَسْطَهُ فصًّا من السَّبَجِ

١١٩ ــ ابنه عباد بن محمد المعتضد بالله ، أبو عمرو

قال ابن بسام فى كتابه الموسوم بـ « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » : تَسَمَّى أولا بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد . قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ،

(١) فى الهامش إلى يسار السطر : الظيان الياسمين البرى ، وهو نبت يشبه النسرين .

مِن رجلٍ لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سَلِم عليه قريبٌ ولا بعيد . جبارٌ أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسدٌ فَرِسَ الطُّلَى وهو رابض . متهور تتحاماه الدهاة ، وجبار لا تأمنه الكماة . متعسف اهتدى ، ومُنْبَتٌّ قطع فما أبقى . ثار والناس حرب ، وكل شيء عليه أَلْب ، فكفى أقرانَه وهم غير واحد ، وضبَط شانَه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يدُه ، واتسع بلدُه ، وكثر عديده وعددُه . افتتح أمرَه بقتل وزير أبيه حبيب طعنةً فى ثغر الأيام مَلَّكَ بها كفَّه ، وجباراً من جبابرة الأنام شرَّد بها مَن خلفَه ، فاستمر يَفْرى ويَخْلُق[1] ، وأخذ يجمع ويفرق ، له فى كل ناحية ميدان ، وعلى كل رابية خَوّان[2] . حربه سم لا يبطئ ، وسهم لا يخطئ ، وسلمُه شر غير مأمون ، ومتاع إلى أدنى حين .

[٦٦ ب] وذكره ابن حيان فقال ، وقد نُعِى إليهم بقرطبة : / وعَشِىَّ يوم الأحد لستٍّ خلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين — يعنى وأربعمائة — طرقَ قرطبةَ نعىُ المعتضد عباد ، زعيمِ جماعة أمراء الأندلس فى وقته ، أسدِ الملوك ، وشهابِ الفتنة ، وراحض العار ، ومدرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعة ، والجرائر الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهمم العلية ، والسطوة الأبية . فرماه الله بسهم من مَرامِيه المصمية ، أمَدَّ[3] ما كان فى اعتلائه ، وأرقى ما كان إلى سمائه ، وأطمعَ ما كان فى الاحتواء على الجزيرة ، محتفِزاً[4] لها عند تشميره الذيلَ بفتنةٍ لا كفاء

---

(١) ضبطها دوزى : يخلّ ، والصواب ما أثبتناه . ويخلق الأديم يُقَدِّرُ لما يريد قبل القطع ويقيسه ليقطع منه قربة أو خُفّاً وما أشبه ، ويفرى ويخلُق مصطلح معروف معناه إنفاذ الإنسان لما عزم عليه . اللسان : ١١/٣٧٥ .

(٢) ضبطها دوزى : خُوّان ، وترجمها et in quovis colle latronis ، ومعنى latronis لص أو قاتل ، وفسرها دوزى بمعنى خائن وقال إن جمعها خُوّان ، وقد أخذها من قولهم : قطعتُ الطريق وخُنت السبيل . والصواب خَوّان ، وهو من أسماء الأسد .

(٣) قرأها دوزى (بنوعباد ، ١/٢٤٢) : أجدّ .

(٤) فى الأصل ، وفى مخطوط الذخيرة (ورقة ٥ وجه) : محتقراً ، وهكذا قرأها وأثبتها دوزى (بنوعباد ، ١/٢٤٢) وليڤى پروڤنسال (البيان المغرب ، ٣/٢٠٤) . والصواب ما أثبتناه ، واحتفز الرجل فى جلوسه أراد القيام والبطش . اللسان : ٧/٢٠٣ .

لها . فتوفاه الله على فراشه من علة ذُبَحة قصيرة الأمد ، وحِيَّة الإجهاز ، اتفقت الحكايات على أنها كانت شِبهَ البَغْت . وكانت ولايته بعد موت أبيه يومَ الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ، وقضى نحبه يوم السبت الثانى من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين ، ودُفن عشيّ يوم الأحد بعده . تغمد الله خطاياه ، فلقد حُمِل عنه على مر الأيام — فى باب فرط القسوة ، وتجاوز الحدود ، والإبلاغ فى المُثْلة ، والأخذ بالظِّنة ، والإخفار للذمة — حكاياتٌ شنيعة ، لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ، فالقول ينشاع[1] فى ذكرها . ومهما برئ من مغبتها ، فلم يبرأ من فظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة : سجايا من جِبِلَّتِه لم يحاشِ فيهن ذوى رحم ، ولا غلبهن بحيلة .

وقد كان تَقَيَّل سيرة أحمد بن أبى أحمد بن المتوكل ، آخِر أشداء خلائف العباسيين ، الذى ضَمَّ نشرَ المملكة بالمشرق ، وسطَا بالمنتزين عليها ، وبفقده انهدمت الدولة . فحمل عَبّادٌ سِمَتَه المعتضدية ، وطالعَ بفضل نظره أخبارَه السياسية ، التى أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرئاسة ، فى صلابة العصا وشناعة السُّطَا[2] ، فجاء منها بمهولات تُذْعِر مَن سمعها ، فضلا عمن عاينها ، نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عَبّاد [امتثالها من][3] غير دلالة ، ولم يقصر فى دولته التى مهّدها فوق أطراف الأسنة ، وصيَّر أكثر شغله فيها شَبَّ الحروب ، وكِيادَ الملوك ، وانهراجَ[4] البلاد ، وإحراز التِّلاد ، من[5] توفُّر حظه من الأمور الملوكية ، والعُدد السلطانية / والآلات الرياسية . [٦٧ - ١]

---

(١) فى الذخيرة (دوزى ، بنوعباد ، ١/٢٤٢) : ينساغ ، وفى نسخة أخرى . ينساع .

(٢) الأصل : السطى ، ولم أجد هذه اللغة فى سطا يسطو سطوا .

(٣) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة (بنو عباد ، ١/٢٤٣) .

(٤) الذخيرة : إهراج البلاد ، وهو أصح . والهرج الفتنة ، كما فى اللسان .

(٥) رواية الذخيرة: فى .

ومن نادر أخباره [المتناهية فى الغرابة][1] أن [نال بغيته][2] وأهلك [تلك][3] الأمم العاتية ، وإنه لغائب عن مشاهدتها ، مترفهٌ عن مكابَدَتها ، [مدبِّر][4] فوق أريكته ، منفذٌ لحيلها من جوف قصره . ما مشى إلى عدوٍّ أو مغلوب من أمثاله[5] غير مرة أو مرتين ، ثم لزم عريسَتَه يدبر داخلَها أموره . جرّد نهارَه لإبرام التدبير ، وأخلَصَ ليله لتملِّى السرور ، فلا يزال تُدار عليه كؤوس الراح ، ويُحيا عليها بقبْض الأرواح . له فى كل شانٍ شُوَيْن ، وعلى كل قلب سمعٌ وعين . ما إن سَبَرَ أحد من دهاة رجاله غورَه ، ولا أدرك قعرَه ، ولا أمِنَ مكرَه ؛ لم يزل ذلك دأبُه منذ ابتدائه إلى انتهائه .

قال : وكان عَبّاد أوتى من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، ونخامة الهيأة ، وسباطة البُنيان ، وثُقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ما فاق أيضاً على نظرائه .

ونظر مع ذلك فى الأدب — قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان — أدنى نظر بأذكى طبع حصَل منه ، لثقوب ذهنه ، على قطعة وافرة علقها ، من غير تعهد لها ، ولا إمعان فى غمارها ، ولا إكثار من مطالعتها ، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته نتيجتها[6] على ذلك ما شاء من تحبير الكلام ، وقرْض قطعٍ من الشعر ذات طلاوة ، فى معان أمدّته فيها الطبيعة ، وبلغ منها الإرادة ، واكتنبها الأدباء للبراعة .

جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كفٍّ بارَى السحاب . وأخبار عَبّاد — فى جميع أفعاله ، وضروب أنحائه : عالِيَاته[7] وخافياته — غريبة بعيدة .

(١ و٢ و٣) التكملة من الذخيرة ، بنو عباد : ١/٢٤٣ .

(٤) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة ، بنو عباد : ١/٢٤٣ .

(٥) الذخيرة : أقتاله .

(٦) الذخيرة : سَجيَّته ، والأصوب هنا أن يقال : أعانته سَجِيَّتُه .

(٧) فى الأصل : عالِياته .

وكان — على تجرُّده فى إحكام التدبير لسلطانه — ذا كلف بالنساء ، فاستوسع فى اتخاذهن ، وخلَّط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدًى لم يبلغه أحدٌ من نظرائه . فقيل إنه خلف من صنوفهن السَّرِيريّات خاصةً نحواً من سبعين جارية ، إلى حُرَّته الحَظِيّة لديه ، الفَذَّة من حلائله ، بنت مجاهد العامرى أخت على بن مجاهد أمير دانية ؛ ففشا نسلُ عباد لتوسُّعه فى النكاح وقوته عليه . وقال غير ابن حَيّان : افتض ثمانمائة بكر . وفى موت المعتضد يقول أبو الوليد بن زيدون — ولم يُظهره — سروراً بذلك واستراحةً منه ، لأنه كان غير مأمونٍ على الدماء ، ولا حافظ لحرمة الأولياء :

لقد سرَّنى أنَّ النَّعِىَّ موكَّلٌ بطاغيةٍ قد حُمَّ منه حِمَامُ
تجانَبَ صَوْبُ الغيث عن ذلك الصدا / ومرَّ عليه المزنُ وهو جَهَام [٦٧ – ب]

ومن شعره ، وقد جمعه ابنُ أخيه إسماعيل فى ديوان :

حَمِيتُ ذِمارَ المجدِ بالبِيضِ والسُّمْرِ وقصَّرتُ أعمارَ العداةِ على قَسْرِ
ووسَّعتُ سُبْلَ الجود طبعاً وصنعةً لأشياء فى العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجدَ للإنسان ما كان ضدُّهُ يشاركُهُ فى الدهر بالنهىِ والأمر

وله :

رعَى اللهُ حالينا : حديثاً وماضيَا وإن كنتُ قد جردتُ عزمىَ ماضيَا
فما لليالى لا تزال ترومنى ويرمِينَ منى صائبَ السهمِ قاضيا[1]؟
وقد عَلمتْ أنَّ الخطوبَ تطُوعُنى وما زلتُ مِن لِبسِ الدنيّات عاريا
أجددُ فى الدنيا ثياباً جديدةً يجدِّدُ منها الجودُ ما كان باليا

---

(١) قرأها دوزى (بنوعباد : ٢/٤٩) : قاصيا .

فما مرَّ بى بخلٌ بخاطرِ مهجتى ولا مرَّ بخلُ الناسِ قطُّ بباليَا
ألا حبذا فى المجد إتلافُ طارِفى وبذْلىَ عنـــد الحمد نفسى ومالِيا

وله :

لقد بسطَ اللهُ المكارمَ مِن كَفِّي فلستُ على العِلاتِ عنها أخا كفِّ
تُنادى بيوتُ المال من فرطِ بَذلها يمينىَ : قد أسرفتِ ، ظالمتى ، كُفِّى !
فتُغرى يمينى بالسَّماح فَتَنْهَمِي ولا ترتضِى خِلاًّ يقول لها : يكفى
لعمرُك ما الإسرافُ فىَّ طبيعةٌ ولكنَّ طبعَ البخلِ عندىَ كالحتفِ

وله :

يصبِّرُنى أهلُ المودة دائباً وإنَّ فؤادى — والإلٰهِ — صبورُ
أغار على مغنَى الرئاسةِ ، إننى على كلِّ حُسنٍ فى الزمان غيورُ
أصرِّفُ ذهنى فى أمورٍ جليلةٍ وأعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ

وله :

أقومُ على الأيام خـــيرَ مَقامِ وأوقِدُ فى الأعداء شرَّ ضِرامِ
[٦٨ - أ] / وأنفق فى كسب المحامد مُهجتى ولو كان فى الذكر الجميل حِمَامى
وأبلِغُ من دنياىَ نفسىَ سُؤلَها وأضربُ فى كلِّ العُلا بسهامى
إذا فَضح الأملاكَ نقصٌ فإنهُ يبيِّنُهُ عِنـــــد الأنام تمامى

وله :

عنِ القصدِ قد جاروا وما جُرت عن قصدى إذا خَفِيتْ طُرْقُ الفرائس عن أُسْدِ[1]
إذا اعترضوا للبخل أعرضتُ عنهم وإنْ مَنَّ أقوامٌ كتمتُ الذى أُسْدِى

---

(١) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٥٠) : أَسْدِى .

فلله ما أُخفِي من العدل والنَّـــدى ولله ما أبدِي من الفضل والمجد
ولا ألتقى ضيفى بغير بشاشـــةٍ إذاً فَجَحدتُ[1] اللهَ معروفَه عندى

وله :

أنامُ وما قلبى عن المجد نائمُ وإنَّ فؤادى بالمعـــالى لهائمُ
وإن قعدتْ بى علةٌ عن طِلابها فإنَّ اجتهادى فى الطلاب لدائمُ
يعز على نفسى إذا رُمت راحةً براحٍ ، فتثنينى الطباعُ الكرائم
وأسهر ليلِى مفكراً غيرَ طاعمٍ وغيرى على العِلات شبعانُ نائم
ينادى اجتهادى إن أحسَّ بفترةٍ : ألا أين يا عَبّادُ تلك العزائم ؟
فتهتز آمالى وتقـــوَى عزيمتى وتُذْكرنى لذاتُهنَّ الهزائم

وله :

زُهْرُ الأسنةِ فى الهَيْجا غدتْ زَهْرِى غرستُ أشجارَها مُستجزِلَ الثَّمَرِ
ما إنْ ذكرتُ لها مِن[2] معرَكٍ جَلِلٍ إلا تجلَّلتُه بالصارم الذَّكر
حتى غدوتُ وأعدائى تخاطبنى : يا قاتلَ الناس بالأجناد والفِكَر !

وله :

هٰذى السعادةُ قد قامت على قدمِ وقد جلستُ لها فى مجلس الكرمِ
فإن أردتَ إلهى بالورى حَسَناً فمَلِّكَنِّى زمامَ العُرْب والعَجم
فإننى لا عدلتُ الدهرَ عن حَسنٍ ولا عدلتُ بهم عن أكرمِ الشيَمِ
أقارعُ الدهرَ عنهم كلَّ ذى طلبٍ وأطردُ الدهرَ عنهمْ كلَّ ما عَدَمِ[3] [٦٨ – ب]

---

(١) كذا فى الأصل ، والأصوب هنا : لجحدت . وجعلها دوزى : فحمدت .
(٢) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٥١) : فى .
(٣) قرأها دوزى (بنوعباد : ٢/٥٢) : عرم، والأصح ما أثبتناه . و« ما » هنا زائدة .

وله :

وإذا توعَّرَتِ المسالكُ لم أُرِدْ فيهـــا السُّرَى إلا برأيٍ مقمرِ
وإذا طلبتُ عظيمةً ففاتحى فيهـا العزيمةُ والسِّنانُ السَّمْهَرى

وله :

لعمرك إنى بالمُـــــدامة قوّالُ وإنى لما يَهْوَى النُّدامَى لفعّالُ
قسمتُ زمانى بين كدٍّ وراحةٍ : فللرأى أسحارٌ ، وللطِّيب آصالُ
فأُمْسِى على اللذاتِ واللهو عاكفاً وأُضْحِى بساحات الرئاسة أختالُ
ولستُ—على الإدمان—أغفلُ بُغيتى من المجد ، إنى فى المعالى لمحتالُ

وله يخاطب أباه القاضى أبا القاسم ، وقد عتب عليه :

أطعتُك فى سِرى وجهرىَ جاهدًا فلم يكُ لى إلا الملامَ ثوابُ
وأعملتُ جُهدى فى رضاك مشمِّرًا ومن دون أن أفضى إليه حجاب
ولما كبَا جَدِّى إليك ولم يَسُغْ لنفسى على ســـوء المقام شراب
وقَلَّ اصطبارى حين لا لِىَ عندَكم من العطف إلا قسوةٌ وعتاب
فررتُ بنفسى أبتغى فَرجةً لها على أنَّ حلوَ العيشِ بَعدك صاب
وما هزنى إلا رســـولُك داعياً فقلتُ : أمـــيرُ المؤمنين مجاب
فجئت أُغِذُّ السَّـــير حتى كأنما يطير بسَرجى فى الفَلاة عُقاب
وما كنتُ بعد البَيْن إلا موطِّناً بعزمى على أنْ لا يكونَ إياب
ولـكنـــكَ الدنيا علىَّ حبيبةٌ فما عنكَ لى — إلا إليكَ — ذَهاب
أَصِبْ بالرضا عنى مَسَرَّةَ مُهجتى وإنْ لم يكنْ فيما أتيتُ صواب
وفضلُك فى ترك الملامِ ، فإنه وحقِّـــك فى قلبى ظُبًى وحِراب
[٦٩ — ا] / إذا كانتِ النُّعْمَى تُكَدَّرُ بالأذى فما هى إلا محنـــةٌ وعذاب
ولا تقبضَنْ بالمنـــع كفى فإنهُ وجـــدِّكَ نقضٌ للعلا وخراب

فكلُّ نَوالٍ لى إليكَ انتسابُهُ وأنتَ عليـــه بالثناء مُثاب
بقِيتَ مكينَ الأمر ما ذَرَّ شارقٌ وما لاح فى أُفْقِ السماء رَبَاب

وله إلى صهره مجاهد العامرى :

عَرفتُ عَرْفَ الصَّبا إذْ هبَّ عاطرُهُ مِن أفقِ مَن أنا فى قلبى أشاطرُهُ
أراد تجديدَ ذكراهُ على شَحَطٍ وما تيقَّنَ أنى الدهرَ ذاكرُهُ
قصاره[1] قيصر أن قام مفتخراً لله أوله مجـــداً وآخره
خِلِّى أبا الجيشِ ، هل يُقْضَى اللقاء لنا فيَشتفِى منكَ طَرْفٌ أنتَ ناظره ؟
شَطَّ المزارُ بنا ، والدارُ دانيـةٌ يا حبذا الفالُ لو صحَّتْ زواجره

وله أيضاً :

أترى اللقاءَ كما نحب يوفَّقُ فنظل نُصبَحُ بالسرور ونُغْبَقُ ؟
أفدِى أبا الجيش الموفَّقَ إنهُ للمَكْرُمات ميسَّرٌ وموفَّقُ
باهَى به الزمنُ البهىُّ كأنهُ بِشْرٌ على وجهِ الزمانِ ورونقُ
مَلِكٌ إذا فُهْنا بطيب ثنائهِ ظلتْ له أفواهُنا تتمطَّق
حسْب الرئاسة أنْ غدتْ مزدانةً بسناهُ ، فهو التاجُ وهى المِفرَق

وله فى النسيب :

يجور على قلبى هوًى ويُجيرُ ويأمُرنى ، إن الحبيبَ أميرُ
أغارُ عليه مِن لحاظى صيانةً وأكرمه ، إن المحبَّ غيور
أخفُّ على لقيا الحبيب وإننى لعمرك فى جُلَّى الأمور وقور

وله :

رعى اللهُ مَن يَصْلَى فؤادى بحبهِ سعيراً ، وعينَى منه فى جنة الخُلدِ

(١) المراد أصْلُه أو جده ، إشارة إلى الأصل الصقلبى لمجاهد العامرى ، ولم أجد هذه الصورة بهذا المعنى فى مادة « قَصَرَ » فى المعاجم ، وإنما وجدت « قَصَرَة » وهى أصل النخلة أو الشجرة ، والجمع قَصَرٌ ، ويبدو أن صحة اللفظ : فَأَصْلُه ، وبه يستقيم الوزن والمعنى .

[٦٩-ب] / غَزَالِيَّةُ العينين ، شمسِيَّةُ السَّنَا كَثِيبِيَّةُ الرِّدفين ، غُصْنِيَّةُ القَدِّ
شكوتُ إليها حبَّها بمدامعي وأعلمتُها ما قد لقيتُ من الوَجدِ
فصادف قلبي قلبَها وهو عالمٌ فأعدَى، وذو الشوق المبَرِّحِ قد يُعدِي
فجادت — وما كادت — عليَّ بخدها وقد ينبع الماء النميرُ من الصَّلْد
فقلتُ لها : هاتى ثناياكِ إننى أفضِّل نُوَّارَ الأقاحى على الورد
ومِيلى على جسمى بجسمك ، فانثنتْ تُعيد الذى أمَّلتُ منها كما تُبدى
عناقاً ولثماً أرَّثا[1] الشوقَ بيننا فُرادَى ومَثْنى كالشرار من الزَّند
فيا ساعةً ما كان أقصرَ وقتها لدىَّ تقضَّت غيرَ مذمومةِ العهد[2]

وله :

تنام ومدنَفُها يسهرُ وتصبر عنه ولا يصبرُ
لئن دام هذا وهذا بهِ سيهلِك وَجداً ولا يشعرُ

وله :

يا قمراً قلبي له مطلعُ وشادِناً فى مهجتى يرتَعُ
واللهِ ما أطمع فى العيش مُذ أصبحتُ فى وصلك لا أطمع
ليت كما يرتع فى مهجتى أنىَ فى ريقته أكرَع

---

(١) الأصل : أورثا ، ولا معنى له هنا .

(٢) قرأ دوزى هذا الشطر هكذا :

* لَدَىَّ تَقَضَّى غَيْرَ مُذْ موتها عهدى ! *

وترجمها إلى اللاتينية على هذه الصورة :

fata utinom complevissem, sed non antequam suavissima illa hora plane esset emortua !

(بنو عباد : ٢/٥٨) .

وله :

يطولُ علىَّ الدهرُ ما لم أُلاقِها ويقصُر إن لاقيتُها أطولُ الدهرِ
لها غُرَّةٌ كالبدر عند تمامهِ وصدغَا عَبيرٍ نَمَّقا صفحة البدر
وقدٌّ كمِثل الغصن مالت به الصبا يكاد لفَرط اللينِ ينقَدُّ فى الخَصر
ومشىٌ كما جاءت تَهادَى غمامةٌ ولفظ كما انحلَّ النظامُ عن الدر

وله ، وهو من جيد شعره :

شربنا وجَفنُ الليلِ يغسلُ كُحلَهُ بماء الصباح والنسيمُ رقيقُ
معتَّقةً كالتِّبر ، أما بخارها فضخم ، وأما جسمها فدقيقُ

/ وله فى الياسمين : [١-٧٠]

كأنما ياسمينُنا الغضُّ كواكبٌ فى السماء تَبْيضُّ
والطُّرْقُ الحمْرُ فى جوانبهِ كخد عذراء مسهُ عضُّ

وله وأنشد على منبر مالقة[1] ودُعِى له بها وبخمسةٍ وعشرين حصناً من حصونها جمعةً واحدة :

عَتادى أجرُ ما أولَيْتُ فيهم من الفتكاتِ بكرٍ أو عوانِ
وحسبى فى سبيل الله موتٌ يكون ثوابه دار الجنانِ

وهذا مثل قوله ، عندما ظفر بحصن رُنْدَة ، من أبيات كان يُعجَب بها ويأخذ الناس بحفظها :

سأُفنِى مُـــدةَ الأعدا ءِ إن طالتْ بىَ المدّهْ
وتَبلَى بى ضـــلالتُهمْ ليزدادَ الهدى جِـــدّه

---

(١) فى الأصل : مقالة ، والتصويب من دوزى (بنوعباد : ٢/٦٠) وهو صحيح هنا .

فكم من عِدَّةٍ قتَّلْـ ـتُ منهم بعـدَها عِدَّه
نظمتُ رؤوسَهم عِقداً فحَلَّتْ لبَّة الشُّدَّه[1]

وكانت له خزانة — أكرم لديه من خزانة جوهر — فى جوف قصره ، أودعها هامَ الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البَرْزالى ، ورؤوس الحُجّاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهم ، الذين قرن الله رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن على بن حَمُّود . وكان الذى يغريه بطلبهم أن بعض الراصدين مولدَه ، أخبر أن انقضاء دولته يكون على أيدى قوم يطرأون على الجزيرة من غير سكانها ، فكان لا يشك أنهم تلك البَرازلة[2] الطارئون عليها على عهد

---

(١) ترك ابن الأبار الأبيات الأولى من هذه القطعة ، وأوردها ابن بسام فى الذخيرة (بنوعباد : ١/٢٤٧) ، وها هى :

لقد حُصِّلت يا رنده فصرت لملكنا عِقده
أفادتناك أرماح وأسياف لها حده
وأجناد أشداء بهم تنتهى الشده
غدوتُ يرونى مولى لهم ، وأراهم عُده

وقد قرأ دوزى الأبيات الثلاثة الأولى من هذه محرفة تحريفاً شديداً .

(٢) بنو برزال — أو البرازلة — رهط من زناتة مواطنهم الأولى وسط الجزائر الحالية فيما كان يعرف بالزاب الأسفل . وكان الزاب الأعلى ، أى المطل على البحر إلى غربى قسطنطينة الحالية ، تابعاً لأمراء الأغالبة ثم العبيديين بعدهم ، أى أنه كان معتبراً جزءاً من إفريقية . أما الزاب الأسفل فكان مستقلا ، وقد أراد عبيد الله المهدى إخضاعه ، وتم له ذلك على يد قائده على بن حمدون الأندلسى واختط فيه مدينة المسيلة لتكون حصنا للسلطان العبيدى ، وكان بنو برزال نازلين حول المسيلة ، ودخلوا فى طاعة على بن حمدون ، ثم دارت حرب طويلة بين على بن حمدون والزعيم الصنهاجى المعروف زيرى بن مناد ، وانتهى الأمر بهجرة جعفر بن على بن حمدون الأندلسى إلى الأندلس حيث دخل فى خدمة الحكم المستنصر فى أواخر أيامه ، واستطالت صنهاجة يقودها زيرى بن مناد (جد بنى زيرى) على الزناتيين — وفيهم بنو برزال — بعد رحيل جعفر بن على ، فاستأذن جعفر الخليفة الحكم فى أن يعبر بنو برزال إلى الأندلس فأذن ، وعبر إلى الأندلس عدد كبير منهم ، ودخلوا فى خدمة الخلافة الأموية ، ثم استعان بهم المنصور بن أبى عامر فزادت =

ابن أبى عامر ، فأعمل فى نَـكالهم وجوهَ سياسته . واتفق أن دخل عليه يوماً بعض وزرائه و بين يديه كتاب قد أطال فيه النظر ، فإذا كتابُ سَقّوت[1] ، المنتزى

= قومَهم . وعندما وقعت الفتنة غلب البرازلة على قرمونة وإستجة وحصن المدور ، وكان زعيمهم محمد بن عبد الله البرزالى . وقد ثارت حروب طويلة بينه وبين المعتضد بن عباد انتهت بقتل محمد بن عبد الله البرزالى وتفرُّق أمر البرازلة بعد أن فعلوا فيما وقع بأيديهم من البلاد شر الأفاعيل، وانضمت بقاياهم إلى باديس بن حبوس صاحب غرناطة .

أما الحاجب ابن خزرون فهو عبدون بن خزرون أمير بنى يرنيّان ، فرع من بنى يفرن الزناتيين ، وكانوا ممن وفد على المنصور ابن أبى عامر ودخلوا فى خدمته وخدمة ابنيه من بعده ، وعندما قامت الفتنة استولى عبدون بن خزرون على حصن أركُش Arcos de la Frontera واستبد به ، ومثله فى ذلك أبو نور بن أبى قرة اليفرنى ، وقد استبد ببلدة رندة وحصنها ، ومحمد ابن نوح الدُمَرى شيخ بنى دمَر — قبيل من بنى يفرن الزناتيين — وقد استبد بمورور Morón .وتقرب المعتضد بن عباد إلى هذه الطوائف من الزناتية ، ثم دعاهم إلى حفل إعذار أولاده ، فلما صار رؤساؤهم عنده قتلهم ، ويقال إنه أغلق عليهم الحمام فماتوا ، وصارت بلادهم كلها للمعتضد .

انظر : ابن عذارى : البيان المغرب : ٣/٢٦٧ وما بعدها .

(١) سقوت البرغواطى أصله من قبيلة برغواطة الزناتية ومنازلها على ساحل المغرب الأقصى جنوبى طنجة إلى أصيلا ، وتجاورهم من الشرق منازل قبيلة غمارة الزناتية أيضاً ، وكانت غمارة عماد قوة الأدارسة فى عهدهم الأول ، ولهذا كانت برغواطة دائماً من أعداء الأدارسة . وقد أسر سقوت هذا فى بعض حروب غمارة وبرغواطة ، وانتهى أمره إلى أن صار عبداً لشيخ من شيوخ غمارة ، ثم صار إلى على بن حمود الذى ذكرناه ، وهو من سلائل الأدارسة ، والغماريون قومه ، وكان عليهم اعتماده ، وبفضلهم وصل إلى الخلافة ، وكان سقوت من أكبر رجاله ، فولاه على طنجة وسبتة وأطاعته غمارة ، وبعد زوال أمر الحموديين ظل سقوت يحكم طنجة وسبتة مناوئاً للمعتضد بن عباد ومهدداً له . فلما قامت دولة المرابطين وزحف يوسف بن تاشفين إلى الشمال ووصل إلى أحواز طنجة طلب إلى سقوت ومن معه من الغماريين الانضمام إليه فى القضاء على قبيلة برغواطة سنة ٤٧١ ، ومال سقوت إلى الاستجابة لدعوة المرابطين ، ولكن ابنه المسمى بضياء الدولة ثناه عن ذلك ، فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غمارة توجه إلى طنجة واستولى عليها من يد سقوت وقُتل هذا فى الحرب سنة ٤٧٦ . ثم أرسل يوسف بن تاشفين ابنه وولى عهده إذ ذاك المعز (مات بعد ذلك بسنوات وخلفه أخوه علىّ فى ولاية العهد) فاستولى على سبتة من يد ضياء الدولة بن سقوت البرغواطى وقتله . ودخلت غمارة بعد ذلك فى طاعة لمتونة كبرى قبائل المرابطين .

انظر: ابن بسام ، الذخيرة (مخطوط بغداد ، ص ٤٠٧ — ٤١٢) .

ابن خلدون ، العبر : ٦/٢٢١ وما بعدها .

يومئذ بسَبتة ، يذكر أن الملثمين المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدمتُهم رحبةَ مراكش ، فأخذ الوزير يهون أمرهم ويخبر أن دونهم اللُّجج والمهامِه ، فقال له المعتضد : « هو والله الذى أتوقعه وأخشاه ، وإن طالت بك حياة فستراه . اكتب إلى فلان — يعنى عامله على الجزيرة[1] — بحفظ جبل طارق حتى يأتيه أمرى » . فقضى أن خلعوا ولده وقرضوا أمره .

١٢٠ — ابنه محمد بن عباد المعتمد على الله

[٧٠ — ب] — ويلقب أيضاً بالظافر وبالمؤيد — / أبو القاسم

بويع له بالإمارة بعد أبيه المعتضد سنة إحدى وستين وأربعمائة .

قال ابن حَيّان — وذَكر المعتضد عباد بن محمد : هلكت له بنت أثيرة لديه ، أبدى لها حزناً شديداً امتثله أهلُ مملكته فى إظهاره ، وحضر خواصُّهم شهودَ جنازتها بداخل قصره عشيةَ الجمعة غرةَ جمادى الأولى — يعنى من سنة إحدى وستين وأربعمائة — فاسحنْفَرُوا[2] فى تعزيته . فلما انفضّوا شكا ألماً برأسه ، من زكام ثقيل انصبّ[3] عليه فهدّه . وأُحضر له طبيبُه ، وقد ازداد

---

(١) يريد الجزيرة الخضراء .

(٢) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٦١) : احتفلوا ، ولاداعى لهذا التعديل ، فإن فعل اسحنفر يستعمله ابن حيان دائماً للسخرية ممن يجتهد فى القول أو فى إلقاء الشعر .

(٣) جعلها دوزى (دون مبرر أيضاً) : نصب عليه ، وقال إنها تستعمل بمعنى dolore affecit . صحيح أن عبارة نصب عليه تستعمل فى مثل قولهم : « نصب عليه ضرسه نصباً شديداً » ، ولكن ليس هذا ما يريده ابن حيان هنا ، إذ أنه يريد أن يقول إن الألم نزل به دفعة واحدة .

قلقه وأنكر نفسه ، فغصَّ عليه بهجمة[1] من دمه ، وأشار بتسريح شيء منه ، فرأى تأخير ذلك إلى غدِ يومه . وأمسى ليلةَ السبت — وقضاء الله قد حاق به — بخَنَقٍ مزعج أغصَّه بريقه ومنعه الكلامَ ، فقضى نحبَه يومَ السبت . وعلا النوح من قصره بحَينه ، فلم ينكتِم موتُه حيناً لشهود خليفته وقائد جيوشه وحامل كلمته المرشح لمكانه محمد بن عباد المتسمى الظافر المؤيد بالله ، فاستقرت دولتُه ليومها وألقت مراسيها . وقام فى جهاز والده ومواراته ، فدفَنه بداخل قصره وفى تُربة أبيه القاضى محمد بن إسماعيل ، وتولى الصلاة عليه فى جماعة الأشهاد من أهل مملكته ، وذلك عَشِيّ يوم الأحد لثلاث خلون من جمادى الأخيرة .

وأفضى الأمرُ إلى ولده وهو فى ريعان شبابه وكمال جماله ، ابن تسع وعشرين سنة وشهرين وأيام زائدة : مولده فى العشر الأخر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ؛ وقال أبو بكر محمد بن أبى الوليد بن زيدون : مولده سنة إحدى وثلاثين ، وكذلك قال أبو بكر بن اللبّانة .

قال ابن حَيّان : وكانت سن عَبّاد سبعاً وخمسين سنة وثلاثة شهور وتسعة أيام ، تَأقِيتاً من مولده يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة سبع وأربعمائة إلى وفاته يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأخيرة . ومدة إمارته منها — من يوم بيعته بوفاة والده يومَ الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين — ثمان وعشرون سنة ويومان .

ويُحكى عن المعتضد خبر غريب فى تطيُّره عند انصرام أيامه ، وبين يدى هجوم حِمامه ، وهو انعقاد نيته على استحضار / مغنٍّ يَجعل ما يبتدئ به فألا فى [٧١ — ا]

---

(١) كذا فى الأصل بوضوح . ورما تكون صحة العبارة : فنَصَّ عليه بهجمة من دمه ، المراد أنه نص على أن سبب المرض هجمة من دمه .

أمره ، وقد استشعر انقراضَ مُلكه وحلولَ هُلكه ، فأرسل فى الصِّقِلِّى المغنى — وكان قد قَدُم عهدُه به — فأجلسه وأنَّسه وأمره بالغناء فغنى :

نَطوى الليالى علماً أنْ ستطوينا فشعْشِعيها بماء المُزْنِ واسقينا

غنَّى من ذلك خمسة أبيات ، ولخمسة أيام مات .

وفى وفاة المعتضد عَبّاد وقيام ابنه المعتمِد محمد يقول أبو الحسن على بن عبد الغنى الحُصرِى الكفيف[1] :

مات عبادٌ ولكنْ بقىَ الفرعُ الكريمُ
فكأنَّ الميْتَ حىٌّ غيرَ أنَّ الضادَ ميمُ

وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين . عفيف السيف والذيل ، مخالفاً لأبيه فى القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية . رد جماعة ممن نَفَى أبوه ، وسَكَّن وما نَفَّر ، وأحسن السيرةَ ، وملَك فأسجَح . إلا أنه كان مولعاً بالخمر ، منغمساً فى اللذات ، عاكفاً على البطالة ، مُخلداً إلى الراحة ، فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه .

ومما يؤثر من فضائله ، ويُعد فى زُهْر مناقبه ، استعانتُه على الروم بملك المغرب

---

(١) على بن عبد الغنى الفِهْرى المقرئ الحصرى القروى ، يكنى أبا الحسن . قال ابن بشكوال فى الصلة (ترجمة رقم ٩٢٣ ص ٤٢٥) أنه كان شاعراً أديباً رخيم الشعر ، دخل الأندلس ولقى ملوكها . وكان عالماً بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس القرآن بسبتة وغيرها ، وله قصيدة نظمها فى قراءة نافع من ٢٠٩ أبيات . توفى بطنجة سنة ٤٨٨/١٠٩٥ . وقد عرفه ابن بسام واختصه بفصل فى الذخيرة (قسم ٤ مجلد ١ ص ١٩٢ وما بعدها) أثنى عليه فى أوله ثم نقده نقداً شديداً وخاصة نثره .

وانظر : رايات المبرزين ، بتحقيق إميليو غرسية غومس (مدريد ١٩٤٢) ص ٢٨٨ من الترجمة الإسبانية وتعليق رقم CXXXVI (١١٦) ، وقد قرأ اسمه : أبوالحسن على بن عبد الله الفَتَى الكفيف الحصرى .

حينئذ — وهو يوسف بن تاشفين — وسعيه فى استقدامه ، وجده فى ملاقاة الطاغية ملك النصارى ، والإيقاع به بالموضع المعروف بالزلّاقة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . وبدخول اللمتونيين إذ ذاك الأندلس تسببوا إلى خلعه ، مع معرفته بحسدهم له وانعكاس نصرهم إياه خذلاناً وقهراً ، وتنبيه وزرائه على ما كان منهم قبل استجاشتهم والاستنصار بهم ، فآثر الدين على الدنيا ، وأنف للإسلام من الاصطلام[1] . وتم فيه قضاء الله بخلعه ، بعد حضاره مدة ، يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب سنة أربع وثمانين ، واحتملوه وأهلَه إلى المغرب وأسكنوه أغْمات ، وبها مات ؛ والمقدور كائن . وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ، على حال يُوحِش سماعُها فضلا عن مشاهدتها . وهذا بعد أن خلع عن ثمانمائة امرأة : أمهات الأولاد ، وجوارى متعة ، وإماء تصَرُّف[2] . ورُزق من الناس حبًّا ورحمة ، فهم يبكونه / إلى اليوم . [٧١ – ب]

وكان له فى الأدب باعٌ وَساعٌ ، ينظم وينثر . وفى أيامه نفَقتْ سوق الأدباء ، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه . وشعره مدوَّن موجود بأيدى الناس ، ولم يك فى ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة . وهو القائل فى صباه بديهةً ، وقد سمع الأذان لبعض الصلوات :

هـذا المؤذنُ قد بدا بأذانهِ يرجو الرضا والعفوَ من رحمانهِ
طوبَى له من ناطقٍ بحقيقةٍ إن كان عقدُ ضميره كَلِسانهِ

وله يصف ترساً لازوردىَّ اللون ، مطوقاً بالذهب ، فى وسطه مسامير مذهبة ؛ ويقال إن أباه المعتضد أمره بوصفه فقال بديهاً :

---

(١) الاستئصال .

(٢) قرأها دوزى (بنوعباد : ٢/٦٣) : تُعرَف ، وهو خطأ . والصحيح إماء التصرُّف أى جوارى الخدمة .

مِجَنٌّ حَكى صانعوه السماءْ لتقصُرَ عنه طوالُ الرماحْ
وصاغوا مِثالَ الثريا عليهِ كواكبَ تقْضى لنا بالنجاحْ
وقد طوّقوه بذوْب النُّضَارِ كما جلّلَ الأفْقَ ضوء الصباحْ

وله يستعطف أباه المعتضد ، لما فرّط فى أمر مالقة وخذَله أصحابُه فأخرج منها ، ولجأ إلى رُندة[1] فأقام بها مدة تحت موجدة أبيه :

سَكِّنْ فؤادَكَ لا تذهبْ بكَ الفِكَرَ ماذا يُعيد عليكَ البَثُّ والحذَرُ ؟
وازجُر جفونَك لا ترضَ البكاءَ لها واصبر فقد كُنتَ عند الخطبِ تصطبرُ
فإن يكن قَدَرٌ قد عاق عن وطَرٍ فلا مردَّ لما يأتى به القدر
وإن تكن حَيبةٌ فى الدهر واحدةٌ فكم غزوتَ ، ومن أشياعك الظفَرَ
إن كنتَ فى حيرةٍ عن جُرم مجترمٍ فإن عذرَك فى ظَلمائها قمر
فوّض إلى الله فيما أنتَ خائفُه وثق بمعتضدٍ بالله يعتفر
ولا يَرُوعَنْكَ خطبٌ إنْ عدا زمنٌ فالله يدفع والمنصور ينتصر
[٧٢ - ١] / واصبرْ فإنكَ من قومٍ أولى جَلَدٍ إذا أصابتْهُم مكروهةٌ صبروا
مَن مِثلُ قومِك ؟ مَن مِثل الهُمامِ أبى عمرٍو — أبيك — له مجدٌ ومفتخَر ؟

---

(١) أورد ابن بسام تفصيل هذا الخبر (مخطوطة بغداد) ، القسم الثانى ورقة ١٦ ا و ب ، وملخصه أن مالقة كانت تحت سلطان باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكان أهلها يكرهون حكمه ويتمنون أن يصيروا إلى حكم المعتضد بن عباد « تشيعاً لم يكن له أصل إلا شؤم الحمية ولؤم العصبية » ، لأنهم كانوا يكرهون أن يكونوا تحت أمير بربرى ، فانتهزوا فرصة ابتعاد باديس فى غرناطة وأرسلوا للمعتضد ، فأرسل ابنيه جابراً ومحمداً (الذى سيخلفه بلقب المعتمد) فأسرعا إلى مالقة من رندة ، واستوليا على البلد إلا القصبة إذ تحصن فيها جماعة من جند باديس السودان ، وأرسلوا يستغيثون به ، فأرسل إليهم الأمداد ، فلما وصلت مزقت شمل قوات ابنى عباد ، وفرا واعتصما فى رندة .

سَمَيْدَعٌ يَهَبُ الآلافَ[1] مبتدئاً ... ويستقلُّ عطاياه ويحتقر

له يدٌ ، كلُّ جبارٍ يقبِّلُها ... لولا نداها لقلنا إنها الحَجر

يا ضَيْغَمًا يقتلُ الأبطالَ مفترساً ... لا توهِنَنِّى فإنى النابُ والظُّفُرُ

وفارساً تحذَرُ الأقرانُ صَولَتَهُ ... صُنْ حَدَّ عبْدِك فهْو الصارمُ الذَّكَرُ

هو الذى لم تَشِمْ يُمناك صفحتَهُ ... إلا تأتَّى مرادٌ وانقضى وطَرُ

قد أخلفتْنى ظروفٌ أنتَ تعلمها ... وغالَ موردَ آمالى بها كدر

فالنفس جازعةٌ ، والعين دامعةٌ ... والصوت منخفضٌ ، والطَّرْف منكسر

قد حِلْتُ لوناً ، وما بالجسم من سَقَمٍ ... وشِبْتُ رأساً ، ولم يبلُغْنىَ الكِبَر

ومِتُّ إلا ذِماءً فىَّ يُمسِكُهُ ... أنى عَهِدتُكَ تعفو حين تقتدر

لم يأت عبدُك ذنباً يستحق به ... عتْبًا ، وها هو قد ناداك يعتذر

ما الذنبُ إلا على قومٍ ذوى دَغَلٍ ... وفَى لهمْ عفوُك المعهودُ إذ غدروا

قومٌ نصيحتُهم غشٌّ ، وحبُّهمُ ... بغضٌ ، ونفعُهُم - إن صُرِّفوا - ضرر

تُميز الغيطَ فى الألفاظ ، إن نطقوا ... وتَعرفُ الحقدَ فى الألحاظ ، إن نظروا

إن يحرق القلبَ نَبْزٌ[2] مِن مقالهمُ ... فإنما ذاك مِن نار القِلَى شرر

أجبْ نداءَ أخى قلبٍ تملَّكهُ ... أمَى ، وذى مقلةٍ أودى بها سهر

لم أوتَ مِن زمنى شيئا ألَذُّ به ... فلست أعرف ما كأسٌ ولا وتر

ولا تملَّكنى دَلٌّ ولا خَفَرٌ ... ولا تمرَّس[3] بى غُنْجٌ ولا حَوَر

---

(١) الأصل : الألفاف .

(٢) الأصل : نبذ . وقرأها دوزى (بنو عباد : ٢/٦٤) : بَنْد .

(٣) بنوعباد ٢/٦٤ : ولا سبا خَلَدى .

[٧٢ ـ ب] / رضاكَ راحةُ نفسى ، لا فُجعتُ به فهو العَتادُ الذى للدهر أدَّخر
وهو المُدام التى أسلو بها ، فإذا عَدِمتُها وقَدَتْ فى قلبىَ الفِكَر
أجلْ ، ولى راحةٌ أخرى كَلِفْتُ بها : نظْمُ الكُلَى فى القَنا والهامُ تبتَدِر[1]
كم وقعةٍ لك فى الأعداء واضحةٍ تفنَى الليالى ولا يفنَى بها الخبر
سارتْ بها العِيسُ فى الآفاق فانتشرتْ فليس فى كل حَىٍّ غيرها سمَر
ما تركىَ الخمرَ عن زهدٍ ولا ورعٍ فلم يفارق — لعمرى — سِنِّىَ الصِّغَر
وإنما أنا ساعٍ فى رضاك ، فإنْ أخفقتُ فيه فلا يُفْسَحْ لىَ العُمُر
إليكَ روضةَ فكرى جادَ منبِتَها ندى يمينِك ، لا ظلٌّ ولا مطر
جعلتُ ذكرَك فى أرجائها زهراً فكل أوقاتها للمجتنى سَحَر

وذكر أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمى الدانى ، المعروف بابن اللبانة[2] أن رجلا من أهل إشبيلية كان يحفظ هذا الشعر فى ذلك الأمد ، ثم خرج منها لنيةٍ منه إلى أقصى حىٍّ فى العرب فأوى إلى خيمةٍ من خيامهم ، ولاذ بذِمة راعٍ من رعاتهم ، فلما توسط القمرُ فى بعض الليالى وهجع السامر ، تذكر الدولةَ العَبّادية ورونقَها ، فطفق يُنشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاه . فما أكملها حتى رُفع رواقُ الخيمة التى [أوى][3] إليها عن رجل وسيم ضخم تدل سِيما فضله على أنه سيد أهله ، قال : يا حَضَرِىّ ! حَيّاك الله ، لمن هذا الكلام الذى اعذَوْذب موردُه ، واخضَوْضل منبتُه ، وتحلّت بقلادة الحلاوة بكْره ، وهَدَر بشقشقة

---

(١) الأصل : تنتدر.

(٢) سياق الخبر هنا يدل على أنه وقع بعد ذهاب أمر الدولة العبادية بزمن طويل ، مع أن راويها وهو ابن اللبانة الشاعر معاصر للمعتمد وكان من أقرب أصحابه إليه ، بل اشتهر بوفائه لذكرى إمارته بعد خلعه ونفيه إلى أغمات ، وقد توفى سنة ٥٠٧/١١١٣ .

(٣) أسقطها الناسخ ، ويقتضيها السياق .

الجزالة بكره ؟ » ، فقال : « هو لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عبّاد » ، فقال العربى : « أظن هذا الملك لم يكن له من المُلك إلا حظ يسير ، ونصيب حقير . فمثل هذا الشعر لا يقوله من شُغِل بشىء دونه » . فعرّفه الرجل بعِظم رئاسته ، ووَصَف له بعضَ جلالته ، فتعجب العربىّ من ذلك ثم قال : « وممن المَلك ، إن كنتَ تعلم ؟ » فقال الرجل : « هو فى الصميم من لَخْم ، والذؤابة من يَعْرُب » ، فصرخ العربى / صرخةً أيقظ الحىَّ بها من هَجْعته ، ثم قال : [٧٣ - ١] « هلموا ، هلموا ! » ، فتبادر القومُ إليه ينثالون عليه ، فقال : « معشرَ قومى ! اسمعوا ما سمعتُه ، وعُوا ما وَعيتُه ، فإنه لفخرٌ طلبَكُم ، وشرفٌ تلاصقَ بكم . يا حَضَرى ! أنشد كلمةَ ابنِ عمنا » ، فأنشدهم القصيدة . وعرّفهم العربىّ بما عرّفه الرجلُ به من نسب المعتمد ، فخامرتْهم السّراء ، وداخلتْهم العزةُ ، وركبوا من طربهم متونَ الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقىَ الليل . فلما رَسَل الليلُ نسيمَه ، وشق الصباح — أو كاد — أديمَه ، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الإبل فدفعها إلى الرجل ، وفعلَ الجميعُ مثلَ ما فعل . فما كان رَأْدُ الضحى إلا وعندَه هُنَيْدة من الإبل ، ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقرّ سرورهم وتأنُّسِهم .

وللمعتمد أيضاً يستعطف أباه المعتضد :

مولاى أشكو إليك داءً ... أصبح قلبى به جريحَا
إن لم يُرِحْهُ رضاكَ عنى ... فلستُ أدرى له مُريحا
سُخْطُكَ قد زادنى سقاماً ... فابعثْ إلىّ الرضا مَسيحا
واغفر ذنوبى ولا تضيِّقْ ... عن حَملها صدرَكَ الفسيحا
لو صوّر اللهُ للمعالى ... جسماً لأصبحتَ فيه روحا

وله فى النسيب :

دارَى الغرامَ ورامَ أن يتكتما ... وأبَى لسان دموعِه فتكلما

رحلوا وأخفَى وَجْدَه فأذاعهُ ماء الشؤون مصرِّحاً ومُجَمْجِمَا
سايَرتُهم والليلُ غُفْلٌ ثوبُهُ حتى تراءى للنواظر مُعْلَمَا
فوقفتُ ثمَّ مُحَيِّرًا ، وتَسَلَّبَتْ مِنى يدُ الإصباحِ تلكَ الأنجُما

وله :

أكثرتِ هجرى غير أنكِ ربما عَطَفَتْكِ — أحياناً — على أمورُ
فكأنما زمنُ التهاجرِ بيننا ليلٌ ، وساعاتُ الوِصال بدور

وله :

عفا الله عن « سِحْرٍ » على كلِّ حالةٍ ولا حُوسِبَتْ عنى بما أنا واجدُ
[٧٣ — ب] / أسِحْرٌ ظلمتِ النفسَ واخترتِ فُرقَتى فجَمّعْتِ أحزانى وهنَّ شواردُ
وكانت شجونى — باقترابكِ — نُزَّحًا فهاهنَّ — لما أن نأيتِ — شواهدُ
فإن تستلِذِّى بَرَدَ ما بكِ بَعدَنا فبَعدَكِ ما ندرى متى ما الماء باردُ

وله :

قامت لتحجُبَ قرصَ الشمس قامتُها عن ناظرى ، حُجبتْ عن ناظرِ الغِيَرِ
عِلماً بَعمرُك منها أنها قمرٌ هل تحجب الشمسَ إلا غرةُ القمر ؟

وناولته إحدى جواريه كأس بلور مترعة خمراً ولمع البرق فارتاعت ، فقال :

رِيعتْ من البرق وفى كفها برقٌ من القهوة لمّاعُ
يا ليتَ شِعرى ، وهْى شمسُ الضحى كيف من الأبوار ترتاعُ ؟

وله ، ويغنى به :

تظنُّ بنا أمُّ الربيع سآمةً ألا غفرَ الرحمٰنُ ذنباً تُواقِعُهْ

أأهجرُ ظبياً فى فؤادى كِناسُهُ وبدرَ تمامٍ فى ضلوعى مَطالعُهْ
وروضةَ حُسنٍ أجتنيها وباردًا من الظَّلِم لم تُحظَرْ علىّ شرائعُهْ
إذا عِدِمتْ كَفِّى نَوالا تُفيضهُ على مُعتَفيها أو كَمِيًّا تُقارعُهْ

وله فيها[1] ، وضمَّن أوائلَ الأبيات حروفَ اسمها :

أغائبةَ الشخصِ عن ناظرى وحاضرةً فى صميم الفؤادِ
عليكِ السلامُ بقدْرِ الشجونِ ودمعِ الشؤونِ وقدرِ السُّهادِ
تملَّكْتِ منى صعبَ المرام وصادفتِ منى سَهلَ القِيادِ
مُرادىَ أعياكِ فى كلِّ حينٍ فيا ليتَ أنىَ أُعطَى مرادى
أقيمى على العهد فى بَيْنِنا ولا تستحيلى لطول البِعاد
دسستُ اسمَك الحلوَ فى طَيِّهِ وألَّفْتُ فيكِ حروفَ « اعتمادِ »

وإليها يشير بقوله فى رثاء ابنيه المأمون والراضى بعد خلعه :

/معى الأخَواتُ الهالكاتُ عليكُما وأُمُّكما الثكلَى المضرَّمَةُ الصدرِ [٧٤-١]
تُبَكِّى بدمعٍ ليس للغيثِ مِثلُهُ وتزجُرُها التقوى فتُصغِى إلى الزَّجر
تذلِّلُها الذكرى فتفزَعُ للبُكا وتصبر ـ فى الأحيان ـ شُحًّا على الأجر
أبا خالدٍ ، أورثتَنى البَثَّ خالدًا أبا النصر ، مذ وُدِّعتَ ودَّعَنى نصْرى
وقبلَكما ما أودَعَ القلبَ حسرةً تَجَدَّدُ طولَ الدهرِ : ثُكْلُ أبى عمرِو

---

(١) الإشارة هنا إلى « اعتماد » الرميكية أحب نساء المعتمد إليه ، ولم يذكرها ابن الأبار قبل ذلك . وواضح أنه كان لا بد أن يمهد لذلك بشىء عنها ، ويبدو أن ذلك ليس سهواً من الناسخ وإنما هو من الأصل الذى كتبه ابن الأبار ، فقد سها عندما اختار مختاراته من شعر المعتمد عن أن يمهد لهذه الأبيات .

يعنى ابنَه سِراجَ الدولة أبا عَمرو عبادَ بنَ محمد قتيلَ ابن عكّاشة بقرطبة[١] . وأبو خالد هو ابنـه يزيد الملقب بالراضى ، وهو الذى قتله قرور اللَّمتونى[٢] غدراً بُرَنْدَة . وأبو نصر هو ابنه الفتح الملقب بالمأمون ، وقُتل أيضاً بقرطبة فى آخر دولتهم . وإخوتُهم أبو الحسين عبيدُ الله الملقب بالرشيد ، حُمل مع أبيه إلى العُدوة ، وأبو بكر عبدُ الله الملقب بالمعتَدّ ، وأبو سليمان الربيع تاج الدولة ، وأبو هاشم المعَلَّى زين الدولة ، وكلهم لجاريته هذه الحظية عندَه الغالبة عليه « اعتماد » : وهى أم الربيع ، وتعرف بالسيدة الكبرى ، وتلقب بالرُّمَيْكِيَّة نسبة لمولاها رُمَيْك ابن حجاج ، ومنه ابتاعها المعتمد فى أيام أبيه المعتضد . وكان مفرط الميل إليها حتى تَلَقَّب بالمعتمد لينتظم اسمُه حروفَ اسمها ، وهى التى أغرت سيدَها بقتل أبى بكر ابن عمار لذِكره إياها فى هجائه المعتمدَ الذى أوله :

---

(١) روى ابن بسام هذا الخبر فى الذخيرة (بنو عباد : ١/٣٢٢ وما بعدها) ومجمله أن قرطبة لما صارت إلى بنى عباد ولى المعتمد عليها قائداً من قواد جنوده يسمى محمد بن مرتين ، وكان المظفر ابن ذى النون طامعاً فى قرطبة ، ولكن جنود المعتمد أوقعوا به هزيمة كبيرة ، فأقام قائداً من قواده يسمى ابن عكاشة فى أحد الحصون المجاورة لها ليغاورها . وكان ابن عكاشة رجلا ذكياً واسع الحيلة ، فى حين كان محمد بن مرتين مغروراً بنفسه يظن أن أحداً لا يستطيع الثبات له ، وكان معه سراج الدولة أبو عمرو عباد بن المعتمد بن عباد ، فجعل ابن عكاشة يتلصص حول قرطبة حتى اتفق مع نفر من حراسها ، ثم هاجمها على غرة فى ليلة مظلمة سنة ٤٦٧ ، وقتل أباعمرو ومحمد بن مرتين وتملك البلد واستدعى المظفر فأسرع واستقر فى قرطبة ، وأراد التخلص من ابن عكاشة فلم يستطع . ثم توفى ابن ذى النون إثر ذلك وعادت قرطبة إلى المعتمد .

(٢) يسميه صاحب الحلل الموشية (ص ٨٧) جرور الحشمى ، وورد ذكره مراراً فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى فى صورة «قرور» (انظر فهرس الأعلام) . وكان يوسف بن تاشفين قد ولاه على جيش ليحاصر يزيد الراضى بن المعتمد بن عباد فى رندة ويستخلصها من يده ، وقد سلم له يزيد البلد ثم قتله جرور بعد ذلك . وفى نفس الوقت سنة ٤٨٤ جعل يوسف بن تاشفين قائده أبا عبد الله بن الحاج على رأس جيش آخر ليستولى على قرطبة من يد الفتح بن المعتمد ابن عباد ، ويلقب بالمأمون ، وكان يليها لأبيه المعتمد ، وقد اقتحم ابن الحاج البلد بالقوة وقتل الفتح بن المعتمد فى المعركة .

ألا حَيِّ بالغربِ حَيًّا حِلَالَا أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالاَ

يقول فيه :

تَخَيَّرْتَهَا مِن بناتِ الهجينِ رُمَيْكِيَّةً ما تُساوى عِقَالاَ

وهو شعر أقذَع فيه ، وقد قيل إنه منحول إليه ومقول على لسانه ، فالله أعلم[1] .

وتُوفيت أمُّ الربيع هـذه بأغمات قبل المعتمد سيدها ، لم ترقأ لها عبرة ولا فارقتها حسرة ، حتى قضت أسفاً وهلكت حزناً ، رحمها الله .

ومحاسن المعتمد فى أشعاره كثيرة ، وخصوصاً مراثيه لأبنائه وتفجعه لزوال سلطانه . وحُكى أن بعض بنى عبّاد أُنشد فى النوم قبل حلول الفاقرة بهم هذه الأبيات :

/ ما يَعْلَمُ المرء والدنيا تمرُّ بهِ بأنَّ صَرْفَ ليالى الدهرِ محذورُ [٢٤-ب]

بَيْنا الفتى مُتَرَدٍّ فى مَسَرَّتِهِ وافَى عليهِ منَ الأيامِ تغييرُ

---

(١) يبدو أن هذا أيضاً رأى ابن بسام ، فقد قال فى الذخيرة (مخطوط بغداد ، ورقة ١٦٠ب) : « فشاعت فى الناس أشعار عزيت إلى ابن عمار منها قصيدة . . » ثم أورد أبياتاً متفرقة من القصيدة . وبعد أن أورد أشد الأبيات إقذاعاً قال : «وبعدُ ما أضربتُ عنه ، رغبة بكتابى عن الشين ، وبنفسى أن أكون أحد الهاجين ، فقد قالوا : الراوية أحد الشاتمين » !

وجاء بعد ذلك تعليقاً على قول ابن عمار :

وعرّج بيُـومين أمّ القرى عسى أن تراها [هناك] خيـالا

يومين : اسم قرية بقطر إشبيلية كانت أولية بنى عباد منها .

وقد أورد ابن بسام بعد ذلك خبر المعتمد مع ابن عمار كاملا .

وأورده مختصراً عبد الواحد المراكشى فى المعجب (بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان محمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩) ص ١١١ وما يليها .

وفرّ مِن حولهِ تلك الجيوشُ كما تفر ـ عايَنَتِ الصقرَ ـ العصافير[1]
وخرّ خُسْرًا فلا الأيامُ دُمْنَ لهُ ولا بما وُعدَ الأبرارُ محبور
مِن بَعدِ سبعٍ كأحلامٍ تمرُّ وما يَرقَى إلى الله تهليلٌ وتكبير
يحلُّ سوءٌ بقومٍ لا مَرَدَّ له وما تُرَدُّ من الله المقادير

وكذلك حُكى أيضاً عن آخر أنه رأى فى منامه كأن رجلا صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس يُنشدهم :

رُبَّ رَكبٍ قد أناخوا عِيسَهمْ فى ذُرَى مَجدهمْ حين[2] بَسَقْ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ثم أبكاهم دماً حين نطقْ

فلما سمع المعتمد ذلك أيقن أنه نعىٌ لمُلكه ، وإعلام بما انتثر من سِلكه ، فقال :

من عَزَا المجدَ إلينا قد صَدَقْ لم يُلَمَ مَن قال — مهما قال — حقّْ
مجدُنا الشمسُ سَناءً وسَنَا مَن يَرُمْ سَتْرَ سَناها لم يُطِقْ
أيها الناعى إلينا مجدَنا هل يضرُّ المجدَ أنْ خطبٌ طَرَقْ ؟
لا نُرَعْ للدمع فى آماقنا مزجتْه بدمٍ أيدى الحُرَقْ
حَنِق الدهرُ علينا فسَطَا وكذا الدهرُ على الحُرِّ حَنِق
وقديماً كَلِف المُلكُ بنا ورأى منا شُموساً فعَشِق
قد مضى منا ملوكٌ شُهِروا شُهرةَ الشمسِ تجلّتْ فى الأفُق

---

(١) عند ابن بسام (بنو عباد : ١ /٣٠٧) :
وفرّ من حولِه تلك الجيوش كما تفر — إن عاينتْ صقراً — عصافيرُ
وهو أجود .
(٢) الأصل : لَمّا ، وبه ينكسر البيت ، والتصويب من نفح الطيب للمقرى .

نحن أبنـــاء بنى ماء السما نحوَنا تطمَحُ ألحاظُ الحَـــدَق
وإذا ما اجتمع الدين لنـــا فحقـــيرٌ ما مِن الدنيا افترق

ومنها فى ذِكر مدة إمارتهم : [١-٧٥]

حِجَجاً عشراً وعشراً بَعـدَها وثلاثين وعشرين نَسَـــقْ
أشرقتْ[1] عشرون من أنفسِها وثلاثٌ نَيِّراتٌ تأتَلِقْ

وكان مُلك بنى عَبّاد ثلاثاً وسبعين سنة ، المعتمد منها ثلاث وعشرون .

وله :

لما تماسكتِ الدموعُ وتنبّه القلبُ الصديعُ
وتناكَرَتْ هِمَمى لِما يستامُها الخَطْبُ الفظيعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ فليَبْدُ منكَ لهم خضوعُ
وألَذُّ من طعم الخضـــو ع على فمى السُّمُّ النقيعُ
إن تستلب عنى الدُّنَا[2] مُلكى وتسلِمنى الجموعُ[3]
فالقلبُ بين ضلوعِـــهِ لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوعُ
لم أستَلَبْ شرفَ الطبا ع ، أيُسلَبُ الشرفُ الرفيعُ ؟
قد رُمتُ يومَ نِزالهمْ ألّا تُحصِّنَنى الدروعُ
وبرزتُ ليس سِوى القميـ ـصِ على الحَشا شىءٌ دَفُوعُ
وبذلتُ نفسى كى تسيـ ـل إذا يسيلُ بها النَّجيعُ

(١) الأصل : أسرعت ، والتصويب عن دوزى (بنو عباد : ٢ / ٧٠) .
(٢) ورد هذا الشطر فى ديوان شعر المعتمد (جمعه وحققه الأستاذ أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٥١) ص ٨٨ : إن يَسْلِب القومُ العِدا .
(٣) ورد فى الهامش إزاء هذا الشطر :
* إن يَسْلِب القومُ العدا *

أجَلِي تأخَّرَ ، لمْ يكنْ بهـــوايَ ذُلِّي والخشوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى الكما ة وكان من أملى الرجوعُ
شِيَمُ الأولِي أنا منهمُ والأصلُ تتبعهُ الفروعُ[1]

وله :

لكَ[2] الحمدُ مِن بَعدِ السيوفِ كُبولُ بِسَاقٍ منها فى السجونِ حُجولُ
وكنا إذا حانتْ لحربٍ[3] فريضةٌ ونادتْ بأوقاتِ الصلاةِ طبولُ

---

(١) أورد ابن بسام هذه القصيدة بصورة أوفى (بنوعباد : ١/٣٠٣ – ٣٠٤) . وقد قال المعتمد هذا الشعر يصف حاله يوم اقتحم المرابطون إشبيلية وأخرجوه من قصره بعد أن استقر رأى يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف . وقد وصف عبد الواحد المراكشى خلع المعتمد على يد سِير بن أبى بكر بن تاشفين ابن أخى يوسف بن تاشفين وأكبر قواده بعد قتال دام أياما (المعجب : ١٣٨ وما بعدها) . وكان أهل إشبيلية قد أعلنوا الثورة على المعتمد وانضموا إلى المرابطين ، فوجد المعتمد ألا فائدة من القتال واستسلم ، فأخذ هو والباقون من أبنائه وبناته ونسائه وأرسلوا إلى الجزيرة الخضراء ، وفيها ركبوا سركباً حملهم إلى العدوة ، حيث نقلوا إلى أغمات جنوبى مراكش ، وظل المعتمد هناك إلى أن مات .

وقد زرت الموضع الذى يقال إنه قبر المعتمد ، وهو قبر متواضع داخل حجرة مهدمة فى فضاء لا يعمره غير بعض الرعاة .

وقد زار هذا القبر ابن اللبانة الشاعر ، ورثى المعتمد فى قصيدة مشهورة ، وزاره أيضاً لسان الدين بن الخطيب ورثاه .

ورواية عبد الواحد المراكشي للحوادث ظاهر فيها ميله إلى بنى عباد وبغضه للمرابطين ، وهو صدى لبغض الأندلسيين عامة للبربر الذين استقدمهم المنصور بن أبى عامر ليؤيد بهم سلطانه ، فكان من نتائج ذلك ما رأينا ، وكان عبد الواحد المراكشى من شيعة الموحدين المبغضين للمرابطين ، وكلامه على هذا ينبغى أن يقرأ بتحفظ .

قال ابن بسام (بنو عباد : ١/٣٠٦) : ووافاه حمامُه بعد مرض شديد أصابه ، وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ . وكان مولده فى ربيع الأول سنة ٤٣١ ، « ومن النادر الغريب أنه نودى فى جنازته بالصلاة على الغريب ، بعد عظيم سلطانه وجلالة شانه » .

وكل ما سيرويه ابن الأبار بعد ذلك من شعر المعتمد قاله فى منفاه ، وهو أجمل شعره وأصدقه .

(٢) الذخيرة (بنو عباد : ١/٣١٩) : له .

(٣) فى الديوان (ص ١١) نقلا عن الذخيرة : لِنَحْرٍ .

شهِدْنا ، فكبَّرْنا ، فظلَّتْ سيوفنا تُصَلِّى بهاماتِ العِدا فتُطيلُ [٧٥-ب]
سجودٌ على إثْر الركوعِ متابعٌ[1] هناك وأرواحُ الكُماةِ تسيلُ

وعلى هذه الحال من الاعتقال كان الشعراء ينتجعونه ويمتدحونه ، فيصِلُ بما لديه ، مَن يفِدُ عليه ، أو يوجِّه بشِعره إليه . وتعرَّض له أبو الحسن الحُصرى[2] فى طريقه إلى أغمات — بعد القبض عليه — بشعر يمدحه فيه ، فوجَّه إليه بستة وثلاثين مثقالا لم يكن عنده سواها ، وأدْرَج قطعةَ شِعرٍ طيَّها معتذراً من قلتها . وتسامع الشعراء بذلك ، فقصدوه من كل ناحية ، فقال :

شعراء طَنْجةَ كلُّهم والمغربِ ذهبوا مِن الإغراب أبعدَ مذهبِ
سألوا العسيرَ مِنَ الأسيرِ ، وإنَّهُ بسؤالهم لأحقُّ ، فاعجبْ[3] واعجبِ
لولا الحياء وعزةٌ لَخْمِيَّـةٌ طَيَّ الحشا ناغاهُمُ فى المطلَبِ
قد كان — إن سُئل الندى — يُجْزِلْ ، وإن نادَى الصريخُ ببابه : اركبْ ! يركبِ

وله فى الزهد :

أرى الدنيا الدنيَّةَ لا تواتِى فأجمِلْ فى التصرُّفِ والطِّلابِ
ولا يَغْرُرْكَ منها حُسْنُ بُرْدٍ له عَلَمانِ مِن ذَهَبِ الذَّهابِ
فأوَّلُها رجاء من سَرابٍ وآخِرُها رداء من ترابِ

* * *

(١) ورد هذا الشطر فى الذخيرة (مخطوطة بغداد ، ورقة ٢٦ أ):
* وفود على إثر الركوع متابع *
وقرأه دوزى (بنو عباد : ١/٣١٩) :
* رقوع على أن الرقوع متابع * !

(٢) هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الحصرى الكفيف الذى ذكرناه آنفاً ، وقد روى هذا الخبر بتفصيل ابن بسام فى الذخيرة (مخطوط بغداد ، ورقة ٢٢ ب وما بعدها) .

(٣) فى الديوان (ص ٩٠) نقلا عن « الذخيرة » و « المعجب » : بِسُؤالِهم لأحقُّ منهم فاعْجَبِ .

أبناء المعتمد رحمه الله :

١٢١ — عبيد الله بن محمد الرشيد ، أبو الحسين

ذكر أبو بكر بن اللبانة أن كبار أولاد المعتمد محمد بن عَبّاد عبيـــدُ الله الرشيد هذا ، ثم المعتدّ أبو بكر عبد الله ، ثم المأمون أبو نصر الفتح ، ثم الراضى أبو خالد يزيد ؛ هكذا أسماهم . وقد قيل إن المعتدّ أصغرهم ، وإنما أراد بَعد أبى عمرو عَبّاد بن محمد سراج الدولة قتيل ابن عكاشة بقُرطبة ، وإلا فهو بِكْر أولادِه والمسمّى باسم أبيه المعتضد .

قال : ووُلد للرشيد سبعةٌ وأربعون ولدًا ، وكان دَمِثاً رقيقَ حاشيةِ الطبع ، [٧٦ - ا] طالَع شيئاً من العلوم الرياضية ، وكُشف له عن غيب / الأغانى ، حتى قيل إنه يجيد ضرب العود ؛ وكان له أدب وشعر .

وذكر غيرُه أن أباه المعتمد ولاه عهده ، وأنه قدّمه أيضاً إلى خطة القضاء بإشبيلية — محافظة على رسم سلفه فى ذلك — فـكان يجلس للأحكام جلوساً عامًّا يومَ الخميس ، ويَحضر عنـده أعيان الفقهاء وأهل العلم وثقات الشهداء ، وتُتجاذب عنده النوازل ، فيحكم فيها ، ويَستفتى الفقهاء ، ويُمضى من ذلك ما يجب على مذهب مالك وأصحابه ، وتنعقد عليه السجلات بالأحكام . وكان الذى يتولى القضاء للرشيد الفقيه المشاور أبو محمد عبد الله بن جابر اللَّخْمِى ، ثم صُرف عن ذلك ووُلى أبو القاسم أحمد بن منظور القيسى . ولمـا نُقل بنو عَبّاد إلى المغرب أُسكن الرشيد منهم بقلعة مهدى ، وكان هنالك إلى أن تُوفى فى حدود الثلاثين وخمسمائة وقد نيف على السبعين فى سِنّه . ومن شعره يخاطب أمَّ ابنه المُعَلى عند ولادتها إياه :

أهنيكِ ، بل نفسى أهنِّى ، فإننى بلغتُ الذى كان اقتراحى على الدهرِ :
خلاصَكِ من أيدى المنونِ وغُرةً بدتْ المعلَّى مثل دائرة البدرِ
كأنِّى[1] بهِ عما قريبٍ مُمَلَّكاً زِمامَ المعالى نافذَ النهيِ والأمرِ
يقود إلى الهيجاء كلّ غَضَنْفَرٍ ويضربُ مَن ناواه بالبِيض والسُّمرِ
فقَرَّتْ به عينِي وعينُكِ فى العلا ولا زال أسمى فى المحَلِّ من الغَفْرِ

وجرى بمجلس أبيه قسيم فى صفة القبة المسماة بسعد السعود — وهى قبة بالقصر الزاهى — فعجز من حضر من الشعراء عن إجازته ، فقال الرشيد مرتجلا :

سعدُ السعودِ يتيه فوقَ الزاهى وكلاهما فى حسنه متناهِ
ومن اغتدى وطناً لمثل محمدٍ قد جَلَّ فى عُلياه عن أشباهِ
لا زال يخلُد فيهما ما شاءهُ ودهتْ عِداه من الخطوب دواهِ

وله :

قالوا : غداً يوم الرحيلِ ، فأمطرتْ عيناى دمعاً واكفَ العَبَرَاتِ
/ لِمْ لا ؟ وأنْأى عن أحبةِ مهجتى كَرهاً ، فقلبى دائمُ الحسرات [٧٦-ب]
مِن كلِّ بيضاء العوارضِ طفلةٍ مثل البدورِ تضىء فى الظلمات
لولا الرجاء بأنْ يُعجَّلَ بينَنا وشْكُ التلاقى لاشتهيتُ مماتى

وعتب عليه أبوه المعتمد فى طريقه من مكناسة إلى أغمات عتباً أفرط فيه ، فكتب إليه يستعطفه :

يا حليفَ الندى وربَّ السَّماحِ وحبيبَ النفوس والأرواحِ

---

(١) الأصل : كأنَّكِ .

مِن تمامِ النُّعْمَى علىَّ الْتِمَاحِى لمحـــــةً من جبينِكَ الوضاحِ
قد غَنِينا ببِشره وســـناهُ عن ضياء الصباح والمصباح
ذاك حظى مِنَ الزمانِ ، فإنْ جا دَ بهِ لى بلغتُ كلَّ اقتراحى

فأجابه المعتمد :

كنتُ حِلْفَ الندى وربَّ السماحِ وحبيبَ النفـــوس والأرواحِ
إذ يمينى للبـــذل يومَ العطايا ولقبضِ الأرواح يومَ الكفاحِ
وشِمالى لقبض كلِّ عِنانٍ يُقحِمُ الخيلَ فى مجال الرماح
وأنا اليومَ رهنُ أسرٍ وفقرٍ مستباحُ الحِمى مهيضُ الجناحِ
لا أجيب الصريخَ إنْ حضر البا سُ ولا المعتفِين يومَ السماحِ
عاد بِشْرى الذى عَهِدتَ عبوساً شغلتْنى الأشجانُ عن أفراحى
فالْتماحى إلى العيونِ كريهٌ ولقـــد كان نزهةَ اللُّمّاحِ

١٢٢ — يزيد بن محمد الراضى، أبو خالد

ولاه أبوه الجزيرةَ الخضراء ، وكان بها عند إجازة عساكر ابن تاشفين اللمتونى البحر واشتراطه إياها ، فنقله إلى رُنْدَة ؛ وهو شقيق عَبّاد والفتح وعبيد الله المعتدّ[1] بنى المعتمد ، أمهم اعتماد ، وقد تقدم ذكر ذلك وذكر حُظْوتها لديه . وقيل إن المعتضد غاظه / ما بلغه من غلبتها على المعتمد أولَ ما اشتراها ، [٧٧-١]

(١) سبق أن ذكره ابن الأبار باسم عبد الله .

فتوجه إليه عازماً على عقابه[1] ومعتقداً التنكيل به ، والمعتمد إذ ذاك بِشِلْب عاملٌ له ، وقد وَلدتْ منه أكبرَ أولاده سِراجَ الدوله عَبّاداً . فأمرها أن تتلقاه به لتعطفه رؤيتُه عليها ، فكان ذلك كذلك ، ورقّ له المعتضدُ وفَتَر عزمُه على الإيقاع به .

وكان الراضى من أهل العلم والأدب ، كَلِفاً بالمطالعة والدراسة ، قرأ كتب القاضى أبى بكر بن الطيب[2] ، وأشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى ، شهر فى الأصول وذهب إلى النظر والاختيار .

قال ابن اللبانة : ولد الراضى سبعةً من البنين ، وهو أقل بنى عباد الرؤساء ولداً ، وكان عالى الهمة ، عالماً بالشرعيات ، واقفاً على الطبيعيات ، ذاكراً للعرب وأنسابها ، حافظاً للغاتها وآدابها .

قال : وهو شاعر بنى عَبّاد بعد أبيه ، على أنه أقوى عارضةً منه ، وأبوه ألطف طبعاً وأرق صُنعا . واستُنزلَ الراضى من رُنْدة عند خلع أبيه ، وبعد مخاطبته أياه بذلك على عهود أُخفرتْ ومواثيق نُقضتْ ، فقُتل صبراً فى رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وهو القائل فى النسيب :

مَرُّوا بنا أصُلاً من غير ميعادِ فأوقدوا نارَ شوقى أىَّ إيقادِ
وأذكَرونىَ أياماً لهوتُ بهمْ فيها ، ففازوا بإيثارى وإحمادى
لا غروَ أن زاد فى وَجْدى مرورهُم فرؤيةُ الماء تُذْكِى غُلَّة الصادى

وله يخاطب أباه ، وقد أنهض جماعةً من إخوته دونه ، وبعث بها مع بعض بنيه :

---

(١) الأصل : عقبه ، وقرأها دوزى (بنو عباد : ٢/٧٥) : عتبه .
(٢) المراد أبو بكر بن الطيب الباقلانى .

أعيذُك أن يكونَ بنا خُمولُ ويطلَعُ غيرنا ، ولنا أفولُ
حنانَك ، إنْ يكنْ جُرمى قبيحاً فإنَّ الصفحَ عن جُرمى جميلُ
وإن عَثَرتْ بنا قدمٌ سَفَاهاً فإنى من عِثارىَ مستقيلُ
وأحسنُ ما سمعتُ به عزيزٌ ينادِيهِ فيرحمهُ ذليـــلُ
وهأنذا أناديكمْ ، فهل لى إلى قربٍ من الرُّحْمَى سبيلُ ؟
[٧٧-ب] / وأنت المَلْكُ تعفو عن كثيرٍ فمالَكَ ظَلْتَ يُغضبكَ القليلُ ؟
ألستُ بفرعك الزاكى ، وماذا يُرَجِّى الفرعُ خانتهُ الأصولُ ؟
بعثتُ بُرقعتى هذى رسـولاً صغيرَ السِّنِّ ليس له حَوِيلُ
لترحمَـــهُ وأفراخاً إذا ما عَتَبْتَ علىَّ عاد لهمْ عويلُ
بَقِيتَ لهمْ على عَتْبٍ وعُتْبَى فإنَّ حياتَكَ الظلُّ الظليلُ

وله يخاطبه أيضا مسلِّياً عن هزيمة جيش له بناحية لُورْقَة كان عليه ابنه المعتدّ :

لا يُكْرِثَنَّكَ[1] خطبُ الحادثِ الجارى فما عليكَ بذاكَ الخطبِ من عارِ
ماذا على ضَيْغَمٍ أمضى عزيمتَه أنْ خانَه حَدُّ أنيابٍ وأظفارِ ؟
مَن يُوقِظِ الحربَ لا يُنكرْ حوادثَها قد تُحرقُ النارُ يوماً مُوقدَ النارِ
لئن أتوْكَ فمِنْ جُبْنٍ ومِن خَوَرٍ قد يَنهضُ العَيْرُ نحو الضيغم الضارى
عليكَ للناس أن تَسعَى لنصرهِمُ وما عليكَ لهمْ إسعادُ أقدارِ
لو يَعلمُ الناسُ ما فى أنْ تدومَ لهمْ بَكَوْا ، لأنَّكَ مِن ثوبِ الصِّبا عارِ
ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتِهِمُ لم يُتحفوك بشىء غيرَ أعمارِ**

---

(١) أى لا يسوءنك . انظر اللسان ٢/٤٨٥ .

وهى طويلة ، وجل شعره فى استعطاف أبيه المعتمد لطول موجدته عليه ، والاعتذار فى كل حين إليه . ومن ذلك قوله :

سجيةُ ذى الدنيا عداوةُ ذى الفضلِ ورَوْمُكَ نقلَ الطبعِ من أعظم الجهلِ
فصـــبراً على ضِيقاتها فلعلَّها تُفَرَّج يوماً ، والعُقودُ إلى حلِّ
ولاتُضْمِرَنَّ الشَّكْلَ إن كنتَ ذا حِجًا فايس لبيباً من يبيت على ثُكْلِ
سأشكو إلى مُشْكِى فؤادى بعَتْبِهِ ومِن عجبٍ شكوى الجريح إلى النَّصْلِ
أمعتمَدَ الأملاك ، دعوة آملٍ رضاك فلا ضاقت إلى غيره سُبْلى
/ولستُ ـ وإن أُضحِى بعيداً ـ بيائسٍ فإن دموع المُزن تهوِى إلى سُفْلِ [٧٨ ـ ١]
لك الخيرُ لم أعلم بأنك منكرٌ ـ إذا الشمسُ آذتنى ـ فرارى إلى الظلِّ
فإن كنتُ ذا ذنبٍ فحسبىَ عفوُكمْ وقلبىَ ما زلَّ الرجالُ ذوو العقلِ
وكم حقَنَ الأملاكُ قبلَكَ من دمٍ وكان لديهمْ سَفْكُه كجَنَى النحلِ
يؤرِّقُنى ظنى بجَدِّى ونقصِهِ ويُرقدنى علمى بما لَك من فضلِ
لعمرى لئن كنتُ الجديرَ بزُلْفَةٍ لديك ، فهذا الفرعُ من ذلك الأصلِ

وله من قصيدة :

مالى أرى ذا السيفِ عندَك عاطلاً وهْوَ المصمِّمُ إنْ سِواهُ تَبَلَّدا ؟
مالى حرمتُ رضاكَ لى ، وهْو الذى قد كنتُ أرهَبُ من زمان أنكدا ؟
إنى وحقِّك واجدٌ بينَ الحشا مِن أجلِ سُخطك مِثلَ حَزٍّ بالمُدى
إن كان لى ذنبٌ فعفوُك واسعٌ أو إن يكن بغضٌ فقد بانَ الرَّدى
قد كان مِن حقى ـ لعَمرِك ـ أن أُرى من بين أبناء الملوك محسَّـــدا
فأنا الجوادُ متى أجئْ فى حَلبـــةٍ فاتتْ عيونُ الناظرين لىَ المدى

لا تَنْحَلُوا شِعرى سوايَ تشكُّكاً فالسِّقْطُ قد يُعْشِى العيونَ إذا بدا

وقوله يصف نكد أيامه :

هى الدارُ غادرةٌ بالرجال وقاطعةٌ لحبال الوصالْ
وكلُّ سرورٍ بها نافدٌ وكلُّ مقيمٍ بها لارتحالْ
وموعدُها أبداً كاذبٌ فإن أنجزتْه فبَعدَ المِطالْ
فمن رام منها وفاءً يدومُ ومَكْثاً لها رام عَينَ المُحالْ
خُلقنا نياماً ، وظلَّتْ خيالا وأوشَكُ شىءٍ فراقُ الخَيالْ
[٧٨ – ب] / نُعذَّبُ منها بغير اللذيذ ونشرق منها بغير الزلالْ
ونزداد – معْ ذاكَ – عشقاً لها ألا إنما سعيُنا فى ضلالْ(١)

وقوله فى مثل ذلك :

يَحُلُّ زمانُ المرءِ ما هو عاقدُ ويسهر فى إهلاكه وهْو راقدُ
ويُغرَى بأهل الفضل حتى كأنهم جناةُ ذنوبٍ ، وهْو للكُلِّ حاقدُ
سينهدُّ مبنىً ، ويُقْفِر عامرٌ ويَصْفِر مملوء ، ويخمَد راقدُ
ويفترق الأُلّاف مِن بَعدِ صحبةٍ وكم شهدَتْ مما ذكرتُ الفراقدُ

وله فى قصيدة يجاوب بها أباه ، وقد خاطبه طاعناً عليه وهازئاً به :

أتريد منى أن أكو ن كمَن غدا فى الدهر نادرْ

---

(١) أضاف دوزى هنا بيتاً غير موجود فى الأصل وهو :

كمعشوقة ودُّها لا يدوم وعاشقُها أبداً غير سال

ولم يذكر مصدره ، ومن المعروف أنه نشر ما نشر من « الحلة » عن النسخة التى عُملت من نسختنا للمكتبة الأهلية فى باريس ، فلعل الناسخ أضافه من عنده أو من مصدر آخر لم يعينه .

هيهـــات ذلك مطمع أعيا الأوائلَ والأواخرْ
لا تدسَ يا مـــولاى قو لةَ ضارعٍ لا قولَ فاجرْ
ضبَطَ الجزيرةَ عنـدما نزلتْ بعقْوتها العساكرْ
هبْنى أسأتُ كما أسأ تُ ، أما لهذا العَتْب آخرْ ؟
هبْ زلّتى لبُـــنوتى واغفر ، فإن الله غافرْ

وأول قصيدة أبيه :

المُلْك فى طىِّ الدفاترْ فتخلَّ عن قَوْد العساكرْ
طـــفْ بالسرير مسلِّماً وارجع لتوديع المنابرْ
واطعن بأطراف اليرا ع ، نُصِرْتَ ، فى ثغَرِ المحابرْ
واضرب بسكين الدوا ةِ مكانَ ماضى الحدِّ باترْ
أولستَ رِسْطاليسَ إنْ ذُكر الفلاسفةُ الأكابرْ ؟
وكذاك إن ذُكر الخلي لُ فأنتَ نحويٌّ وشاعرْ
/ وأبو حنيفةَ ساقطٌ فى الرأى حينَ تكونُ حاضرْ [٧٩ – ١]
مَن هُرْمُسٌ ، مَن سيبويـ ـهِ ، مَن ابنُ فَوْرَكَ إذ تُناظرْ ؟
هذى المكارمُ قد حويـ ـتَ فكن لمنْ حاباك شاكرْ
واقعـــد فإنك طاعمٌ كاسٍ ، وقل : هل من مُفاخرْ ؟ (١)

---

(١) ذكر ابن خاقان فى « قلائد العقيان » (بولاق ١٢٨٣ ، ص ٣١ – ٣٣) طرفاً من القصيدتين . وخلاصتها أن المعتمد عندما وصل لُورْقة وجد أن خصمه – والأغلب أنه المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس – قد أرسل إليها جيشاً ليحول بين المعتمد وبينها ، فطلب المعتمد إلى ابنه الراضى أن يقود جيشاً للقاء العدو ، « فأظهر التمارض والتشكى ، وأكثر التقاعس والتلكى . . ورأى أن المطالعة أرجع من المقارعة ، ومعاناة العلوم أريح من مداواة

١٢٣ — يحيى بن محمد المدعو بشرف الدولة ، أبو بكر

قرأ فى حياة أبيه على أبى عبد الله مالك بن وُهَيب[١] وأبى الحسن بن الأخضر بإشبيلية ، ونشأ خاملا وتعيَّش من كَتْب الوثائق بمَرّاكُش . وهو القائل وقد دعاه المقدم للحسبة من قِبل القاضى أبى محمد بن أبى عُرجون ليكتب له ، وكان أميًّا جاهلا :

عجباً لدهرٍ كلُّ ما فيه عجبْ ... فَدْمٌ سَمَا ونبيهُ قومٍ قد رَسَبْ

لا تنفعُ الآدابُ فيه وإن غدتْ ... تُعزَى إلى ذى همةٍ عالى النسبْ

أوَليس من نكد الزمان بأن أُرى ... أُدعى لأكتبَ صاغراً للمحتسَب؟[٢]

= الكلوم ، فقد كان عاكفاً على تلاوة ديوان، عارفاً بإجادة صدر وعنوان » ، فيئس منه المعتمد وعهد إلى أخيه عبد الله المعتد فى ذلك ، فخرج بالجيش وانهزم شر هزيمة ، وعاد إلى أبيه مفلولا ، فاشتد غضب المعتمد على ابنه الراضى ، خاصة وقد كتب إليه قصيدة (سبق أن ذكرها ابن الأبار) يعزيه فى الخسارة . وواضح أن انصراف الراضى عن الحروب كان سبب الخلاف الطويل بينه وبين أبيه المعتمد . وكان أبوه قد ولاه رندة ، فاستنزله القائد المرابطى جرور الحشمى عنها بأمان ، ثم ضرب عنقه بعد ذلك سنة ٤٨٤ . وقد أورد ابن الأبار مختاراً من القصيدتين ، وهما بتمامهما عند ابن خاقان فى الموضع المشار إليه آنفاً .

(١) أبو عبد الله مالك بن وهيب فقيه أندلسى ، أصله من إشبيلية ، اشتهر أمره أواخر أيام المرابطين بمساجلة كانت بينه وبين محمد بن تومرت فى مراكش فى أوائل دعوته ، ويقال إن ابن تومرت أفحمه ، فنصح مالك على بن يوسف بن تاشفين بقتله . وقد روى الحادثة معظم مؤرخى الموحدين .

انظر : كتاب أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المعروف بالبيدق (تحقيق ليڤى پروڤنسال ، پاريس ١٩٢٨) ص ٦٨ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٨٥ — ١٨٦ ، وانظر أيضاً : ابن خلكان ، وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨) ترجمة ٦٦٠ ج ٤/١٤٠ — ١٤١ .

(٢) بفتح السين ، وسيجىء تفسير ذلك .

خَسفٌ أُسامُ به وتأبى همةٌ نْحَمية إلا الصيانةَ للحَسَبْ

أراد بالمحتَسَب — مفتوح السين — أنه — لقَدامته — كالميت الذى احتُسِب .

١٢٤ — حكم بن محمد المدعو بذخر الدولة ، أبو المكارم

قرأ أيضاً على ابن وُهَيب وتأدب به ، ومال إلى الهجاء فى خموله فتُحُومى لسانُه ، وتجول بأقطار المغرب ، ثم استقر بمدينة فاس يكتب الوثائق — كأخيه المذكور قبلَه — إلى أن توفى . وكتب إليه بعض أصحابه :

تتســـامَى الحِكَمُ مذ وشَاها حَـكَمُ
فَخَرَ الطِّرْسُ به وتباهَى القَـلَمُ
وزهتْ لَخْمٌ به فهْـو فيها عَلَمُ
مِن صناديدِ عُلاً بالثريا خيَّمـوا
آلُ عبادٍ وقلُ : آلُ أمجادٍ هُمُ
إن سطا الدهرُ بهم فـكفَى مجـدُهمُ

فجاوبه بقوله :

/ ما لِمَجْـدٍ عَلَمُ والزمانُ حَـكَمُ [٧٩ - ب]
وقضاياه غـدًا جـورُها يَحتكمُ
رائد الشؤم به مِحبرٌ أو قـلمُ
ونبيـه فطنٌ بيتَ شِعرٍ ينظِمُ

درسَ الفضلُ به وتفانَى الكرمُ
وغدا كلُّ أخٍ ودُّه يُتهَّمُ
غيرُ خِلٍّ ماجدٍ فضلُه منتظِمُ
سَفَرتْ عنه لنا كَلِمٌ ، بل حِكَمُ
عظمتْ إذ نَظَمتْ مجدَ قومٍ عُدِموا
صاحِ إنا عَربٌ مَلَكتْها عَجَمُ
كلُّ فضلٍ ونُهًى عَدَمٌ عندَهُمُ
آه من دهرٍ غدا جُرُّه يُهتَضَمُ
آلُ عبادٍ به غائرٌ بجمعُهم
لَعِبَ الدهرُ بهم ومحا رسمَهُمُ
ليت شِعرى والمُنى خُلَّبٌ أو حُلُمُ
هل إلى أندلسٍ نظرةٌ تُغتَنَمُ ؟

١٢٥ — محمد بن مَعْن بن صُمَادِح التَّجِيبى المعتصم بالله الواثق بفضل الله ، أبو يحيى

هو محمد بن مَعْن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صُمَادِح بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر بن عميرة — الداخل إلى الأندلس — ابن المهاجر بن سُرَيح بن حرملة بن تميم ، وفى عبد الرحمن بن

عبد الله يجتمعون مع محمد بن هاشم[1] وأهل بيته التُّجِيبيين ولاةِ سرقسطة

---

(١) بنوصمادح التجيبيون وبنو هاشم فرعان لأسرة واحدة من أصحاب الثغر الأعلى ، وأصلهم كلهم من العرب الذين استقروا فى إقليم أرغون من أيام الفتح . وكان أول ظهورهم أيام الأمير محمد ، وكان جدهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح يلى دَرُوقَة Daroca شبه مستقل فيها ، فاستعان به الأمير محمد فى القضاء على بنى قسى أصحاب الثغر الأعلى ، وكانوا يحكمون شبه مستقلين فى هذه الناحية منذ أيام الفتح ، وأعطى الأميرُ محمدٌ عبد الرحمن بن صمادح ولايةَ قلعة أيوب بالإضافة إلى دروقة مكافأة له ، وقد اضطر محمد بن موسى بن موسى بن فرتون Furtuno رأس بنى قسى إذ ذاك إلى التنازل عن سرقسطة لرايموند كُنْد بليارش Pallars ثم انتزعها الأمير محمد من هذا الأخير وأضافها إلى عبد الرحمن بن صمادح ، فأصبح هذا الأخير سيد الثغر الأعلى كله من قلعة أيوب إلى جبال البُرت (البرانس) . واستمر هذا إلى أيام ابنه محمد بن عبد الرحمن المعروف بالأنقر (أى الأعور) . ثم تمكن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح من القضاء على آخر بنى قسى وهو محمد بن لب ، فقتله سنة ٢٤٤/٨٥٧ وانفرد بالثغر الأعلى .

أما بنو هاشم ففرع آخر من ذلك البيت التجيبى ، وجدهم هاشم بن محمد المعروف بالأنقر هو جد هذا الفرع (انظر الجدول) . وكان الأمير عبد الله قد استعان بمحمد الأنقر فى كسر شوكة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح وآله الذين استبدوا بالثغر الأعلى وربطوا علاقاتهم بالممالك النصرانية فى الشمال ، وانتهى الأمر بأن صار هاشم بن محمد الأنقر صاحب سرقسطة والثغر الأعلى كله ، واكتفى عبد الرحمن بن محمد بن صمادح ببلدة وشقة وحصنها وخلفه أبناؤه عليها .

وقد أنجب هاشم بن محمد ابنين ، أحدهما هذيل الذى دخل فى خدمة الناصر وصار من بين وزرائه وقواده ، والثانى أبو يحيى محمد الذى ورث ولاية الثغر الأعلى عن أبيه ، وخلفه ابنه المطرِّف ثم ابن هذا عبد الرحمن الذى قتله المنصور بن أبى عامر فى المؤامرة التى اشترك فيها مع عبد الله بن المنصور وغالب الناصرى كما ذكرناه ، وخلفه ابنه يحيى المعروف بسماجة ، ثم يحيى ، ثم منذر وهو الذى استبد بالثغر بعد انتشار الخلافة ، ثم يحيى ، ثم منذر الذى قتله ابن عمه المسمى عبد الله بن حكم . وكان قتله الضربة القاضية على هذا الفرع .

أما الفرع الثانى — فرع صمادح بن عبد الرحمن — فقد ظل يحكم وشقة حتى أخرج سليمان ابن هود آخرَهم أبا يحيى محمد منها فى المحرم سنة ٤٣١ . وبذلك انتهى تاريخ بنى صمادح وبنى هاشم التجيبيين فى الثغر الأعلى ، ولجأ أبو الأحوص معن وأبو عتبة صمادح ابنا أبى يحيى محمد إلى عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن أبى عامر فى بلنسية كما يحكى ابن الأبار ؛ وإليك جدولا يبين تسلسل البيتين : =

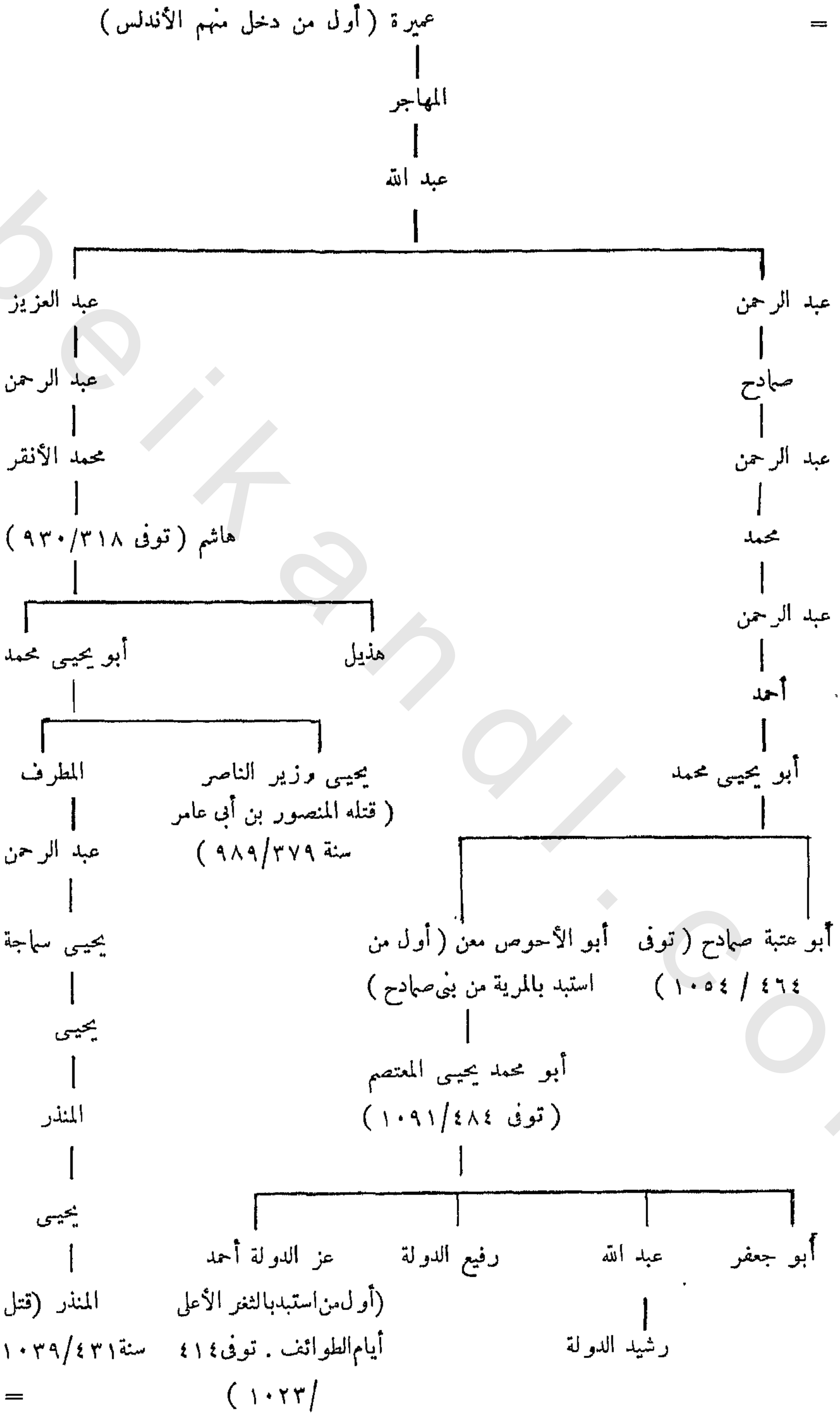
=
عميرة (أول من دخل منهم الأندلس)
المهاجر
عبد الله
عبد الرحمن
صمادح
عبد الرحمن
محمد
عبد الرحمن
أحمد
أبو يحيى محمد
أبو عتبة صمادح (توفى ٤٦٤ / ١٠٥٤)
أبو الأحوص معن (أول من استبد بالمرية من بنى صمادح)
أبو محمد يحيى المعتصم (توفى ٤٨٤/١٠٩١)
أبو جعفر
عبد الله
رشيد الدولة
رفيع الدولة
عز الدولة أحمد (أول من استبد بالثغر الأعلى أيام الطوائف . توفى ٤١٤ / ١٠٢٣)
المنذر
يحيى
المنذر (قتل سنة ٤٣١/١٠٣٩)
=
عبد العزيز
عبد الرحمن
محمد الأنقر
هاشم (توفى ٣١٨/٩٣٠)
هذيل
أبو يحيى محمد
يحيى وزير الناصر (قتله المنصور بن أبى عامر سنة ٣٧٩/٩٨٩)
المطرف
عبد الرحمن
يحيى سماجة
يحيى
المنذر

وأمرائها فى الفتنة وقبلَها ، وأمه بُرَيْهة بنت الناصر عبد الرحمن بن المنصور محمد ابن أبى عامر . وكان جده أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن والياً على وَشْقَة ، وهى وما والاها دار هؤلاء التَّجيبيين من الثغر الشرقى بالأندلس .

ولما أخرج منها فى الفتنة صار إلى أبى الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبى عامر صاحب بلنسية — ويلقَّب بالمنصور — فأكرمه وأوْطنه بلدَه ، وصاهر ابنيه مَعْنًا أبا الأحوص وصُمَادِحًا أبا عُتْبة : زوَّجهما أختيه . ثم رأى اللحاق بالمشرق فهلك غرقاً فى البحر ، وكان اليمُّ أقصى أثره .

وبقى ابنُه مَعْنٌ فى كَنَف صهره عبد العزيز بن أبى عامر ، فقدَّمه على المرِيَّة ، لما صارت من عمله بعد مقتل زُهَيْر العامرى بمدة قريبة/.وذلك فى سنة [٨٠ - ١] اثنتين وثلاثين — وقيل ثلاث وثلاثين — فاستبد بضبطها إلى أن هلك سنة ثلاث وأربعين ، فأجلس بنو عمه ورجالُه ابنَه أبا يحيى محمد بنَ مَعْن هذا ، وهو لم يستكمل ثمان عشرة سنة .

وقد كان أبوه أخذ البيعة له فى حياته وأحكم أمرها ، بعد أن عرضها على أخيه أبى عُتبة صمادح فدفعها وأبى قبولها ، فتمت له الإمارة بعد أبيه وسمَّى نفسه بـ « معز الدولة » . فلما تلقب سائر أمراء الأندلس بالألقاب الخلافية ، تلقب هو أيضاً بـ « المعتصم بالله » و « الواثق بفضل الله » : لقبين من ألقاب خلفاء بنى العباس ، مناغاةً لصاحب إشبيلية عباد بن محمد لما تلقب بـ « المعتضد بالله المنصور بفضل الله » .

= انظر : R. DOZY : *Essai sur l'histoire des Todjibides. Les Banū Hāchim de Saragosse et les Banū Çomādih d'Almérie. Recherches*, I, pp. 211-291.
والنصوص التى أوردها دوزى فى آخر الكتاب ، ومنها نص ابن الأبار الوارد فى المتن .

وكان حسن السيرة فى رعيته وجنده وقرابته ، فانتظمت أيامُه واتصلت دولتُه واستقامت أموره .

وقال أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر السالمى فى تاريخه ، وذَكر المعتصمَ هذا : كان رَحْبَ الفناء ، جزيل العطاء ، حلماً عن الدماء والدهماء ، فطافت به الآمال ، واتسع فيه المقال ، وأُعملتْ إلى حضرته الرحال . قال : ولم يكن من فحولة ملوك الأندلس ، بل أخلد إلى الدعة ، واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعِلْقٍ يقتنيه .

وكانت بينه وبين أصحابه ملوك الطوائف فتن مبيرة غلبوه عليها ، وأخرجوه من سجيته مكرهاً إليها . قال : وصاهر المعتصمَ إقبالُ الدولة على بن مجاهد العامرى ، وأنكحه ابنته ، وخاطب عنه أبو محمد بن عبد البر من دانية — يعنى عند زفافها إليه — برسالة بديعة .

وقال غيره : كان المعتصمُ ساكنَ الطائر ، مأمون الجانب ، حصيف العقل ، طاهراً ، معنيًّا بالدين وإقامة الشرع ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً فى كل جمعة للفقهاء والخواص ، فيتناظرون بين يديه فى كتب التفسير والحديث . ولزم حضرتَه فحولٌ من الشعراء كأبى عبد الله بن الحداد[1] ،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى ، ويسميه بعضهم مازن ، فى الطبقة الأولى من شعراء القرن الخامس الهجرى ، وقد اختص بمعن بن صمادح وقال فيه أمداحاً كثيرة . توفى سنة ٤٨٠/١٠٨٧ .

انظر عنه : الذخيرة لابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ص ٢٠١ وما يليها .

تكملة ابن الأبار ، ص ١٣٣ .

المغرب لابن سعيد : ١٤٣/٢ .

رايات المبرزين لابن سعيد ، ص ٢٣٤ .

وانظر بقية المراجع عنه فى المغرب والرايات فى الصفحات المبينة أعلاه .

وفيه استفرغ شِعره ، وكابن عُبادة(١) وابن مَلك(٢) والأسعد بن بِلّيطة(٣) وأبى العباس [أحمد بن قاسم المحدث(٤) ، رغم] اتصافه بكثرة الجبن وقلة الجود ؛ وعلى ذلك قصده العلماء والأدباء .

وصدمتْه خيلُ المرابطين فى آخر دولته وهو عليل علتَه التى مات منها ، فحاصروه وقاتلوه من مقا [مه فى](٥) قصبة المرية وهو يعالج الموتَ ويقول أثناء

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بالقزّاز . اختصه ابن بسام بفصل طويل فى الذخيرة (مجلد ٢ قسم ١) واختصه المقرى بمادة طيبة فى أزهار الرياض ، ٢/٢٥٢ . كان شاعر معن بن صمادح المقدم ، وهو غير عبادة بن ماء السماء . انظر : المغرب لابن سعيد : ٢/١٣٤ – ١٣٧ ، ورايات المبرزين لابن سعيد .

(٢) أبو بكر محمد بن مالك القرطبى ، اختصه ابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ٢٤٥ وما بعدها بكلام طويل . وكان على براعته فى الشعر والنثر فقيراً معدماً لم تفارقه الحاجة حياته كلها .

(٣) الأسعد بن إبراهيم بن بليطة القرطبى الشاعر الناثر المتوفى فى حدود ٤٤٠/١٠٤٨ . ذكره ابن الفرضى ، ترجمة ٥٨١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ وابن حاقان فى المطمح ص ٨٣ – ٨٤ وابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ٢٩٠ وما بعدها والمقرى فى النفح (طبعة أوربا) ١/٤٥٣ – ٤٥٥ وابن سعيد فى الرايات ص ١٩٧ . وقد كان فارساً باسلا فى نفس الوقت ، قال ابن بسام : « فارسُ جحفلٍ ، وشاعر محفل ، فجرى فى الميدانين ، وارتزق فى الديوانين » . وذهب دوزى (بنو عباد : ١/٢٠ ، هامش ٦٦) إلى أن بليطة هى الكلمة الإسبانية **billete** ومعناها البطاقة .

(٤) يغلب على ظنى أن أبا العباس المذكور فى الأصل مبتور الاسم هو ابن قاسم هذا ، وقد ذكره ابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ٣٩١ . وابن الأبار يقتبس هنا من ابن حيان (راجع الذخيرة ، نفس القسم ، ص ٢٣٦ وما بعدها) ، وهو يقول فى ص ٢٣٩ : « ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت كأبى عبدالله الحداد وابن عبادة وابن الشهيد ، وغيرهم ممن لم يعلّق بسواه سبباً . . » . وابن الشهيد هو أبو حفص عمر بن الشهيد . انظر عنه الذخيرة ، نفس القسم والمجلد ، ص ١٨٠ وما بعدها . وأعتقد أن ابن الشهيد هنا أصح من أبى العباس أحمد بن قاسم .

وأضفت كلمة « رغم » للسياق .

(٥) أكملت هذه العبارة بما يقيم السياق . وقد وردت هذه الحكاية فى معظم مراجعنا نقلا عن ابن حيان ، ولكن كل واحد منها تصرف فيها وحكاها كما شاء (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٤٠–٢٤١ . ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص٤٧ – ٤٨ . ابن عذارى ، =

[٨٠ – ب] ذلك : « نُغِّص / علينا كلُّ شىء حتى الموت ! » إلى أن هلك بعد ذهاب المرابطين عنه — وقيل : توفى وهم يحاصرونه فى شهر ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وأربعمائة — فكانت مدة إمارته بالمرية أربعين سنة ، أشبهَ فى ذلك خالَه[1] عبدَ العزيز بن المنصور صاحب بلنسية ، فإنه وُلِّى سنةَ اثنتى عشرة وأربعمائة وتوفى سنة اثنتين وخمسين .

ومن شعر المعتصم وقد توفيت إحـــدى كرائمه فركب من قصره وأمر بمواراتها :

لما غدا القلبُ مفجوعاً بأسْوَدِهِ وفُضَّ كلُّ خِتامٍ من عزائمِهِ
ركِبتُ ظهر جوادى كى أسَلِّيَهُ وقلتُ للسيف : كن لى من تمائمِهِ

وله ، وكتب به إلى بعض حُرَمه فى رقعة طيرها إليها فى جناح حمامة :

وحمَّلتُ ذات الطوق منى تحيةً تكون على أفْقِ المرية نِجْمَرا
تُبلِّغ مِن وُدِّى إليكمْ رسائلاً بأعبقَ مِن نَشْر العبير وأعطرا

وكتب إلى ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار مراجعاً ومعاتباً :

وزهَّدنى فى الناس معرفتى بهم وطولُ اختبارى صاحباً بعدَ صاحب
فلم ترُنى الأيامُ خِلاًّ تَسُرُّنى مباديه إلا ساءنى فى العواقبِ

= البيان المغرب : ٣/١٦٨) . وقد رأيت ابن خاقان يقول : « فأكثر القتال إنما كان تحت مجلسه الذى كان به مضجعه ، وفيه تأمله وتوجعه . . » فاسترشدت بهذه العبارة فى تقويم ما أسقط ناسخ الحلة السيراء .

(١) الأصل : حاله ، وكذلك قرأها دوزى ، والصحيح : خاله ، لأن عبد الملك ابن عبد العزيز الملقب بالمنصور صاحب بلنسية كان خال أبى يحيى محمد بن معن بن صمادح هذا . (انظر : الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٣٨) .

ولا قلتُ أرجوه لدفْع ملمةٍ من الدهر إلا كان إحدى النوائب

وكتب إليه ابنُ عمار يسأله السراح وهو ضيف عنده :

يا واثقاً فَضَحَ السحا بَ الجودَ فى معنى السَّماح
ومُطابقــاً يأتى وجو هَ الجِدِّ مِن طرقِ المزاحْ
أسرفتَ فى برِّ الضيو ف ، فخذ قليلاً فى السَّراحْ

فراجعه المعتصم بقوله ، وهو أشعر منه فى الجواب :

يا فاضلاً فى شــكرهِ أصلُ المساء مع الصباحْ
/ هلا رفقت بمهجتى عند التكلم فى السَّراحْ ؟ [٨١ - ١]
إن السماح ببُعــدِكمْ والله ليس مِن السَّماحْ

وله فى جدول :

انظر إلى حسن هذا الماء فى صَبَبِهْ كأنه أرقمٌ قد جَدَّ فى هربِهْ

كذا قال هذا البيت فرداً ، وقد تقدم ذكرُ الخلاف فى مثله : هل هو شعر أم لا .

وكان الذى بينه و بين المعتمد محمد بن عباد غير صالح ، فكتب إليه المعتمد وقد اتهمه بالسعى عليه عند يوسف بن تاشفين أمير المغرب :

يا مَن تَمَرَّس لى يريدُ مساءتى لا تَقْرِضَنَّ فقد نصحتُ لمَنْدَمِ
مَن غرَّه منى خلائقُ سهلةٌ فالسُّم تحتَ لَيانِ مَسِّ الأرقمِ

ثم تحرك ابنُ تاشفين من العُدوة بعد وقيعة الزَّلاقة ، وأجاز البحرَ إلى الأندلس ، وتقدمه سِير بن أبى بكر ، فلم يخرج إليه المعتمد لبطالة كان فيها منغمساً . وكانت أولَ وحشة وقعت بينهما . ثم توجهوا جميعاً إلى حصن

أَلْبِيطْ[1] من أعمال لورقة — وقد تغلب عليه النصارى — فخرج المعتصم ليلقاهم ويُنزلهم مؤدياً حقّ ابن تاشفين ومَن معه ، فأخجله المعتمدُ بتياسُره عن طريق لقائه فكتب إليه :

يا بعيداً وإن دنا كم تمنيتُ قُربَكا
أنت حسبى من المُنى ليتنى كنتُ حسبَكا

وتلاقيا بعد ذلك عند ابن تاشفين فى تلك الغزوة ، والمعتصمُ قد تزيّى بحمل

---

(١) فى الأصل : البَبيط ، وقد قومتها بما يتفق مع الرسم الجارى فى بقية مراجعنا العربية ، وهو لبيط . وألبيط أقوم ، لأنه أقرب إلى الرسم الإفرنجى Aledo وهو حصن كان بين لورقة ومرسية . وكان يوسف بن تاشفين بعد أن انتصر فى وقعة الزلاقة فى عبوره الأول ، قد صمم على المسير نحو طليطلة فى عبوره الثانى (ربيع الأول ٤٨١/ يونيو ١٠٨٨) ، ولكن هذا الحصن كان يقع فى الطريق ، وكان ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون قد حصنه ووضع فيه قوة تقدر بألف فارس واثنى عشر ألف مقاتل ، كانت تغاور نواحى مرسية ولورقة والمرية ، فأراد يوسف بن تاشفين الاستيلاء عليه ، ودعا ملوك الطوائف إلى أن يوافوه بقواتهم عنده ، ولكنه استبان من اختلافهم بعضهم مع بعض وعدم إخلاصهم فى الجهاد ما جعله يرفع الحصار عنه بعد أن كاد يستولى عليه ، فلم يكن قد بقى من القوات التى فيه إلا مائة فارس وألف راجل . وانسحب يوسف بن تاشفين وقد عول على خلع ملوك الطوائف ، وبعد انسحابه تبين ألفونسو السادس أنه لن يستطيع الدفاع عن الحصن إذا هاجمه المرابطون مرة أخرى ، فأخلاه وهدمه (٤٨٣ — ٤٨٤) .

انظر : روض القرطاس ، ص ٩٩ .

الحلل الموشية ، ص ٤٩ — ٥٠ .

مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة (تحقيق ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٨ — ١١٣ .

مقالنا : الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ج ٢ سنة ١٩٤٩ ، ص ٩١ — ١٤٣ .

ويوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الترجمة العربية لمحمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩١ — ٩٢ .

العمامة ولبس البُرنس يتقرب بذلك على عزمه ، فنظر إليه المعتمدُ ، وفهم المعتصم أنه يهزأ به وانصرف ؛ فضاحك المعتمدُ فى ذلك مَن جالسه من وزرائه . وأهدى ذو الوزارتين أبو الحسن بن اليَسَع منهم عَشِيَّ ذلك اليوم مَنَّ نرجسٍ ، فكتب إليه المعتمد معرِّضاً بابن صمادح :

أزِف الصيامُ وزار نَوْرُ النَّرْجِسِ ... فلَقِيتُ زورتَه بحثِّ الأكؤسِ
فى ليلة دارت علىَّ نجومُها ... حتى سَكِرْتُ بكفِّ قوتِ الأنفُسِ
خَوْدٌ تملَّكتِ الفؤادَ فريدةً ... بنَدَى الثنايا والمحيَّا المشمِسِ
/ وجعلتُ نُقْلِى ذِكْرَ مُوصِلِ زَفْرتى ... فجمعتُ أشتاتَ المُنى فى مجلسى [٨١-ب]
ولقد ذكرتُ فزاد عينى قُرَّةً ... هُونُ السِّبَال وخِزْى ربِّ البُرْنُسِ

وحكى أبو بكر بن اللبانة أن المعتصم كتب إلى المعتمد :

شكرى لبِرِّك شُكرُ الروضِ للمطرِ ... ونفْحُ بِشْرى به أذكى من الزَّهَرِ
وجاءنى مُخبرٌ عنه ، فقلتُ له : ... بالله قلْ وأعدْ يا طيِّبَ الخبرِ
يا واحداً عَلماً فى كلِّ مَنْقَبَةٍ ... جَلَّتْ ، ويا ثالثاً للشمس والقمرِ
لئن حُرمتُ لقاءَ منك أشكرهُ ... لقد حللتَ سوادَ القلب والبصر

فراجعه المعتمد :

أنفحةُ الروضِ رقَّتْ فى صَبَا السَّحَرِ ... مِن بعدِ ما بات والأنداء فى سَمَرِ ؟
لا ، بل تحيةُ محْضِ الودِّ بلَّغَهَا ... بَرٌّ شريفُ المعالى ماجدُ النَّفَرِ
أما لَعَمْرُ أبى يحيى لقد وصلتْ ... مِن بره صلةٌ أحلى من الظَّفَرِ
يا من وردتُ الوفاءَ الغَمْرَ مُرْتوياً ... مِن عَهده إذ يُساقى الناسَ بالغُمَرِ
أحرزتَ سرْوَ السجايا ثم قارنَهُ ... ظَرفُ اللسان اقترانَ الكأس بالوترِ

إذا اعتبرتُ من الأخلاق أنفَسَها كنتَ المنافسَ فيه السامى القدَرِ
عليكَ منى سـلامٌ لا يزالُ لهُ فرضٌ تؤديه آصالٌ إلى بُكَرِ

وقصده أبو الوليد النَّحْلى[1] فى أسمال دنسة ، والناس بالمَرِيَّة قد لبسوا البياض ، فكتب إليه :

أيا مَن لا يُضاف إليه ثانٍ ومَن فَتح العُلا باباً فبابَا
أيجمُل أن تكون سوادَ عيْنى وأبصر دون ما أبغى حجابَا
ويمشى الناس كلّهمُ حَماماً وأمشى بينَهمْ وحدى غُرابَا ؟

فوصله المعتصم وكساه ، وكتب إليه مراجعاً :

[٨٢ - ١] وردتَ ولليلِ البهيم مطارفٌ عليكَ وهٰذى للصباح بُرودُ
وأنت لدينا ما بقيتَ مقربٌ وعيشُك سَلْسَالُ الجمام بَرودُ

---

١٢٦ — ابنه عبيد الله عز الدولة ، أبو مروان

كان أبوه المعتصم قد أنفذه فى آخر دولته رسـولا إلى يوسف بن تاشفين — عند كونه بغرناطة — فاعتُقل وقُيد ، فكتب إلى أبيه :

أبَعدَ السَّنَا والمعالى خُمولُ وبعد ركوب المَذاكى كُبولُ ؟

---

(١) ذكره ابن بسام فى الذخيرة (مخطوطة بغداد ، ورقة ٢٥٣ ا وب) دون أن يعرف به ، بل لم يزد على ذكر اسمه إلا قوله : الأديب أبو الوليد المعروف بالنحلى ، وقال إنه كان نابغة دهره ونادرة عصره ، وقال إنه : « لم يصد دراهم ملوك عصره » ، « وكان يضحك من حضر ولايبتسم هو إذا ندّر » ، ثم أورد طائفة من شعره وخبراً يدل على تقدير المعتمد بن عباد له .

ومِن بعدِ ما كنتُ حرًّا عزيزاً أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ ؟
حللتُ رسولاً بغرناطةٍ فحلَّ بها بى خطبٌ جليلُ
وثُقِّفْتُ إذ جئتُها مرسَلاً وقد كان يكرَم قَبلى الرسولُ
فقَدتُ المريةَ ، أكرِمْ بها فما للوصول إليها سبيلُ

فراجعه أبوه :

عزيزٌ علىَّ ، ونَوْحى ذليلُ على ما أقاسى ، ودمعى يسيلُ
لَقَطَّعَتِ البِيضُ أغمادَها وشقَّتْ بنودٌ وناحتْ طبولُ
لئن كنتُ يعقوبَ فى حُزنهِ ويوسفَ أنتَ ، فصبرٌ جميلُ

ثم لم يزل المعتصم يتحيَّل فى تخليصه حتى أُخذ من حراسه وهُرِب به على البحر ، فوافى المريةَ وهُنئ أبوه بخلاصه[1] . وبعَقِبِ ذلك توفى المعتصم ، وقد حاصره اللمتونيون وبارزوه بالعداوة .

وكان ابنه معز الدولة أحمد ولىَّ عهده والمرشحَ لمكانه من بَعده ، فعَهِد إليه أن يلحق ببلاد ابن حماد من شرقى العدْوة ، إذا سمع بخلع ابن عَبّاد ، فامتثل ذلك لأشهرٍ من وفاة أبيه .

وذكر أبو عامر السالمى عن معز الدولة مثلَ هذا ، وأنه وَلىَ بعدَ أبيه المعتصم ،

---

(١) كان أبو يحيى محمد بن معن المعتصم صاحب المرية من أشد أمراء الطوائف مكراً وحيلة ، وكان يرقب الحوادث بعد نزول المرابطين الأندلس ويجتهد فى أن يمكر بيوسف بن تاشفين لعله يتركه على إمارته . وكان يوسف عندما بدأ فى عزل ملوك الطوائف فى جوازه الثالث قد بدأ بغرناطة وصاحبها عبد الله الزيرى ، فاستنزله واحتل غرناطة فى شعبان ٥٨٦/ سبتمبر ١٠٩٠ ، فعجل المعتصم فأرسل ابنه عبيد الله هذا ليهنىء يوسف بن تاشفين بذلك ، فقبض يوسف على عبيد الله وأودعه السجن ، واجتهد أبوه فى خلاصه حتى تمكن من ذلك ، إذ هرَّبه فى مركب نقلته من مالقة إلى المرية . وعقب ذلك مباشرة أرسل يوسف قائده عبد الله بن واسِينُوَا للاستيلاء على المرية .

وبقى بالمرية إلى وقت القبض على المعتمد محمد بن عباد ، ثم ركب البحرَ على
[٨٢ - ب] وجهه فى قِطعٍ أعدَّها لفراره ، وأسلم المريةَ وأعمالَها ، وذلك فى رمضان / من سنة أربع وثمانين وأربعمائة — وقد قيل فى شعبان .

قال : وليومٍ آخر دخلها أصحاب ابن تاشفين ، وكان إذ ذاك يحاصر مُنْدُوشَر[1] على عشرين ميلا منها .

وقصد معز الدولة بِجَاية فأقام فيها تحت رعاية المنصور بن الناصر بن عَلَنّاس ابن حماد بن بلقين بن زيرى بن مناد الصّنهاجي وفى كنفه ، وقد كان ما بينهما قبل ذلك جميلا ؛ ويقال إن المنصور أنزله بتِنِس من أعماله الغربية .

قال السالمى : وعز الدولة أبو مروان عبيد الله بن المعتصم كان رسول أبيه إلى ابن تاشفين . وذَكر اعتقالَه ، والأبياتَ التى خاطب بها أباه ، ومراجعتَه إياه ، ووصَف خلاصَه كما تقدم . قال : وبقى إلى أن فرّ أخوه — يعنى معز الدولة إلى بجاية ، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمَّة كانت بينهما ، إلى أن انقرض أمَدُه بين آسٍ وكاس . قال : وحضر مع الأمير يحيى بن أبى بكر غزوتَه إلى طليطلة[2] ،

---

(١) كتبها ابن عبد المنعم الحميرى (الروض المعطارَ رقم ١٧٧ ص ١٨٥) : مندوجر وقال إنها على مرحلة من المرية ، وقال ليڤى پروڤنسال فى تعليقه على الترجمة الفرنسية لنفس الكتاب (ص ٢٢٤ من الترجمة تعليق رقم ١) : هى Mondújar أو بالضبط Santa Fé de Mondújar ، قرية صغيرة تابعة لمركز المرية من مديرية المرية على ٢٠ كيلومتراً منها على نهر أُنْدَرَش Andarax .

(٢) الغالب أن المراد هنا يحيى بن أبى بكر بن على بن يوسف بن تاشفين ، وكان من قواد على بن تاشفين فى المغرب والأندلس . والحملة على طليطلة المشار إليها هنا كانت سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ — ١١١١ م ، وكان على بن يوسف بن تاشفين قد انتهز فرصة اشتغال ألفونسو السادس بالحرب مع زوجته أوراكا فسير جيشاً ضخماً نحو طليطلة ، وكان على يقود الحملة بنفسه ، فاستولى على كثير من المدن والقلاع والحصون ، منها مجريط ووادى الحجارة وطلبيرة ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على طليطلة .

فلما شارفها وضرب بساحتها أخبيته ، سقط أحدُ ألويته من يد حامله وانكسر الرمح ، فتطير قوم وتفاءل آخرون ، فقال عز الدولة :

لم ينكسر عودُ اللواءِ لطيرةٍ يُخشى عليك بها وأن تتأوّلا
لكن تحقّق أنه يندقُّ فى نحر العدو لدى الوغى فتعجّلا

ونظير هذا ما ذُكر عن أبى الشَّمَقْمَق ، فى خروجه مع خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيبانى إلى الموصل عندما قُلِّدَها ، فلما دخلها ومر بأول درب منها اندق اللواء ، فاغتم خالد لذلك وعَظُم عليه ، فقال أبو الشمقمق بديهاً يسليه عن ذلك ، وأجاد ما أراد :

ما كان منـــدقُّ اللواء لريبةٍ تُخشى ولا أمرٍ يكون مُزَيَّـلا
لـكنَّ هذا الرمحَ أضعفَ مَتْنَهُ صِغَرُ الولايةِ فاستقلّ الموْصِلا

فسُرَّ خالد بما صدر منه فى الحين ، وسُرِّى عنه وأحسن إليه .

وقرأتُ فى بعض ما طالعته من أخبار ملوك الطوائف بالأندلس ، أن أبا بكر ابن اللبانة كتب إلى عز الدولة هذا ، لما توفى أبوه المعتصم وخُلع هو وسائر إخوته وقد وافاه منتجعاً :

/ يا ذا الذى هزَّ أمداحى بحِلْيَتِهِ وعَزَّه أن يهزَّ المجدَ والكرما [٨٣-١]
واديكَ لا زرعَ فيه [كنت][1] تبذلُهُ فخذْ عليـــه لأيامِ المُنى سَلَمَا

فوجه إليه بما أمكنه ، وكتب معه :

= انظر : يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلدان ٧ و ٨ سنة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ، ص ١٣٩ — ١٤٠) .

(١) أضاف دوزى (ص ١٧٦) هذه الكلمة ، وقال إنها غير واردة فى المخطوط . وبها يستقيم الوزن .

المجدُ يُخجل مَن يفديك فى زمنٍ ثنَاه عن واجب البر الذى علما
فدونك النَّزر مِن مُصْفٍ مودَّته حـــتى يُوفيك أيام المنى السَّلَما

١٢٧ — أخوه رفيع الدولة بن المعتصم

ذكره أبو عمرو عثمان بن على بن الإمام[1] فى كتابه الموسوم بـ « سِمْط الُجمان وسِقط الأذهان » ولم يسَمِّه وكنّاه أبا يحيى ، وكذلك كنّاه أبو عامر السالمى فى تاريخه ، وكنّاه صاحبُ المطمَح « أبا زكريا » . ولم يكنْ فى بنى صمادح أشعر منه ، إلا أن الخمول أخنى على محاسنه ، وبقى إلى آخر دولة اللمتونيين .

وذكر أبو على حسن بن عبد الله الأشيرى فى كتاب « نظْم اللآلى فى فتوح الأمر العالى »[2] من تأليفه ، أن رفيع الدولة هذا كان بتلمسان أثيراً عند واليها حينئذ ، أبى بكر بن مَزْدَلِى ، وذلك فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، والموحدون ،

---

(١) ترجم له ابن الأبار فى التكملة (رقم ١٨٣٣ ج ٢ ص ٦٦١) وقال إنه من أهل شلب ونزل إشبيلية ، وقال إنه «كان من علماء الأدباء بليغ القلم واللسان معروفاً بالإجادة والإحسان . كان كاتباً متقدماً وشاعراً مجيداً ، له تأليف فى شعراء عصره . توفى بعد الخمسين وخمسمائة » . ويغلب أن الكتاب الذى أشار إليه ابن الأبار هو« سقط الجمان وسقيط المرجان » الوارد ذكره فى نفح الطيب ، وقد ورد ذكر هذا الكتاب فى كشف الظنون بصورة أخرى هى « سمط الجمان وسفط المرجان » .

انظر : پونس بوجس ، رقم ١٨١ ص ٢٢٤ .

(٢) فى الأصل : الآمر العالى ، وهو خطأ . وأبو الحسن على بن عبد الله الأشيرى كاتب وشاعر من أهل تلمسان ، توفى سنة ٥٦٩/١٠٧٣ — ١٠٧٤ ، وكتابه هذا فى تاريخ الموحدين ، والأمر العالى إشارة إلى الدعوة الموحدية . وقد ذكر صاحب « الحلل الموشية » نفس الكتاب وأورد قطعة مما نقل ابن الأبار منه هنا (انظر ص ١٠٧ من الحلل) .

أعزهم الله ، إذ ذاك بالجبل المعروف بما بين الصخرتين[1] يحاصرونها . وحُكى أن ابن أخيه أبا يحيى بن عز الدولة كان معه ، وأنهما قالا شعراً فى ذلك شاركهما فيه ابن الأشيرى ، وسيأتى بعد — بحول الله — عند ذكر ابن عز الدولة فى المائة السادسة .

ومما أنشده السالمِى لرفيع الدولة هذا :

سطا ظبيُ الخميلةِ ، يالَقومى ! على أسَدِ العرينةِ واستطالا
فأوترَ قوسَ حاجبِه اختيالاً وفَوَّق من لواحظِه نبالا

وله :

وأهيف لا يلوى على عَتْب عاتبٍ ويقضى علينا بالظنون الكواذبِ
يحكِّم فينا أمرَه فنطيعهُ ونحسب منه الحكمَ ضربةَ لازبِ

وله :

مالى وللبدر لم يسمح بزورتهِ لعله ترك الإجمالَ أو هجرا

---

(١) الإشارة هنا إلى دور من أدوار الصراع بين تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المسلمين من المرابطين وعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين . وكان عبد المؤمن يجوس بقواته من هرغة وهنتاتة وغيرهما من قبائل الموحدين بنواحى شمال المغرب الأقصى يجمع طاعة القبائل وتاشفين يلاحقه ليفسد خططه . وفى أول ذلك العام (سنة ٥٣٩) استولى عبد المؤمن على جبال غمارة وضم هذه القبيلة إلى سلطانه ، ثم انتقل إلى الغرب وحاصر تلمسان ، وكان يحكمها أبو بكر ابنُ القائد المرابطى الكبير مزدلى بن سلنكان . ونزل جيش عبد المؤمن عند « الجبل المعروف بما بين الصخرتين » المذكورهنا ، وهو موضع بين قمتين عاليتين تعرفان بصخرتى طَرْنى . والبكرى يسمى الجبل نفسه جبل طرنى ، بفتح الطاء وكسرها . ومن هذا المرتفع استطاع عبد المؤمن أن يراقب جيش تاشفين . وقد استنجد تاشفين بحليفه ابن حماد الصنهاجى صاحب بجاية ، فأمده بجيش يقوده طاهر بن لَبّاب ، فانهزم أولا ، ثم انضم إلى عبد المؤمن والموحدين .

انظر : الحلل الموشية ص ١٠٧ وترجمته الإسبانية التى قام بها .

AMBROSIO HUICI Y MIRANDA : *Colleción de Crónicas Arabes de la Reconquista*. Tomo I, Al-Hulal al Mawšiyya (Tetuán, 1952) pp. 156 - 157.

إن كان ذاك لذنبٍ ما شعرتُ بهِ فأكرمُ الناسِ من يعفو إذا قدرا

[٨٣ – ب] / وله :

هٰـذى ديارُهُمُ التى ذَكَّرنَـنِي عهدَ الصبا وحديثَـــه المعسولا
ما كان أجملَ عهدَهم وفِعالهمْ لو كان فِعلُك يا زمانُ جميلا

وله :

حبيبٌ إذا ينأى عن العين شخصُهُ يكاد فؤادى أن يطير من البَيْنِ
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأنَّ على قلبى تمائمَ من عينى

وله :

ألا أيها الظبيُ الذى راق وجهُهُ ورقَّت حواشيه ، وناهيك من حُسنِ
يظن أناسٌ أننى بك مغرمٌ لعَمْرُ الهوى ، ما أخطأ القومُ فى الظنِّ

وله :

وعَلِقْتُه حلوَ الشمائلِ ماجناً خَنِثَ الكلام مرنَّحَ الأعطافِ
ما زلتُ أنصِفُهُ وأوجبُ حقَّهُ لكنه يأبى من الإنصافِ

وله ، وقد رُويَت لغيره :

سلِ الركبَ عن نجدٍ فإن تحيةً لساكنِ نجدٍ قد تحمَّلَها الركبُ
وإلا فما بالُ المطِيِّ على الوَجَا خفافاً ، وما للريح حَرْجَفُها[1] رطْبُ ؟

وله :

أبا العلاء كؤوسُ الراح مُترَعةٌ وللنَّـــدامَى سرور فى تعاطيها

---

(١) الحرجف الريح الباردة ، وريح حرجف : باردة . اللسان : ١٠/٣٩١ . والوجا : السرعة .

وللغصـــون تثنٍّ فوقَها طرَبًا وللحمائم سَجْـــعٌ فى أعاليها
فاشرب على النهر من صهباء صافيةٍ كأنما عُصرتْ من خـــد ساقيها

وله :

باكرْ إلى القَصْفِ أبا عامرٍ فإنما نُجْحُ الفتى فى البُـكَرْ
مِن قبلِ أن يمسحَ كفُّ الصَّبا دمعَ الغوادى من خدود الزَّهَرْ

هذا البيت مثل قول عبد الجبار بن حَمْدِيس الصقلى فى قصيدة يمدح بها الرشيدَ عبيدَ الله بن المعتمد محمد بن عباد أولها :

قُمْ هاتِها مِن كفِّ ذاتِ الوِشاحْ فقد نَعَى الليلَ بشيرُ الصباحْ
واحلُلْ عُرى نومِكَ عن مقلةٍ تَمْقُلُ أحداقًا مِراضًا صِحاحْ
/خَلِّ الكرى عنك ، وخذ قهوةً تُهدِى إلى الروح نسيمَ ارتياحْ [٨٤-١]
هـــذا صَبوحٌ وصَباحٌ فما عذرك فى ترك صَبُوح الصُّباحْ
بادرْ إلى اللذات واركبْ لها سوابقَ اللهوِ ذواتِ المِراحْ
من قبل أن ترشُفَ شمسُ الضحى ريقَ الغوادى من ثغور الأقاحْ

أردت هذا البيت .

ولرفيع الدولة يعتذر عن وسيم فى إنسان عينه ما يشينه :

قالُوا : حبيبُك فى إنسان مقلتهِ مثلُ الحَبابة إذ تطفو على الراحِ
فقلتُ : بينهما فى ذلكم شبهٌ كلتاهما تبعثان الشُّكْرَ للصاحى

وله :

لئن منعوا عنى زيارةَ طيفِهمْ ولم أُلْفِ فى تلك الديار مقيلا
فما منعوا ريحَ الصَّبا سَوْقَ عَرْفِهمْ وقد بَكرتْ تَندَى علىَّ بَليلا

ولا منعونى أن أُعُلَّ بذكرهمْ فؤاداً بما يجنى الصدودُ عليلا

وله يعاتب :

أفدى أبا عمرٍو وإن كان جانياً علىَّ ذنوباً لا تُعَدَّد بالعَتْبِ
فما كان ذاك الودُّ إلا كبارقٍ أضاء لعينى ثم أظلم عن قربِ

وله فى المدح :

تُرَمى إذا عَلِقتْ أسيافُه عَلَقا كأنه فى خدود البيض توريدُ
يهتز عِطفاك فى يوم الوغى طرباً كأن وقْعَ سيوفِ الهندِ تغريدُ
تُغْنَى بذكرك أزمانٌ وألسنةٌ كأن ذِكرَك إيمانٌ وتوحيدُ

وله :

إذا ما الأمرُ أخفق فيه سعىٌ وضاق مرامُه من كلِّ بابِ
فلا تقْنَطْ فإن الله يأتى بفتحٍ لم يكن لك فى حسابِ

١٢٨ – المتوكل بن المظفر بن المنصور ، أبو محمد

عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبى بن الأفطس[1] .

[٨٤ – ب] قال ابن حَيّان : كان عبد الله بن مسلمة رجلا من مكناسة ، / وكان سابور العامرى — أحد صبيان فائق الخادم فتى الحَكَم ، يعنى المستنصر بالله — قد انتزى ببطليوس وثغر الغرب ، فصحبه عبد الله وظاهرَه ، ورمى إليه بأموره ، فدبَّر أعمالَه ، وتزيَّد فى الغَلَبة عليه حتى صار كالمستبد به . فلما هلك سابور

(١) لم يرد ذكر لبنى الأفطس بين التجيبيين الأندلسيين الذين ذكرهم ابن حزم فى الجمهرة .

ورث سلطانَه بعدَه ، فاستولى على الأمور ، وتلقب بالمنصور . ثم أفضى الأمرُ لابنه محمد ، وتلقب بالمظفر(١) .

ولابن حيان أيضاً قول أبسط من هذا فى أوّلية بنى الأفطس ، يأتى ذكرُه إن شاء الله تعالى . قال : ومن النادر الغريب انتماؤه فى تُجِيب ؛ وبهذه النسبة مدحتْه الشعراء إلى آخر وقته ، منهم ابنُ شرف القيروانى حيث يقول :

يا ملكاً أمستْ تُجِيبٌ به تحسُد قحطانَ عليها نِزَارْ
لولاك لم تَشْرَقْ مَعَدٌّ بها جلّ أبو ذَرٍّ فجلّتْ غِفَارْ

وكانت وفاة المظفر سنة ستين وأربعمائة(٢) ، فوَلىَ بعده ابنُه يحيى بطليوسَ وتسمى بالمنصور . وكان أخوه عمر المتوكل بِيَابُرَة(٣) وما إليها من الثغر الغربى ،

---

(١) إليك تسلسل الحكام فى بطليوس وما تبعها من غرب الأندلس (يابرة ، الأشبونة ، شنترين ، قلمرية وما إليها) :

أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة (المنصور) : تولى ٤١٣/١٠٢٢ وتوفى فى ١٧ ربيع الثانى ٤٣٧/٣٠ ديسمبر ١٠٤٥ .

أبو محمد بن عبد الله .... بن مسلمة (المظفر) : تولى ٤٣٧/١٠٤٥ وحكم حتى ٤٥٦/ ١٠٦٣ .

يحيى المنصور : تولى ٤٥٦/١٠٦٣ وتوفى ٤٦٠/١٠٦٧ .

عمر المتوكل أخو يحيى ، أعطاه أبوه يابرة : تولى ٤٦٠/١٠٦٧ ونازع أخاه يحيى وحاربه حتى قتله المرابطون سنة ٤٨٧/١٠٩٤ . توفى هذا فأصبح عمر المتوكل أميراً على إمارة بطليوس كلها .

(٢) هذا هو القول السائد ، ولكن پريتو بيبس عثر على عملة باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور مؤرخة فى سنة ٤٥٦ ، ولهذا عدّلنا سنة وفاته فى الجدول فى التعليق السابق .

Cf : PRIETO VIVES, *op. cit.* p. 66.

(٣) يابرة Évora بلدة فى جنوب البرتغال الحالية ، وهى عاصمة مديرية الميتيجو Almetejo على ١١٧ كيلو متراً بالسكة الحديدية من الأشبونة .

انظر : الروض المعطار ، ص ١٩٧ من النص العربى وص ٢٣٩ من الترجمة الفرنسية ، تعليق رقم ١ .

ثم استوثق له[١] الأمرُ بموت أخيه يحيى — بعد منافسة طويلة بينهما كادت تفسد حالهما — واحتل حاضرةَ بطليوس ، وجعل ابنَه العباس عمر[٢] بيابرة وصار إليه أمرُ طليطلة وقتاً ، وجلّ شأنُه .

ولما عظم عيث الطاغية أذفونش بن فرذلند ، وتطاول إلى الثغور ، ولم يقنع بضرائب المال ، انتدَب للتطوُّف على أولئك الرؤساء القاضى أبو الوليد الباجى ، يندبهم إلى لم الشعث ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحداً واحداً ، وكلهم يصغى إلى وعظه[٣] .

وازدلف خلال ذلك إلى سبتة أميرُ المغرب حينئذ — أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين اللمتونى — حِسبةً ورغبةً فى الجهاد ، وقد دانت له بلادُ العدوة ، وسأل من سَقُّوت بن محمد صاحبِ سبتة أن يُبيح له فُرَض[٤] الإجازة إلى الأندلس ، فأبى وتمنع من ذلك ، فأفتى الفقهاء بقتاله لصده عن سبيل الله ، فقُتل هو وابنهُ فى خبر طويل . وفتح الله على ابن تاشفين سبتة ، وأمكنه الحصول على مراده بذلك[٥] .

وعلم المعتمدُ محمد بن عباد تصميمه على نيته ، فخاطب جاريَه : صاحبَ

---

(١) أى لعمر المتوكل . (٢) يبدو أن لفظ عمر هنا زائد .

(٣) اجتهد أبو الوليد الباجى فى دعوة ملوك الطوائف إلى الاتحاد وترك التشاحن للوقوف أمام العدو المشترك ، فلم يصغ إليه واحد منهم ، بل كانوا « يستبردون نزعته » كما تقول النصوص .

(٤) جمع فرضة ، والمراد طنجة وسبتة .

(٥) سبق أن ذكرنا خبر سقوت ، ويكتبه ابن خلدون بالكاف . ونضيف إلى ما أوردناه عن ابن خلدون ما رواه ابن بسام من كلام ابن حيان فى الذخيرة (القسم الثانى ، مخطوطة بغداد ص ٤٠٦ — ٤١١) وهو أوسع ما لدينا عنه وعن ملكه وملك أبنائه فى طنجة وسبتة .

وانظر كذلك المعلومات المستقاة من النُّمَيّات التى أوردها پريتو بيبس فى كتابه الآنف الذكر :

PRIETO VIVES, *op. cit.*, p. 117 - 118.

بطليوس وصاحبَ / غرناطة ، فى تحريك قاضيهما إلى حضرته للاجتماع بقاضى [٨٥-١]
الجماعة بقرطبة . فوصل من بطليوس قاضيها أبو إسحاق بن مُقَانا ، ومن غرناطة
قاضيها القُلَيْعِي ، واجتمعا فى إشبيلية بالقاضى أبى بكر بن أدهم ، وانضاف إليهم
الوزير أبو بكر محمد بن أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون[1] . وتوجهوا
جميعاً إلى ابن تاشفين ، على شروط لا تُتعدى إلى غيرها . ووصلوا إلى الجزيرة
الخضراء — وعليها يزيدُ بن المعتمد ، الملقب بالراضى — ثم أجازوا البحرَ منها ،
واجتمعوا بابن تاشفين مرةً بعد مرة . وتفاوضوا فى مكانٍ تنزله العساكر ، فأشار
ابن زيدون بجبل طارق ، وسُئل الجزيرةَ الخضراء فلم يُوجِد سبيلا إليها ، فما قوبل
بشكر ولا لوم ، وأُصدِر هو وأصحابه دون علم بالمراد . ومشاورةُ الفقهاء من ابن
تاشفين تستتب ، وفتواهم لا تغب ، فلم يُرَعْ إلا الشروعُ فى الإجازة ،
ولم يُشْعَرْ إلا والجزيرةُ الخضراء فى مثل حلقة الخاتم من الجيوش الكثيفة[2] .

---

(١) المعلومات التى يقدمها ابن الأبار هنا تلقى ضوءاً على الظروف التى عبر فيها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . ومن الثابت أن عمر المتوكل بن الأفطس كان أول من استغاث بيوسف بن تاشفين نظراً لأن بلاده كانت تتعرض للخطر المباشر ، إذ أن ألفونسو السادس استولى على قلمرية وشِنْتَرة وغيرها من بلاده وأصبح من الواضح أن هدفه التالى بطليوس نفسها ، فأرسل كتاباً كتبه ابن أيمن عن لسانه ، ثم أرسل كتاباً ثانيا ، وبدأ يوسف بن تاشفين يستعد للمسير . ويبدو كذلك أن فقهاء كثيرين من الأندلس وفدوا عليه يستصرخونه . وعندما رأى ابن عباد ذلك خطا الخطوة التى يذكرها ابن الأبار بعد أن كان يوسف بن تاشفين قد قرر العبور إلى الأندلس . وقد تطورت الظروف بعد ذلك تطوراً بعيداً كما ترى من التفاصيل التى يوردها صاحب الحلل الموشية وابن عذارى وابن بسام وابن الخطيب والأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته وغيرهم من مؤرخينا ، وكذلك ما يرد فى المراجع النصرانية من تفاصيل . والموضوع كله فى حاجة إلى دراسة جديدة .

(٢) كان هذا العسكر الأول بقيادة القائد اللمتونى داوود بن عائشة . وأحسن تفصيل لذلك ذكره الأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته المعروفة بالتبيان (تحقيق ليڤى بروڤنسال ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وفُتحت لهم أبوابُها ، وأُخرجت إليهم مرافقُها ؛ فطيَّر الراضى حَماماً إلى أبيه بذلك ، فأذنه بتركها والارتحال عنها إلى رُنْدَة ، ففعل .

واطردت الإجازة ، ثم تحركت العساكر إلى إشبيلية ، ورَدِفَهم ابنُ تاشفين ونزل بظاهرها . وبلغه على أثر ذلك موتُ ابنِه أبى بكر[1] ، فخيَّره حتى لَهَمَّ بالانصراف عن وجهه ، ثم آثر الجهاد ، وأنفذ مَزْدَلِى[2] إلى مراكش .

وبعد قَراره بظاهر إشبيلية لحق صاحب غرناطة فى نحو ثلاثمائة فارس ، وأخوه تميم من مالقة فى نحو مائتين ، فنزلا على ضفة النهر الأعظم . ثم لحق لصاحب المرية عددٌ من الخيل صُحبة وَلَدِه ، وتقدم ابنُ تاشفين مستعجلا فى حركته إلى بطليوس ، وابن عباد وراءه . فخرج إليهم المتوكل ، وأوسعهم بِرًّا وتضييفاً ، وتلَومَت العساكر بظاهرها فى المضارب أياماً ، إلى أن قصدهم أذ فونش وتلاقوا

---

(١) أبو بكر سير بن بوسف بن تاشفين ، يبدو أنه كان أكبر أبناء يوسف بن تاشفين ، وكان قد رشحه لولاية العهد ، ولكنه مرض قبل رحيل أبيه يوسف إلى الأندلس للمرة الأولى ، فتركه مريضاً فى سبتة ، وقبيل معركة الزلاقة بلغه خبر موته ؛ فرشح بعده لولاية العهد ابنه الثانى على بن يوسف . انظر :

FRANCISCO CODERA Y ZAIDIN, *La Familia real de los Benitexufin en Estudios criticos de Historia Arabe Espanola*, segunda serie, Madrid 1917 p. 75 - 166.

(٢) أبو عبد الله مزدلى بن سلنكان قائد مرابطى كبير من قبيلة لمتونة ، اشترك فى جميع أعمال يوسف بن تاشفين العسكرية فى الأندلس ، وقاد الجيوش أيضاً فى أيام على بن تاشفين . توفى فى معركة عنيفة سنة ٥٠٨/١١١٥ مع جيوش ملكة قشتالة بعد الحملة التى وجهها إلى طليطلة ومنطقتها فى سنة ٥٠٧ هـ . ..

انظر بحثنا عن سرقسطة والثغر الأعلى فى عهد المرابطين . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ١١٣ — ١١٤ وكذلك كتاب « نظم الجمان » لابن القطان بتحقيق الدكتور محمود مكى ، ط.. تطوان سنة ١٩٦٣ ، ص ١٩ ، حاشية رقم ١ .

بالزَّلاّقة[١] ، على مقربة من بطَلْيَوْس ، يومَ الجمعة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، فكان الظهور للمسلمين ؛ وفى ذلك يقول ابن جمهور[٢] أحد أدباء إشبيلية :

لم تعلمِ العجم إذ جاءت مصممةً يومَ العروبة أن اليوم للعربِ

ونكل المتوكل يومئذ وغيره من الرؤساء ، وكان فيه للمعتمد ظهورٌ مشهور .

ثم صدر ابن تاشفين / ظافراً ، وأجاز البحر إلى العدوة صادراً ، وتحرك إلى [٨٥ - پ] الأندلس بعدُ مجاهداً لأعدائها ، وناظراً فى خلع رؤسائها ، والمعتمدُ إذ ذاك أعظمُهم شوكةً وأشهرهم نجدةً ؛ فلماقُبض عليه لم تقم لسائرهم قائمة ، ومُزِّقوا كل ممزَّق . وفى ذلك يقول ذو الوزارتين أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن أحمد ، المعروف بابن الحاج اللُّورقى[٣] :

---

(١) الزلاقة موضع صغير يسمى اليوم **Sagrajas** على أحد نهيرات وادى آنه المسمى نهر جيريرو **Guerrero** على نحو ١٢ كيلومترا شمالى بطليوس **Badajoz** ، وكان أول من حدد مكان الموقعة بالدقة زايبولد :

Cf : SEYBOLD, *Die geographische Lage von Zalláka und Alárcos.* **Revue Hispanique. Tome XV, 1906, p. 647,**

ثم أكد تحقيق زايبولد رامون منندذ پيدال :

R. MENÉNDEZ PIDAL, *La Espana del Cid.* **I, 539.**

وانظر : الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، رقم ٨٤ ص ٨٣ وما يليها وص ١٠٣ من الترجمة الفرنسية تعليق رقم ١ .

(٢) عبد الله بن أحمد بن جمهور بن سعيد بن يحيى بن جمهور ، يكنى أبا محمد : أديب وفقيه من أئمة أهل الفقه فى إشبيلية خلال القرن السادس الهجرى ، فقد ولد سنة ٥١٦ وتوفى سنة ٥٩٦ وقد ولى الصلاة بجامع ابن عَبَّاس فى إشبيلية وكان إلى ذلك بصيراً باللغة متحققاً بعقد الشروط .

انظر التكملة لابن الأبار ، رقم ١٤١٧ ص ٤٩٨ — ٤٩٩ .

(٣) « جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى المعروف بابن الحاج ، ذو الوزارتين : من أهل لورقة ، عداده فى رؤساء الأدباء . كان حياً سنة ٤٩٤ . وكان شاعراً وناثراً شجاعاً » . المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى لابن الأبار ، رقم ٥٩ ص ٦٩ .

وانظر عنه : المغرب لابن سعيد : ٢/٢٧٧ وتعليق الدكتور شوقى ضيف .

كم بالمغارب من أشلاءِ مختَرَمٍ وعاثرِ الجَدِّ مصبورٌ على الهونِ
أبناء معنٍ ، وعبادٍ ، ومسلمةٍ والحميرِّيْن : باديسٍ وذى النونِ
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية وأصبحوا بين مقبورٍ ومسجونِ

وكان سير بن أبى بكر — أحد رؤساء اللمتونيين — هو الذى حاصر إشبيليةَ حتى استولى عليها ، وقبض على المعتمد وتقلد إمارتَها بعده دهراً ، ثم تولى محاصرةَ بَطَلْيَوْس إلى أن دُخلت عنوةً يومَ السبت لثلاث بقين من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة — وقيل : يومَ السبت السابع من صفر ، وقيل : فى شهر ربيع الأول منها — وقُبض على المتوكل فقُيد ، وأهين بالضرب فى استخراج ما عنده ، ثم أزعج عنها ، وقُتل هو وابناه الفضل والعباس على مقربة منها ذبحاً ، وكان ذلك مما نُعى على ابن تاشفين . وقيل إنه رغب فى تقديم ولديه هذين بين يديه ليحتسبهما ، ثم قام بعد قتلهما ليصلى ، فبادره الموكلون به وطعنوه برماحهم حتى فاضت نفسه وغربت شمسه . وقد رثاهم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[1] بقصيدة فريدة ، أنشدَناها شيخُنا أبو الربيع بن سالم الكلاعى[2]

---

(١) لا نحتاج هنا إلى التعريف بأبى محمد عبد المجيد بن عبدون ورائيته المشهورة فى رثاء بنى الأفطس ، ولكننا نشير إلى الفصل الطويل الذى اختصه به ابن بسام فى الذخيرة (القسم الثانى ، مخطوطة بغداد) ص ٤١٤ وما بعدها . وفى هذا الفصل من شعر ابن عبدون ما يفوق رائيته جمالا وشاعرية .

(٢) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام الحميرى والكلاعى البلنسى الأصل ، يكنى أبا الربيع ويعرف بابن سالم : أكبر أهل الفقه والرواية فى شرق الأندلس خلال القرن السادس الهجرى ، وهو أستاذ ابن الأبار وقد ترجم له ترجمة واسعة فى التكملة . والكلاعى هو الذى استحث ابن الأبار على تأليف معجمه فى تلاميذ شيخهم أبى على الصدفى ، وقد اضطر إلى مغادرة بلده بلنسية عندما تهددتها الأخطار المتلاحقة سنة ٥٨٧ ، وقال فى ذلك قصيدة طويلة لا تدل على شاعرية جديرة بالذكر . وكتبه ومؤلفاته فى الفقه والحديث والتاريخ كثيرة جداً أحصاها من ترجموا له ، وتوفى مستشهداً فى معركة دارت بين الموحدين والنصارى عند بلدة أنِيشَه أو أنيجة على سبعة أميال من بلنسية (يقول ابن الأبار إنها على ثلاثة =

بحاضرة بلنسية مراراً . قال : أنشدَناها القاضى أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون[١] فى مسجده بإشبيلية ، قال : أنشدَناها الوزيرُ الكاتب أبو محمد بن عبدون ، وأولها :

الدهر يفجع بَعد العين بالأثرِ فما البكاء على الأشباح والصور

يقول فى آخرها :

ويحَ السَّماح وويحَ الباس لو سَلِما والمجد والدين والدنيا على عُمرِ[٢]

/ سَقَتْ ثرى الفضلِ والعباسِ هاميةٌ تُعزى إليهم سَماحاً لا إلى المطرِ [٨٦-١]

وأنشدنى أبو الربيع شيخُنا — وحدثنى لفظاً — قال : حدثنى الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد شيخُنا — يعنى ابن زرقون — عن الوزير أبى بكر ابن القبطورنة[٣] ، أنه حدثه أنه دخل على نجم الدولة سعد بن المتوكل — وهو

= فراسخ من بلنسية) فى ١٠ ذى الحجة ٦٣٤ ، وقد أبدى شجاعة عظيمة فى هذه المعركة .

وقد نشر من كتبه : الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا — الجزء الأول بعناية هنرى ماسيه فى الجزائر سنة ١٩٣١ . وقد ساق الناشر قبل النص نصوص تراجم الكلاعى من الإحاطة لابن الخطيب ومركز الإحاطة لأبى البقاء محمد بن إبراهيم بن محمد البَشْتَكى المصرى (مخطوطة باريس) وابن الأبار فى التكملة رقم ١٩٩١ ص٧٠٨ والزيادات فى طبعة جنذالذ پالنثيا وألاركون ص ٥٤٠ ، وشمس الدين الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » (طبعة حيدر أباد) رقم ١٤ ج ٤ ص ٢٠٩ ، والسيوطى فى « طبقات الحفاظ » (جوتنجن ١٨٣٣) رقم ١٥ ج ٢ ص ٥٦ ، وابن فرحون فى « الديباج المذهب » (فاس ١٣١٦) ص ١٢٥ ، والمقرى فى نفح « الطيب » (أوروبا) : ٢/٥٠٢ و٦٥٥ و٧٦٨ ، وپونس بويجس ، رقم ٢٣٩ ، ص ٢٨٣ .

(١) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصارى ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن زرقون : من أهل إشبيلية وسكن بعض سلفه بطليوس ، من كبار فقهاء القرن السادس الهجرى ومن أساتذة ابن الأبار ، وقد ترجم له ترجمة واسعة فى التكملة (رقم ٨٢٤ ج ١ ، ص٢٥٦ — ٢٥٨) ، وذكر شيوخه ورواياته العالية وقال إنه ولى قضاء شلب وقضاء سبتة فحُمدت سيرته وعرفت نزاهته ، وكان إلى ذلك يقرض الشعر ويجيد النثر ، حسن الشارة والهيبة صبوراً على الجلوس للإسماع مع الكِبْرة . ومؤلفاته فى الفقه كثيرة ، ذكر بعضها ابن الأبار . ولد بشريتس ١٥ ربيع الأول ٥٠٢ (وفى رواية أخرى سنة ٥٠١ بدون تحديد الشهر) وتوفى فى إشبيلية منتصف رجب ٥٨٦ .

(٢) المراد عمر المتوكل بن الأفطس .

(٣) أبو بكر عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسى من أعلام كتاب الأندلس =

محبوس فى سجن المُلَثَّمة ، بعد غَلَبتهم على أبيه المتوكل وقتْلهم إياه وابنيه العباسَ والفضلَ — فلما رآه أجهش باكياً ثم أنشده :

بأبيك ، قُدِّس روحُه وضريحُه ياسعدُ ساعدنى ، ولستَ بخيلاَ
واسفَحْ علىَّ دموعَ عينك ساعةً وامتُنْ بها حُمراً تفيض هُمولا
إن يصبح الفضلُ القتيلَ فإننى أمسيتُ من كمدٍ عليه قتيلا
كم قد وقيتكم الحِمامَ بمهجتى وحَميتُ شَوْلَ[1] علائكم معقولا
قدمتُ نفسى للمنايا دونَكم بدَلاً فلم تُرِدِ المَنونُ بديلا

ومن شعر المتوكل ، وكتب به إلى أخيه يحيى المنصور من يابُرة مع نثر ، وقد بلغه أنه قُدح فيه بمجلسه :

فما بالهَم ، لا أنعم الله بالهَم ، ينوطون بى ذَمًّا ، وقد علموا فضلى
يسيئون فىَّ القولَ جهلاً وضَلَّةً وإنى لأرجو أن يسوءهم فعلى

= خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى والنصف الأول من السادس ، فقد توفى بعد سنة ٥٢٠/١١٢٦ . تولى الكتابة لعمر المتوكل بن الأفطس ثم للمرابطين وتمتع بلقب الوزير الكاتب مثل أخويه أبى محمد طلحة وأبى الحسن محمد . وقد كتب الدكتور محمود على مكى فقرة طويلة عنه فى مقاله الذى أشرنا إليه : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١١٧ وهامش ١ و٢ وذكر مراجع ترجمة حياته : ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى من مخطوطة بغداد ، ص ٤٦٨ — ٤٨٠ . ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٧٤٣ . القلائد لابن خاقان ، ص ١٤٨ — ١٥٥ . المغرب لابن سعيد : ١/٣٦٧ — ٣٦٨ . المطرب لابن دحية : ص ١٨٦ — ١٨٧ . الإحاطة لابن الخطيب ، بتحقيق محمد عبد الله عنان : ١/٥٢٨ — ٥٣١ . المقرى : نفح الطيب (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٤/٢٥٠ و٦/٤٨ . وذكر كذلك تفسيرى سيمونيت (*Glosario,97*) ودوزى : *Supplément, II, 302* لمعنى لفظ القبطورنة واشتقاقه من كلمة **caput** (أى رأس ، وفى الإسبانية القديمة **cap**.) و**torno** أى مستدير أو دائر ، فمعناه على هذا : ذو الرأس المستدير .

(١) الشول هنا يراد به البقية ، والمعنى المراد أننى حميت مابقى من علائكم وأنا فى حالة عجز ، ويمكن أن يكون المراد أيضاً : إننى حميت طَرَف عزكم مصونا (انظر : اللسان ١٣/٢٩٨ و٤٨٦) .

طَغَامٌ لئامٌ ، أمْ كرامٌ برغْمهمْ سواسيةٌ ؛ ما أشبهَ الحولَ بالقُبْلِ[1]

لئن كان حقا ما أذاعوا فلا خَطَتْ إلى غايةِ العلياءِ مِن بعدِها رِجْلى

ولم أَلقَ أضيافى بوجهِ طلاقةٍ ولم أمنَحِ العافين فى زمن المحْل

وكيف وراحى درسُ كلِّ غريبةٍ وورْدُ التُّقى شَمِّى ، وحربُ العِدا نُقْلِى

ولى خلُقٌ فى الشُّحْطِ كالشَّرْيِ طعمُهُ وعند الرضا أحلى جنًى من جَنَى النحل

وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما أعيى الصناديدَ من قَبْلى

/ وما أنا إلا البدر تنبح نورَهُ كلابُ عِدًا تأوى اضطراراً إلى ظِلِّى [٨٦ – ب]

فيا أيها الساقى أخاه على النوى كؤوس القِلى ، مهلاً رُويدَك بالعَلِّ

لتطفئَ ناراً أُضرمتْ فى صدورنا فمِثلىَ لا يُقلَى ، ومثلُك لا يَقْلِى

ألستُ الذى أصفاك قِدْماً ودادَهُ وألقى إليك الأمرَ فى الكُثْر والقُلِّ ؟

وصيَّرك الذُّخْرَ الغبيطَ لدهرِهِ ومَن لى ذخراً غيرك اليومَ ؟ لا ، مَن لى ؟

وقد كنتَ تُشْكِينى إذا جئتُ شاكياً فقل لى : لمن أشكو صنيعَك بى ؟ قُل لى !

فبادرْ إلى الأولى ، وإلا فإننى سأشكوك يومَ الحشر للمَلِكِ العدلِ

وله وقد ارتقب قدوم أخيه عليه من شَنْتَرين[2] يومَ الجمعة فوفد عليه يوم السبت :

---

(١) القَبَل نوع من الحَوَل . قال أبو زيد : الأقبل إذا أقبلت حدقتاه على أنفه ، والأحول الذى حولت عيناه جميعاً . وقال الليث : القَبَل فى العين إقبال السواد على المحجر ، ويقال : بل إذا أقبل سواده على الأنف ، فهو أقبل . وحُولٌ وقُبْلٌ : جمع أحول وأقبل . اللسان : ١٤/٥٨–٥٩ .

(٢) شنترين Santarem فى البرتغال الحالية ، تقع على ٦٧ كيلومتراً شمالى الأشبونة . انظر : الروض المعطار ، رقم ١٠٤ ص ١١٤ و ص ١٣٩ من الترجمة الفرنسية ، وتعليق رقم ١ ، وانظر المادة عنها فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ص ١٥٩ .

تخيَّرتِ اليهودُ السبتَ عيداً وقلنا : فى العَرُوبَةِ[1] يومُ عيدِ
فلما أن طَلعتَ السبتَ فينا أطلتَ[2] لسانَ مُحتَجٍّ اليهودِ

ومن مليح ما فى هذا المعنى :

وحبَّبَ يومَ السبتِ عندى أننى يفادمنى فيه الذى أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياء أنى مسلمٌ حنيف ، ولـكنْ خيرأيامىَ السبتُ

وكتب أبو محمد بن عبدون إلى المتوكل ، وقد انسكب المطر إثر قحط خيف قبل ذلك ، واتفق أن وافَى بَطَلْيَوْس حينئذ مغنٍّ محسِنٌ يعرف بأبى يوسف :

ألمَّ أبو يوسفٍ والمطـــرْ فياليت شـــعرى ما يُنتظَرْ ؟
ولست بآبٍ وأنت الشهيدُ حضورَ نَدِيِّك فى من حضرْ
ولا مَطلعى وسطَ تلك السما ء ، بين النجوم وبين القمرْ
وركضىَ فيها جيادَ المُدا م محثوثةً بسياطِ الوَتَرْ

[٨٧ – ١] /فبعث إليه المتوكل مركوباً وكتب معه :

بعثتُ إليك جَناحاً فَطِرْ على خفيةٍ من عيون البشرْ
على ذُلُلٍ من نِتاج البُروق وفى ظُلَلٍ من نسيج الشجرْ
فحسبىَ عمَّن نأى مَن دنا فمن غاب كان فِدا مَن حضرْ

وتوجه إلى شنترين ومعه أبو محمد بن عبدون ، فتلقاه ابن مُقَانا قاضى

---

(١) العروبة اسم يوم الجمعة فى الجاهلية .
(٢) فى الأصل :

فلما أن طلعتِ الشمس فينا أطلتِ لسان محتج اليهـــود

وهو خطأ ، فقومته .

حضرته ، وأنزله وقدم طعاماً ، ثم قعد بباب المجلس ملازماً له إلى الليل ، والمتوكل محتشم منه . فخرج أبو محمد — لمّا أبْرَمَه — إلى بعض أصحابه ، وقد أعد له مجلس أنسٍ ، فقعد يشرب معه ؛ وقد وجّه من يرقب انفصالَ ابن مقانا ، فلما عرّفه بذلك بعث إلى المتوكل بقطيع خمر وطبق ورد وكتب معهما :

إليْـكَها فاجَتَلِها منـــيرةً وقد خبا حتى الشهابُ الثاقبُ
واقفةً بالباب لم تأذن لها إلا وقد كاد ينام الحاجبُ
فبعضها من المخاف جامدٌ وبعضها من الحياء ذائبُ

فقبلها وكتب إليه :

قد وصلتْ تلك التي زَفَفْتَها بِكرًا ، وقد شابتْ لها ذوائبُ
فهُبَّ حتى نستردَّ ذاهباً مِن أُنسنا ، إن استُرِدَّ الذاهبُ

وقرأتُ فى « كتاب الذخيرة » لابن بسام : أخبرنى الوزير أبو طالب بن غانم قال : لا أنسى والله خط المتوكل بهذين البيتين فى ورقة بَقْلة الكرنب ، وقد كتب إلىّ بهما من بعض البساتين :

انهض أبا طالب إلينـــا واسقط سقوط الندى علينا
فنحن عِنْدٌ بغـــير وُسْطَى ما لم تكن حاضراً لدينا

وحكى غيره أنه كتبهما بطرف غصن ، وروى البيت الأول :

أقبل أبا طالب إلينـــا وقَعْ وقوعَ الندى علينا

[٨٧-ب] ١٢٩ — / عبد الملك بن هُذَيل بن رزين ـ ذو الرياستين ، حسام الدولة أبو مروان

وَلِيَ بعدَ أبيه الحاجبِ عزّ الدولة أبي محمد هُذَيْل بن عبد الملك بن خلف ابن لبّ بن رزين شنتمريةَ الشرق موضع إمارة سلفه ، وكان ظهورهم فى سنة إحدى وأربعمائة ، أولَ افتراق الجماعة وانبعاث الفتنة ، ويعرفون ببنى الأصلع ، وانتماؤهم فى هوّارة .

وقد ذكر ابنُ حيّان طرفاً من خبرهم فقال : وأبو محمد هذيل بن خلف ابن لبّ بن رَزِين — المعروف بابن الأصلع — صاحب السَّهْلة ، موسطة ما بين الثغر الأعلى والأدنى لقرطبة . [كان من أكابر برابر الثغر][1] ، ورث ذلك عن سلفه ، ثم سَما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله [والإمارة لجماعته][2] ، والتقبُّل لجاره إسماعيل بن ذى النون فى الشرود عن سلطان قرطبة ، فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتزى فى الأطراف[3] ، وتمرس به الحاجبُ منذر بن يحيى ، مُدْرِجاً له فى طىٍّ من استتبعه[4] واشتمل عليه من أصاغر أمراء

(١ و ٢) أسقط ابن الأبار أو ناسخه هذه العبارة من كلام ابن حيان ، على أهميتها هنا . راجع نص ابن حيان فى الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث (مخطوطة جايانجوس المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، ورقة ٢٠ ا) .

(٣) ورد هنا عن ابن بسام (نفس المخطوطة والصفحة) : « غرباً وشرقاً وقبلةً وجوفاً ، إلا أن هذيل هذا مع تعززه على المخلوع هشام لم يخرج عن جماعته ، ولا وافق الحاجب منذراً ولا جماعته المتمالئين على هشام فى شىء من شأن سليمان (المستعين) عدوّه ، إلى أن ظُفِر بهشام ، فسلك هذيل مسلكهم ، فرضى منه سليمان بذلك ، وعقد له على ما فى يده لعجزه عنه ، فزاده هذا بعاداً منه » ، ثم يستمر الكلام كما عند ابن الأبار .

(٤) الأصل : اتبعه ، والتصويب من الذخيرة .

الثغر ، فأبت نفسه البُخوع له والانضمام إليه ، فردّ أمرَه وحدَّه ، وصار نِدَّه ، وأجاره مِنْعَةَ معقله[١] .

قال : وليس فى ذلك الثغر أخصب بقعة من سَهْلته[٢] — المنسوبة إلى بنى رزين — فى اتصال عمارتها ، فكثر ماله . وكان مع ذلك شابا جميل الوجه ، صار إليه أمر والده منبعثَ الفتنة وهو فتى مع العشرين من سِنه . وأطال ابنُ حيان فى وصفه بالقسوة والفظاظة ورفعة الهمة ، فاقتصرتُ من ذلك على ما أثبتُّ .

وهذيل هذا هو عم هذيل والد أبى مروان المذكور . وبعدَه وَلىَ أخوه عبدُ الملك بن خلف أبو مروان — ويعرف بعبود — ثم وَلىَ ابنُه هذيل ، ثم ابنُه عبد الملك ، ثم ابنُه يحيى وعليه انقرض مُلكهم .

---

(١) ترك ابن الأبار هنا قطعة كبيرة من كلام ابن حيان لها أهمية خاصة لذلك التاريخ . وقد أوردها ابن عذارى فى الجزء الثالث من البيان ، ص ١٨٢ ، فأغنى ذلك عن تكرارها هنا .

(٢) شنتمرية الغرب أو سهلة بنى رزين Santa María de Albarracín توصف فى الجغرافية العربية للأندلس على أنها كانت من كبار معاقل كورة شنتبرية Santaver ، وهى كورة كانت تمتد من حدود كورة سرقسطة الجنوبية الغربية إلى كورتى وادى الحجارة ، وطليطلة ، وكانت تعتبر منطقة عسكرية من مناطق الثغر الأدنى أوالأوسط وقاعدته العسكرية فى مدينة سالم ، وكانت عاصمة الكورة أيام الإمارة والخلافة بلدة شَنْتَبَرِيَّة Santaver ثم انتقلت إلى أُقْلِيش Uclés ، وبعد سقوط هذه فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون أصبحت عاصمتها شنتمرية الشرق التى عرفت من ذلك الحين باسم شنتمرية بنى رزين أوسهلة بنى رزين ، وهى تقع اليوم فى شرق مديرية تيروال Teruel على نهر جايو El Gallo أحد نهيرات نهرتاجه وهى غير بعيدة عن مجرى النهر الأبيض Guadalviar أحد نهيرات نهر توريا الذى يسمى بالنهر الأحمر . وقد عرفت المنطقة بالسهلة نظراً لكثرة أنهارها ووفرة مياهها ، والبلد نفسه واقع وسط تلال ومرتفعات كانت عامرة بالحصون التى بناها الخلفاء لتحصين منطقة الثغر الأدنى ، وهذا ما ساعد هذيل بن رزين ثم ابنه على الاستبداد فى هذه الناحية .

Cf : JACINTO BOSCH VILA. *Historia de Albarracín y su Sierra*. Tomo II, *Albarracin Musulmán* (Teruel, 1959, pp. 33-80.

وكان أبو مروان — مع شرفه وأدبه — متعسفاً على الشعراء ، ومتعسراً بمطلوبهم من ميسور العطاء ، وضعيف منظومه أكثر من قويه . وكانت وفاته سنة ست وتسعين وأربعمائة . وقد صار إليه من أعمال بلنسية بعضُها ، ووَلِيَ بعدَه ابنهُ فأقام يسيراً ، وتغلّب على ما بيده ابنُ تاشفين[1] بعد أن أقام هو وأبوه دعوتَه فى أعمالهما . ومن شعره يفخر :

أنا مَلْك تجمّعتْ فىّ خمسٌ كلُّها للأنام مُحْيٍ مُميتُ
[٨٨-١] /هى : ذهن ، وحكمة ، ومضاء ، وكلام فى وقته ، وسكوتُ

وله مجاوباً :

رغِبتم وأرغبناكمُ وهِيَ الخمرُ فمن لم يكن سكرانَ فليكنِ السُّكرُ
إليكم فإنى فى الوغى والندى فتًى هوالبحر إن أعطى ، وإن صال فالدهرُ

---

(١) ناقش بوسك بيلا فى كتابه المذكور فى الهامش السابق سلسلة الأمراء من بيت بنى رزين التى يذكرها ابن الأبار ، وهو يذكر منهم خمسة هم :

هذيل أبو محمد بن خلف بن لب بن رزين ، وهو أول من استبد بالسهلة .

أبو مروان بن هذيل (وهذيل هذا هو ابن أخى هذيل المذكور أولا) .

أبو مروان عبد الملك بن خلف أخى هذيل الأول ، ويعرف بعبود .

هذيل بن عبد الملك بن خلف .

يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن خلف .

ويرى بوسك بيلا أن ابن الأبار خلط بين الأسماء ، وأن الحقيقة أنه لم يملك من بنى هذيل إلا ثلاثة هم :

هذيل بن محمد بن خلف بن لب بن رزين .

وأبو مروان عبد الملك بن هذيل الذى يتحدث عنه ابن الأبار هنا ، ثم يحيى بن عبد الملك هذا.

وقد استند على ما ورد فى الذيل الذى نشره ليڤى پروڤنسال بعد نص البيان المغرب لابن عذارى ، ج ٣ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، وتحقيقات دوزى وإيزيدرو دى لاس كاخيجاس Isidro de las Cagigas وغرسية بالديابليانو L. García Valdeavellano وپرييتو بيبس وغيرهم .

Cf : J. BOSCH - VILA, *op. cit.* pp. 113 - 117.

وله :

شأوتُ أهلَ رَزِينٍ غيرَ محتفلٍ ... وهم ، على ما علمتم ، أفضلُ الأممِ
قومٌ إذا حوربوا أفنَوْا ، وإن سئلوا ... أغنَوْا ، وإن سوبقوا حازوا مدى الكرم
جادوا فما يَتعاطى جُودَ أنملهم ... مدُّ البحار ولا هَطّالةُ الدِّيَم
وما ارتقيتُ إلى العليا بلا سببٍ ... هيهات ! هل أحدٌ يسعى بلا قدمِ ؟
فمَن يَرُمْ جاهداً إدراك منزلتى ... فليَحْكِنى فى الندى والسيف والقلمِ

وله :

مَن كثَّر الجَهْدَ[1] يرى سَعْدَه ... يصعد حتى ينتهى حدَّه
ومَن أذلَّ المالَ عزَّت به ... أيامُه وانصرفتْ جُنْدَه[2]
فاهدِم بناءَ البخلِ وارفُضْ به ... مَن هدمَ البخلَ بنى مجدَه
لا عاش إلا جائعاً نائعاً[3] ... مَن عاش فى أمواله وحدَه

وله يصف روضاً :

وروضٍ كساه الطلُّ وشياً مجدَّدَا ... فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقْعِدَا
إذا صافحته الريح ظلتْ غصونُهُ ... رواقصَ فى خُضرٍ من العَصْبِ مُيَّدَا
إذا ما انسيابُ الماء عاينتَ خِلتَهُ ، ... وقد كسَّرته راحةُ الريح ، مِبرَدَا
وإن سكنتْ عنه حسِبتَ صفاءَهُ ... حُساماً صقيلاً صافىَ المتنِ جُرِّدا
وغنَّتْ به وُرْقُ الحمائمِ حَوْلَنا ... غِناءً يُنَسِّينا الغَريضَ ومعبَدَا

---

(١) الذخيرة (قسم ٣ ، المخطوط المذكور) ص ٢٢ ا : من كثَّر الجُنْدَ

(٢) كذا فى الأصل بوضوح ، ولكن المعنى غير مقبول ، ثم إن الرَّوِىّ « جنده » لا يمكن أن يكون منصوباً لو تركنا الشطر على هذه الصورة . وربما أمكننا إصلاح هذا الشطر بعض الشىء لو قلنا : « أيامه أو نَصَرَت جنده » أو « لو نصرت جنده » .

(٣) فى الأصل : نسايعا ، وفى الذخيرة : نايعا . والنائع هو المائل . جاء فى اللسان : سئلت هند ابنة الخُسّ : ما أشد الأشياء ؟ فقالت : ضرس جائع يقذف فى مِعًى نائع (اللسان : ١٠/ ٢٤٤) . وهو إتباع يراد به توكيد المعنى .

فلا تجفُوَنَّ الدهرَ ما دام مُسعداً ومُدَّ إلى ما قد حباك به يدَا
وخذها مُداماً من غزالٍ كأنهُ ، إذا ما سعى ، بدرٌ تحمَّل فَرْقَدَا

[٨٨ — ب] / وله :

أدِرْها مُداماً كالغزالةِ مُرَّة تَبِينُ لرائيها وتأبَى على اللمسِ
وتبدو إلى الأبصار دون تجشُّمٍ على أنها تَخفَى على الذهن والحِسِّ
إذا شعشعت فى الكأسِ خِلتَ حَبَابَها لآلئَ قد رُفِّعن فى لَبَّةِ الشمسِ
موكلة بالهَمِّ تهزم جيشَهُ بجيش الأمانى والمسرة والأنسِ
فإن شئت قل فيها أرق من الهوى وإن شئت قل فيها أرق من النفسِ

وله فى النسيب :

أنحى على جسمى النحولُ فلم يدَعْ متوهَّماً من رسمه المعلومِ
عبثتْ به أيدى الصبا فكأنه سرٌّ خفىٌّ فى ضميرٍ كتومِ

وله :

يزهدنى[1] فى الزهد عين مريضةٌ يُمَرِّضنى من لَحْظها ما أعَلَّنى
ولم يُبق نَفْسى غيرُ عطفة شادنٍ عسانى أفدّيه بها ولعلَّنى
شكوتُ إلى فيه الذى بى من الظما فأنهلَنى عذبَ الرُّضاب وعلَّنى

وله :

دع الدمعَ يُفْنِ الجفنَ ليلةَ ودَّعوا إذا انقلبوا بالقلب لا كان مدمَعُ
سَرَوْا كاغتداء الطير ، لا الصبرُ بعدَهم جميلٌ ، ولا طولُ الندامة ينفعُ

---

(١) كذا فى الأصل وفى الذخيرة (قسم ٣ ، جايانجوس ، ورقة ٢٢ ا) . وقد جعلها دوزى (ص ١٨٤) : تُزَهِّدُنى .

أضِيقُ بحَمل الفادحات من النوى وصدرى من الأرض البسيطة أوسعُ
وإن كنتُ خَلاّعَ العِذار فإننى لبستُ من العلياء ما ليس يُخلعُ
إذا سَلّتِ الألحاظ سيفاً خَشِيتُهُ وفى الحرب لا أخشى ولا أتوقعُ

وله :

برح السقم [بى ، فليس صحيحاً مَن رأت عينُه عيوناً][1] مِراضَا
إنّ للأعين المِراضِ سهاماً صيّرتْ أنفسَ الورى أغراضَا

وله فى شمعة :

رُبّ صفراء تردّتْ بِرداءِ العاشقينا
مثلَ فِعل النارِ فيها تفعلُ الآجالُ فينا

وحدثنى القاضى أبو عامر نذير بن وهب بن نذير[2] الفهرى — ودارُ سلفه شنتَمرية المنسوبة إلى بنى رزين — / غيرَ مرة بلفْظه ، قال : حدثنى أبى أنه كان [٨٩ – ١] بشنتمرية مُعلم كُتاب يؤدبهم ، ويَؤُمُّ فى مسجدين : أحدهما يصلى فيه نهاراً والثانى ليلا ، فكتب إلى الحاجب ذى الرئاستين أبى مروان عبد الملك بن الحاجب ذى المَجْدَين عز الدولة أبى محمد هذيل بن رزين[3] يسأله التقديم فى المسجد الجامع للصلاة فى دَوْلَةٍ مع سائر الأئمة ، فوقّع له فى مكتوبه :

(١) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة ، نفس القسم والصفحة .

(٢) أبو عامر نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن وهب بن نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، من أهل بلنسية ، يكنى أباعامر (٥٥٨–٦٣٦) : من أعلام فقهاء بلنسية ومن أساتذة ابن الأبار ، اشتهر بكتابة الشروط والبراعة فيها . ولى قضاء الكور ، وحدّث فى آخر عمره وسمع منه ابن الأبار وأجاز له ، ولما تغلب النصارى على بلنسية قصد دانية وولى قضاءها إلى أن توفى بها فى العشر الوسط من شعبان من السنة التى ذكرناها ، بعد ستة أشهر من سقوط بلنسية ، وكان ابن الأبار إذ ذاك فى تونس .(التكملة ، رقم ١٢١٧ ص ٤٢٤ – ٤٢٥).

(٣) هذا يدل على أن عبد الملك بن هذيل خلف أباه هذيل ، مما يؤيد ماذهب إليه بوسك بيلا من خطأ ابن الأبار فى سياقة نسب بنى رزين .

أيُطيقُ تأديباً وعقـــدَ إمامةٍ فى مسجدين وجامعٍ إنسانُ ؟
اثبُتْ على إحدى المراتِب لا تَزِدْ فمن الزيادة يُتَّـقى النُّقصانُ

وحكى لى غيرُه أن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ؛ قرَّب جندَه من نفسه ، وتحبب إليهم واختلط بهم ، حتى كان لا يمتاز منهم فى مركب ولا ملبس . ووقائعه فى الثغر مشهورة ، وجرى عليه خطْب كبير فى صفر سنة ثلاث وتسعين وأر بعمائة قبل وفاته بيسير : دبَّر عليه صهرُه عبيدُ الله القائمُ بأذْكُون[1] ، وأراد اغتيالَه مع طائفة من رجاله ليرث مكانَه[2] ، وكان قد أحضره لدعوةٍ

---

(١) قد تقرأ أيضاً : أدكون بالدال المهملة ، وقد تقرأ بفتح الدال أو الذال أو تسكينهما . وقد ذهب دوزى إلى أن المراد موضع يسمى Alacón إلى شمال شرق Albarracín (سهلة بنى رزين أو شنتمرية الشرق) . وقال بوسك بيلا إنها اليوم تابعة لمركز Montalbán فى مديرية تِرْوال Teruel .

(٢) لم تحدد المراجع تاريخاً لذلك الحادث ، ولكن يبدو أن ذلك كان فى أخريات أيامه . وقد توفى حسام الدولة أبومروان عبد الملك بن هذيل بن رزين يوم الاثنين ٩ شعبان ٤٩٦/١٨ مايو ١١٠٣ عن سن عالية ، نحو الثمانين . وقد حكم من وفاة أبيه هذيل سنة ٤٣٦/ من ٢٩ يوليو ١٠٤٤ إلى ١٨ يوليو ١٠٤٥ ، أى أنه حكم ٦٠ سنة هجرية (٥٩ ميلادية) ، فهو على هذا أطول أمراء الطوائف عهداً ، وإن كانت إمارته من أقلها اتساعاً وأهمية . ويرجع طول حكمه إلى حصافة معاقله أولا ثم إلى ابتعاده عن دوامة الحوادث التى أحاطت بإمارته ، فقد عاش عصر الصراع الطويل بين أمراء الطوائف والممالك النصرانية ، وعاصر ألفونسو السادس والسِّيد القمبيطور ودخول المرابطين الأندلس ، ولم يكن له هم إلا الحفاظ على نفسه ومصالحه دون أن يسدى أية معاونة لجيرانه المسلمين . وخلفه ابنه يحيى فلم يحكم إلا سنة واحدة . وإليك تواريخ أهم حوادث هذه الفتره فى السهلة وبلنسية ومرسية :

١٠٩٢/٤٨٥ : استيلاء المرابطين على البونت Alpuente .

١٥ رجب ٤٩٥/٥ مايو ١١٠٢ : عودة بلنسية إلى المسلمين بدخول القائد المرابطى مزدلى إياها .

١١٠٣/٤٩٦ : الجواز الرابع الأخير ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

ذو الحجة ٤٩٦/سبتمبر ١١٠٣ : عزل أبى عبد الله مزدلى عن بلنسية وإقامته حاكماً لتلمسان ، وإقامة أبى محمد عبد الله بن فاطمة حاكماً لبلنسية ونواحيها وقائداً لقوات المرابطين فى شرق الأندلس. =

احتفل فيها مع جماعة ، منهم أبو عيسى بن لَبُّون صاحب مُرْبِيطَر[1] . فلما أمكنتهم الغِرّة فيه بأخذ الشراب منه ، وثبوا عليه وخبطوه بسيوفهم حتى أثخنوه جراحاً . واتفق أن كانت أخته حاضرة — وهى زوج عبيد الله هذا — فصعدت إلى عِلِّيَّة هناك وصرخت : « واقتيلاه ! » ؛ فتبادر الناس لتعرُّف القصة ، ودخلوا على أبى مروان و به رمق ، فأرادوا قتْل قاتليه بأجمعهم ، فأمرهم بترك صهره وابنه والقبض عليهما ؛ ولم يزل يعالَج من جراحه إلى أن برئ وصحّ ، وقد غيّرت من شكله وشانت وجهه ، فأمر بصهره فقُطعت يداه ورجلاه وسُملت عيناه وصُلب ، وأمر بقطع رجل ابنه وخلّى سبيله .

= ٨ رجب ٤٩٧ / ٩ أبريل ١١٠٤ : دخول القائد المرابطى أبى محمد عبد الله بن فاطمة شنتمرية الشرق ونهاية حكم بنى رزين بعزل يحيى بن عبد الملك .

انظر : « ذيل مشتمل على نص بعض أوراق من تاريخ مبتور الأول والآخر ، ومجهول الاسم والمؤلف فى أخبار دول ملوك الطوائف بالأندلس » ، ذيل على الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى ، ص ٣١٠ .

الحلل الموشية ، ص ٦٣ – ٦٥ .

E. LÉVI - PROVENÇAL. *La Toma de Valencia por el Cid, en Al-Andalus*, XIII, 1948, pp. 155 - 156.

R. MENÉNDEZ PIDAL. *La Espana del Cid*, II, 576 - 582.

J. BOSCH VILA. *op. cit*, 170 - 173.

(١) مُرْبِيطَرْ .. هكذا ضبطها ليڤى پروڤنسال ، والأصح مُرْبِيطْرُ وتكتب أيضاً مُرْبَاطَر ، بالإسبانية **Murviedro** من اللاتينى **Muri veteris** ومعناه الأسوار القديمة ، وظلت تسمى بهذا الاسم حتى سنة ١٨٧٧ ثم استبدل بالاسم الأيبيرى ثم الرومانى الذى كان يطلق على الموضع وهو **Saguntum** (حاليا **Sagunto**) وهو بلد على ٢١ كيلومتراً شمالى بلنسية ، فى الطريق إلى قسطليون **Castellón de la Plana** ، وقد اشتهرت فى القديم بمسرحها الرومانى الذى لا زال باقيا إلى اليوم ، وقد ذكرها ياقوت فى معجم البلدان : ٤/٤٨٦ . والبلد مشهور اليوم بمصانع الحديد التى فيه ، وهى الثانية فى الأهمية فى إسبانيا . انظر الروض المعطار ، رقم ١٧١ ص ١٨١ والترجمة الفرنسية ص ٢١٧ وهامش رقم ٥ . وذهب رامون منندذ پيدال إلى أن أصل الاسم اللاتينى **Murus Vetulus** .

وقد استبد بأمر مربيطر أبوعيسى بن لَبُّون الذى سيتحدث عنه ابن الأبار بعد ذلك .

١٣٠ — محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد بن طاهر القيسى ، أبو عبد الرحمن

قرأت فى تاريخ أبى بكر محمد بن عيسى بن مُزَيْن الكاتب — وأبوه عيسى هو مخلوع المعتضد عباد بن محمد من شِلْب ، وكان صهره — أن ابن طاهر — يعنى أبا بكر أحمد بن إسحاق والد أبى عبد الرحمن[1] — كان من أعلام تُدْمِير[2] / وبياضها ، فاستبد بها إلا أنه لم يَعْدُ اسمَ الوزارة فيها والمظالم ، [٨٩ – ب] إلى أن مات .

وخلفه ابنُه [أبو] عبد الرحمن محمد ، فتمادت حالُه على رسم أبيه ووَسْمه فى المظالم ، إلى أن أخرجه عنها أبو بكر بن عمار فى قصص طويلة سنة إحدى وسبعين وأربعمائة .

وقرأتُ بخَطِّ القاضى أبى القاسم بن حُبَيْش فى بعض معلقاته من تاريخ أبى مروان بن حَيّان : خاف زُهَيْر — يعنى الصقلبى صاحب المرية ومرسية — انتقاضَ أبى عامر بن خطاب رئيس مرسية عليه إن تركه خَلْفَه ، لصَغْوِه إلى

---

(١) قال ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٣ مخطوطة جايانجوس ، ورقة ٥ ا) : «كان أبو عبد الرحمن بن طاهر أحد من جمع الحديث إلى القديم ، وانتهى من رياسة الأقلام إلى سياسة الأقاليم . واتفق لبنى طاهر بالفتنة المطغية رياسة كورة مرسية فى خبر قد أضربت عنه لطوله ، ولأنى قد أوردته فى كتابى المترجم بسلْكة الجواهر من ترسيل أبى طاهر» ، مما يلقى ضوءاً على أولية أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر .

(٢) تدمير هى مرسية وإقليمها ، سماها العرب باسم حاكمها القوطى Theodomiro أى تدمير الذى يقول الضبى والعذرى أنه ابن غبدوش ويجعله سافدرا Ergobados ، وكان من أنصار غيطشة وانضم إلى المسلمين أول الفتح ، وقد دخلت المنطقة أيام عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٥/٧١٤ فى حكم المسلمين بناء على صلح نصه معروف لنا . وقد حوّلت الناحية إلى كورة وأُلغى نظامها الخاص فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وجعلت بلدة مرسية عاصمة الكورة .

انظر كتابنا : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١١٢ وما بعدها .

مجاهد — يعنى العامرى — مناوئِه ، فأسكنه معه المريةَ دون أن يغيِّر له حالا ولا نعمة ، وترك بمرسية ابنَ طاهر نِدَّ ابن خطاب ومناوئَه ، بعد أن انطلق ابنُ طاهر من يد مجاهد بفدية غليظة ، وعاد إلى حاله ونعمته ، وأعانه زهير على لَمِّ شعثه ووفى بعهده ، فاطمأنتْ قَدَمُه بمرسية فيما بعد ، وارتفعت حاله ، وبَعُد عنها عدوُّه ابنُ خطاب آخر الأيام ، فلم يُقضَ له رجوع إليها إلى أن مضى لسبيله .

قال : وفى صدر شهر رمضان — يعنى من سنة خمس وخمسين وأربعمائة — بلغت قرطبةَ وفاةُ الشيخ أبى بكر أحمد بن طاهر ، المتأمِّر قديماً ببلده مرسية ، بعد طول عِلته الفالجية . وكان من آخر مَن أنْظِر إلى هـذه المدة من بقايا رؤساء الـكُوَر ، فكان يُعتدُّ — بعد انقراض دولة الصقالبة العامريين — فى جملة المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر وولده عبد الملك ، على استبدادِه عليهما ، وامتناعِه من تنفيذ مالا يوافقه من أمرهما ، وإرسالِه إليهما خلال ذلك مفارقَتَه[1] عما فى يده من بلده ، وقيامِه بالإنفاق على من ينزله من جنده ، وتفرُّدِه بقَوْد جند البلد ، وجباية ماله ، يرسل من فضله[2] إلى كل منهما فى وقته ما فارقه عليه ، فلا يمكنهما خلافه ، لقوة مَنْـكِبِه ، ووفورِ ماله ، واجتماع أهل بلده على طاعته ، واعترافهم بحقه ، قد أصلح الله به على جماعتهم ، وعمرت بلادهم بجميل سيرته . ثم اتسعت مكاسبه حتى صار نصف بلده ضيعةً له ، وأحسن ارتباط الجنـد بإنصافهم والإحسان إليهم ، فأحبوه وناصحوه ، فاستقام أمره وضخمت نعمته .

وعضده ابنُ صِدْقٍ له نجيبٌ لبيبٌ يُسمى محمدًا ، ويُكنى أبا عبد الرحمن ،

---

(١) عبارة « فارق فلان فلاناً على كذا » كانت تستعمل فى ذلك العصر بمعنى أنهما اتفقا على شىء قبل أن يفترقا ، وفى الغالب يكون معناها أن أحدهما يؤدى إلى الآخر مالا معلوماً نظير ترك بلده له . والمفارقة هنا هى المـال المتفق عليه .

(٢) أى يرسل من فضل — أو بقية — ذلك المـال .

[٩٠ - ١] سلك سبيله / واتبع سيرته ، وزاد عليه بفضل علم وأدب ، فحجبه أيام تعطله وسدّ مسدّه . فلما مضى لسبيله قعد مكانه وجَبَر ثَلْمه ، واستقام الناس له كأنهم ما فقدوا أباه . وهلك هذا الشيخ عن نحو تسعين سنة .

قال : وآلُ طاهر ذوو بيتٍ عامر ، وعدد وافر ، يفخرون بالعُروبية ، وينتمون فى قيس عَيْلان . انتهى كلام ابن حَيّان ، وهذا خلاف معتقده فى بنى خطاب ، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله .

وكان أبو عبد الرحمن من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصره فى البيان والبلاغة ، ويماثل الصاحبَ إسماعيلَ بن عباد وأمثاله فى الكَتْب عن نفسه ، ورسائلُه مدونة ، ولأبى الحسن بن بسام فيها تأليف سماه بـ « سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر » . وروى الحديث عن أبى الوليد بن مِيقَل (١) ، وقد أخذ عنه واستجازه أبو على بن سُكَّرة (٢) لابنه ، وذكره أبو القاسم بن بشكوال فى تاريخه ، وحدثنى المُقْرئ المعمر أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن

---

(١) ذكر ذلك أيضاً ابن بشكوال فى الصلة فى ترجمته لأبى عبد الرحمن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن طاهر ، رقم ١١٤٠ ص ٥١٣ . وقد ذكر أنه توفى ببلنسية وسير به إلى مرسية ميتاً ، ودفن بها سنة ٥٠٨ . والمراجع الأخرى تقول إنه توفى سنة ٥٠٧ ، ومن الممكن أن يكون نقل رفاته إلى مرسية هو الذى كان سنة ٥٠٨ .

(٢) أبو على بن سكرة هو القاضى أبو على الصَّدَفى السَّرَقُسْطى ويعرف بابن الدَّبّاج ، وهو أستاذ ابن الأبار الذى ألف فى أصحابه معجمه المعروف (نشره فرانثيسكو كوديرا فى مدريد سنة ١٨٨٦) . وقد توفى أبو على مستشهداً فى وقعة كُتَنْدَة (وتكتب أيضاً قُتَنْدة) ، وهى كما يقول ابن الأبار فى حَيِّز دَرُوقه Daroca من عمل سرقسطة ، وقد اختُلف فى تاريخها فيقال إنها كانت بعد عصر الأربعاء ١٧ ربيع الآخر ٥١٤ ، وبعضهم يقول يوم الخميس ٢٤ ربيع الآخر ٥١٤ ، وذكرت تواريخ أخرى قريبة من هذه ، وكان يقود المعركة إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وقد انهزم فيها المسلمون .

راجع مناقشة تاريخ المعركة فى ترجمة أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن أبى ليلى الأنصارى ، رقم ٣ ص ٧ من المعجم .

سعادة الشاطبى[١] ، عن الخطيب أبى الوليد محمد بن عبد الرحمن بن عَرِيب[٢] ، عن أبى عبد الرحمن بن طاهر بجميع روايته عن ابن مِيقَل . وكانت فيـــه دعابة غالبة عليه لا يدعها بحال ، وأجود رسائله ما اشتمل على الهزل لميل طبعه إليه .

وكان على ذلك جواداً ممدحاً ، ينتجعه الشعراء ويقصده الأدباء ، وقد انتجعه أبو بكر بن عمار أيام خموله ، ثم قضى أن خلعه عن سلطانه[٣] ، فله معه نوادر مذكورة ، منها قوله — بعد خلاصه من اعتقاله وانخلاع ابن عمـار عن مرسية واجتماعهما عند الوزير الأجـــل أبى بكر بن عبد العزيز أيام رياسته ببلنسية[٤] : « أبا العيناء لا أنت ولا أنا » ، وكان ابن عمار أخفش . ومنها وقد أرسل إليه وقت القبض عليه بخيره فى خِلعة يلبسها[٥] ، فقال لرسوله : « لا أختار

---

(١) من كبار شيوخ القراءات ، أصله من شاطبة ، وقدم على بلنسية فى أول شوال سنة ٦١٠ وقرأ عليه ابن الأبار ، عمر فوق المائة ، إذ ولد سنة ٥١٤ أو ٥١٦ وتوفى يوم الثلاثاء ٩ شوال ٦١٤ .

راجع تكملة ابن الأبار ، رقم ٩٣٨ ج ١/٣١٣ — ٣١٤ .

(٢) فى الأصل : وعريب ، وجعلها دوزى (ص ١٨٨) : ابن عريب وهو تصحيح فى محله لأن المراد محمد بن عريب بن عبد الرحمن بن عريب العبسى ، أبو الوليد ، من أهل سرقسطة وسكن مرسية ، وقد ذكر ابن الأبار فى ترجمته له (رقم ١٦٠ ص ١٨٠ — ١٨١ من « المعجم » أن « الرئيس » أبا عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر أجاز له . ولم يذكر سنة وفاته .

(٣) سيفصِّل ابن الأبار هذه الحوادث فيما يلى من الكلام عن ابن طاهر ، وهناك تفصيل يكمل هذا عند ابن بسام ، الذخيرة (قسم ٣ ، جايانجوس) ورقة ٥ ا وب وما يليها .

(٤) كان أبو بكر بن عمار الشاعر هو الذى خلع ابن طاهر عن بلنسية وسجنه كما سيقول ابن الأبار ، وكان المعتمد بن عباد قد أرسل ابن عمار فى جيش ليستولى على مرسية ، فلما تم ذلك لابن عمار استبد بمرسية وأراد أن يستقل بها ، فسلط عليه المعتمدُ ابنَ رشيق ، فتمكن هذا من خلع ابن عمار ، وخلص ابن طاهر من سجنه ، وخرج الاثنان إلى بلنسية حيث اجتمعا عند صاحبها أبى بكر بن عبد العزيز ، ولابن بسام عبارة لطيفة فيما أصاب ابن عمار على يد ابن رشيق ، أن الأول كان لسان حاله يقول : « أنفقت مالى وحج الجمل ! »

(٥) أى أن ابن عمار أرسل إلى ابن طاهر — بعد أن قبض عليه وسجنه — يسأله عما يختار من الثياب .

من خِلَعه — أعزه الله — إلا فروة طويلة ، وغِفَارة ضئيلة » فعرفها ابن عمار واعترف بها وقال : « نعم ، إنما عرَّض بزيي يوم قصَدته ، وبهيئتى حين أنشدته » . وقد جرى له مع أبى بكر بن عبد العزيز فى معنى الدعابة والمطايبة ما احتمله له بفضل رجاحته . وأبو بكر حركه فذكر الفول ، وكان أبو عبد الرحمن مولعاً به ومكثراً لأكله ، فعرض له هو — بل صرَّح — بما كان فى لسانه
[٩٠ — ب] من عقلة ، وهو إذ ذاك/ضيفه[1] . وخبر خلعه : وذكر ابن بسام وغيره ، وقرأت فى تاريخ الكاتب أبى بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشلبى تلميذ الكاتب أبى بكر ابن القصيرة وأحد كتاب المعتمد محمد بن عباد ، قال : كان ابن عمار قد نزل ضيفاً على ابن طاهر فى صعوده إلى ابن رَيْمُنْد صاحب برشلونة[2] ، فاستبان ضعفه ، فداخل[3] أعيان مرسية مُخبِّلا ومخذِّلا . ثم وصل ذلك عند اجتماعه بريمند ، بمعاقدته على أن يعينه فى محاصرته ، وبذل له عن ذلك عشرة آلاف مثقال ،

---

(١) هذا الخبر مضطرب ، ولم أجد أصله لأصوبه رغم كثرة ماكتب عن ابن طاهر هذا . ومن أسف أن ابن بسام قال عندما أشار إلى ولع ابن طاهر بالنوادر — بعد أن ذكر بعضها : « إلى نوادر كثيرة ، وأوابد عنه مأثورة ، إيرادها خارج عن غرض هذا التصنيف ، وليست من شرط هذا التأليف » (مخطوطة القسم الثالث ، ص ١٥) .

ولكن النادرة فى مجملها مفهومة ، يفهم منها أن أبا بكر عبد العزيز بن أبى عامر حرك أبا عبد الرحمن بن طاهر إلى التندر ، فذكر الفول ، فرد ابن طاهر بشىء يتصل بالفول — وهو عقلته — ملمحاً إلى عقلة كانت فى لسان أبى بكر بن عبد العزيز .

وبالإضافة إلى الباب الطويل الذى أداره ابن بسام على أبى عبد الرحمن بن طاهر ، والفصل الطويل الذى اختصه به ابن خاقان فى القلائد (ص ٥٦ وما بعدها) ذكر الدكتور شوقى ضيف فى تعليقاته الضافية على تحقيقه **لمُغرب** ابن سعيد (رقم ٥١٣ ج ٢ ص ٢٤٧ وما بعدها) بقية المراجع التى تستقى منها أخبار هذا الرجل الذى تعتبر حياته نموذجاً لاضطراب حيوات أهل ذلك العصر .

(٢) المراد **Raimundo (Ramón) Berenguer II el Fratrecid** كونت برشلونة من سنة ١٠٧٦ إلى سنة ١٠٩٦ ، وهو ابن رايموندو بيرنجير الأول الملقب بالعجوز المتوفى سنة ١٠٧٦ ، ولهذا يسمى الأول منهما ابن ريمند .

(٣) الأصل : فدخل .

على أن ينحدر بعسكره إلى مُرسية ، ويأتى هو فى عسكر ابن عباد ، ويرهن كلٌّ واحد منهما مُعاقِدَه ما يثق به ، فرهن البرشلونى ابن عمه ، وأصعد ابن عباد ابنَه المسمى بالرشيد فى جيش إشبيلية وابن عمار معه . فاجتمعا بريمُند عليها على ميعادٍ عيّناه ، وحاصرا مُرسية وشنّا الغارات عليها فلم ينالوا منها أكثر من ذلك .

وكان ابن عمار — عند فصوله من إشبيلية — قد قدّر أن يُنظَر له فى المال المذكور ويُلْحَق به ، وذلك لأجَلٍ ضربه البرشلونى ، فانصرم الأجل ولم يصل المال . وتحرك المعتمد إلى قرطبة ، ثم إلى جَيّان ، ومعه الرهينة ، على عادته من التؤدة والالتواء . وأبطأ على ريمند ما عوقِد عليه ، واعتقد أن ابن عمار مكر به ، فقبض عليه وعلى الرشيد وقيدهما .

وانقلب عسكر إشبيلية مفلولا ، والمعتمد قد فَصل من جَيّان[1] وشارف

---

(١) جيان ، مدينة وكورة فى التقسيم الإدارى للأندلس الإسلامى . والبلد يقع على نهر الوادى الكبير إلى شرق قرطبة ، وكانت الكورة من أعمر نواحى الأندلس وأغناها وأكثرها سكاناً . أما البلد فيقع على السفح الشمالى الشرقى لجبل كُوز Jabalcuz غربى وادى بُلّون Guadalbullón وهو نهير صغير يصب فى الوادى الكبير . والبلد يقع على ارتفاع ٥٤٩ متراً ، ولهذا يصفه جغرافيو العرب بالحصانة والامتناع ، وخاصة قصبته . وجيان اليوم مديرية واسعة من مديريات منطقة الأندلس (وتتكون من ثمان مديريات : ولبة Huelva وقادس Cadix وإشبيلية Sevilla وقرطبة وجيان Jaén ومالقة Malaga وغرناطة وألمرية Almería) . وقد ذهب دوزى إلى أن أصل اسم جَيّان Ucien اللاتينى ، ولكن عامة المتخصصين لا يرون ذلك . وكانت جيان أيام العرب من الكور المجنّدة ، نزلها جند قنسرين ، ومن أشهر من خرج منها جمال الدين بن مالك الجيانى صاحب الألفية . وفى العصر الذى تدور فيه الحوادث التى يتحدث عنها ابن الأبار كانت جيان متنازعة بين أمراء الطوائف ، وقد صارت — قبيل دخول المرابطين — إلى بنى عباد ، ومنها أراد المعتمد أن ينفذ إلى شرق الأندلس ويضم مرسية ، فاستعان بأبى بكر بن عمار فى ذلك وطلب معاونة الكونت رايموندو بيرنجير كما رأينا ، فلم يوفق . وقد سقطت جيان فى يد النصارى نهائياً سنة ١٢٤٨ على يد فرناندو الثالث فى الوقت الذى استولى فيه على قرطبة .

عملَ شَقُورَة[١] . فلما وصل إلى وادى آنة[٢] لم يمكنه خوضه لمدِّه بالسيول ، فأقام على شاطئه الغربى ، وإذا سُرعان فَلِّ العسكر قد أطلوا على الشاطئ الشرقى ، فاقتحمه منهم فارسان أجازا إليه وأخبراه بالنبأ الكريه ، فسُقط فى يده ونكص على عقبه ، وقد استوثق من الرهينة ، ورجع إلى جَيّان . وقد كان ابن عمار أوصى إليه مع هذين الفارسين أن يقيم لعله يلحق به ، فورد عليه بعد تمام عشرة أيام ، ونزل على وادى بُلُّون ، وكتب كتاباً وطواه ، وبعث به أحد فرسان عبيده إلى جَيّان ، وفيه شعر يأتى ذكره بعدُ وأوله :

* أصدِّق ظنى أم أصيخ إلى صحبى *

فجاوبه المعتمد عنه بما أنَّسه . فوصل إليه وبكى بين يديه ، ثم اعترف بالخطأ فى السالف ، وتوافق معه على إطلاق رهينة البرشلونى مع المال ، لينطلق الرشيد [٩١ - ١] بوصولهما من الاعتقال ، فكان ذلك . وانصرف البرشلونى / إلى بلاده ، وعاد الرشيد إلى إشبيلية .

وحكى غيره أن ابن عباد سعى فى خلاص الرشيد ، حتى فداه بثلاثين ألفاً ضربها زُيُوفاً ، ولحق الرشيد بأبيه المعتمد .

---

(١) مدينة كانت إذ ذاك من عمل جيان وتسمى اليوم **Segura de la Sierra** وينسب إليها نهر **شَقُورة Segura** وهو نهر مرسية ، يمر بها وبأوريولة **Orihuela** ثم يصب فى البحر الأبيض المتوسط . وجبل شقورة الذى يتحدث عنه الإدريسى (ص ٦٨) وابن عبد المنعم الحميرى (رقم ٩٥ ص ١٠٥) يسمى الآن **Sierra de Segura** ، وهى اليوم بلدة تابعة لمركز أُرثيرة **Orcera** فى مديرية جيان . وصارت فى آخر العهد المرابطى مركز الثائر ابن **هَمُشْك** . انظر التعليق رقم ٤ على الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ١٢٨ .

(٢) أستبعد أن يكون المراد نهر **Guadiana** المعروف ، ويغلب على ظنى أن المراد نهير صغير من نهيرات نهر مرسية يمر ببلدة أنَّه ، وهى اليوم **Anaya** على مقربة من مرسية . وكانت من المدن السبع التى عاهد عليها تدمير العرب . انظر كتابنا : فجر الأندلس ، ص ١١٥ .

قال ابنُ قاسم المذكور فى تاريخه : وعاد لابن عمار فى مُرسِيَة رأيُه الدَّبَرِىّ . ولجَّ به مَيَلانُه ، فذكر للمعتمد — أو زوَّر — أن أهل مُرسية قد داخلوه وخاطبوه ، وأظهر لهم كتباً ذكر أنهم كتبوها إليه — زاد غيره : وذلك فى سنة أربع وسبعين . قال : وأشار إليه بتجهيز عسكر ثان يتقلده ، فلم يخالفه — يعنى المعتمد — وفَصل عن إشبيلية بعسكرها ، ووصل إلى قرطبة — وعليها الفتح ابن المعتمد ، وهو يومئذ حاجبُ أبيه — فضم خيلَ قرطبة إلى عسكر إشبيلية ، وسهر فى اجتيازه هذا ليلةً عند « الفتح » ، إلى أن شارف الصبح ، فقال أحد الخصيان : « قد انصدع الفجر » ، فأنشأ ابن عمار يقول :

إليك عنى ، فليـــلى كله صبحُ وكيف لا وسميرى الحاجبُ الفتحُ ؟

قال : ثم تقدم ابنُ عمار إلى مُرسية ، واجتاز فى طريقه على « حصن بَلج »[1] وعاملهُ يومئذ عبد الله بن رشيق ، هكذا سماه ابن قاسم الشلبى هذا — وغيره يقول فيه : عبد الرحمن ، وهو الصحيح . قال : فلما سمع به ابن رشيق خرج إليه على أميال من الحصن ، ورغب إليه فى النزول عنده ، فأجابه ابن عمار إلى ذلك . واحتفل ابن رشيق فى إنزاله احتفالا استطرفه ابن عمار ، وآل به إلى أن قدمه على جيشه ، ولم يعلم أنه يحمل منه الداهية الدهياء والداء العياء ، فوصل إلى مُرسيَة وضايقها مدة ، غَدَرَ له فى أثنائها حصنُ مُولَة[2] ، فاستعمل عليه ابنَ

---

(١) حصن كبير كان على مقربة من جيان ، وموضعه الآن قرية Vilches التابعة لمركز كارولينا Carolina فى مديرية جيان :

Cf : MADOZ, *Diccionario Geográfico - Estadistico - Histórico*, Madrid 1850, tomo XVI p. 88 b.

(٢) مولة Mula : كانت إحدى المدن السبع التى تكونت منها ولاية تدمير التى تعاهد تدمير مع العرب على تركه مستقلا فيها (انظر كتابنا : فجر الأندلس ص ١١٥) ، وظلت بعد ذلك من المعاقل الكبيرة فى كورة تدمير ، وهى اليوم تابعة لمديرية مرسية وقاعدة قسم قضائى فيها ، =

رشيق وترك معه جملة من الخيل ، وصدر إلى إشبيلية وقد برّح بمرسية تكرّر الحصار وانقطاعُ المواد بانخزال مُولَة عنها .

وما زال ابن رشيق يغاديها ويراوحها بالغارات ، ويداخل أهلَها فى القيام على ابن طاهر ويمنيهم الحظوة ، حتى لان قيادُهم وصرحوا له بالانحياز[1] ، ووصلت كتبهم على يديه إلى ابن عمار وهو بإشبيلية . قال ابن قاسم : ولقد شهدتُ ابنَ عمار فى القصر بإشبيلية يقرأ هذه الكتب — وكانت أزيد من عشرين — فلما استوفاها قال لنا : «كأنكم بفتح مرسية من غد إلى بعد غد» ، فكان كذلك .

ولما تم لأهل مرسية تدبيرهم مع ابن رشيق ، تحرك من مُولَة نحوهم على وقت معين ، فلما وصل إلى ظاهرها صرخوا بدعوة ابن عبّاد ، وفتحوا أبوابها لذلك الميعاد ، فدخل ابن رشيق فى أنصاره بشعاره ، وأخرج / ابنَ طاهر من داره إلى السجن ، وكتب من قصر مرسية وقد تملكها ، وأخذ لابن عباد بيعة أهلها . [٩١ – ب]

وحكى غيره أن ابن طاهر لما قُبض عليه اعتقل بحصن مُنْتْ أَقُوط[2] ، إلى أن ورد كتاب المعتمد بتسريحه ، فالحق بأبى بكر بن عبد العزيز ببلنسيّة ، لسعيه فى ذلك وشفاعته فيه . وقد قيل إن ابن طاهر هرب من معتقله ، بإعانة ابن عبد العزيز وتنبيهه على الوجوه الميسّرة لخلاصه .

= وهى تقع فى لحف جبل صغير يسمى باسمها عليه بقايا حصن عربى يسمى قصر مولة Alcázar de Mula ، وقد سقطت مولة فى يد فرناندو الثالث المعروف بسان فرناندو سنة ١٢٢٦ .

Cf : MADOZ, *op. cit.* tomo XI, 1848, p. 679 - 681.

(١) الأصل : بالإنجاز.

(٢) منت أقوط : حصن من حصون مرسية القريبة منها ، ذكره ابن حازم القرطاجنى فى البيت التسعين بعد المائتين من مقصورته ، وهى بالإسبانية Monteagudo وهى اليوم قرية تابعة لبلدة مرسية قاعدة المديرية التى تحمل ذلك الاسم ، وكانت بقايا حصنها لا تزال قائمة إلى منتصف القرن الماضى .

Cf : MADOZ, *op. cit.* XI, 534 - 536.

E. GARCIA GOMEZ : *Observaciones sobre la Qaṣīda Maqṣūra de Abū - l - Ḥasan Ḥāzim al Qarṭāyannī,* Al - Andalus, vol. I, fasc. 1, p. 103.

قال ابن بسام فى « كتاب الذخيرة » من تأليفه : ومُدَّ لأبى عن الرحمن بن طاهر هذا فى البقاء ، حتى تجاوز مَصارعَ جماعة الرؤساء ، وشهد محنةَ المسلمين ببلنسية على يدى الطاغية الذى كان يدعى الكنبيطور[1] ، وحصل لديه أسيراً سنة ثمان وثمانين ، يعنى وأربعمائة . كذا قال ابن بسام ، وإنما دخل الكنبيطور بلنسيةَ سنة سبع وثمانين .

وتوفى أبو عبد الرحمن ببلنسية وصُلى عليه بقبلة المسجد الجامع منها إثر صلاة العصر من يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأخيرة سنة ثمان وخمسمائة ، ثم سئير به إلى مرسية ودفن بها وقد نيف على الثمانين .

وعلى مكانه من البراعة والبلاغة فى الرسائل ، فلم أقف له على شعر سوى قوله فى مقتل القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون على يدى أبى أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافرى ، عند انتزائه ببلنسية وانتقاله من خطة القضاء إلى خطة الرئاسة ، وكان أخيف :

أيها الأخيف مهلاً فلقد جئتَ عويصا

---

(١) هو السيِّد الكنبيطور – أو الكمبيطور – El Cid Campeador الفارس المغامر القشتالى الذى قام بدور كبير فى تاريخ شرق الأندلس وتاريخ إسبانيا النصرانية خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، واسمه Rodrigo Díaz de Vivar ، وقد كتبنا عنه وعن علاقاته بالمسلمين بحثاً مطولا فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مجلد سنة ١٩٥١ . ويسمى أيضاً بالسيِّد El Cid وهو النداء الذى كان يخاطبه به أتباعه ، وهو اللغة الدارجة فى لفظ السيِّد العربى . وقد توفى السيِّد فى ١٠ يوليو ١٠٩٩ .

أنظر عنه :

DOZY, *Le Cid,* dans *Recherches*, 3e édition (1881), II, 1—233.

RAMON MENÉNDEZ PIDAL, *La España del Cid*, 2a edicion (Madrid, 1947).

LÉVI-PROVENÇAL, *Le Cid de l'histoire* dans *Revue Historique, CLXXX*, 1937.

إذ قتلتَ المَلْكَ يحيى وتقمّصتَ القميصا
رب يوم فيه تُجزَى لم تجد عنه محيصا

فقضى الله أن تسلط عليه الطاغية الكَنْبِيطُور ، بعد أن أمّنه فى نفسه وماله عند دخوله بلنسية صلحاً ، وتركه على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله وأهلَ بيته وقرابته وجعل يطلبهم بمال القادر بن ذى النون . ولم يزل يستخرج ما عندهم بالضرب والإهانة وغليظ العذاب ، ثم أمر بإضرام نار عظيمة كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضى أبى أحمد يرسف فى قيوده ، وأهله و بنوه حوله ، فأمر بإحراقهم جميعاً . فضج المسلمون والروم ، وقد اجتمعوا ، ورغبوا فى ترك الأطفال والعيال ، فأسعفهم بعد جهد شديد . واحتُفر للقاضى حفرة — وذلك [٩٢-١] بوَلْجَة(١) / بلنسية — وأدخل فيها إلى حُجْزته ، وسُوِّىَ الترابُ حوله ، وضُمت النار نحوه . فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقبض على أقباسها وضمها إلى جسده يستعجل المنية ، فاحترق رحمه الله ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة(٢) ؛ ويومَ الخميس منسلخ جمادى الأولى من السنة قبلها كان دخول الكنبيطور المذكور بلنسية .

---

(١) ولجة – بالإسبانية huelga – هى الرحبة الواسعة التى تستعمل للنزهة وأصلها عربى – مولجة هى الأرض التى ينعطف عليها النهر فتصبح محاطة بالماء من ثلاث جهات . وقد وجدت ولجات كثيرة قرب مدن أخرى ، ولكنى لم أعثر على ولجة بلنسية . وفى بلنسية اليوم موضع يسمى رحبة القاضى Rahbatolcadi أمام كنيسة سانتا كاتالينا Santa Catalina ، وأصلها مسجد من مساجد بلنسية الإسلامية ، وقد حول إلى كنيسة بهذا الاسم بعد سقوط البلد نهائيا فى أيدى النصارى . ولعل هذا هو الموضع الذى أحرق فيه ابن جحاف . ولم يحقق متندذ پيدال ذلك الموضوع ، لأنه – أحسب – رغم دفاعه عن هذا العمل البشع الذى أتاه القمبيطور ، يشعر فى نفسه بشناعته . وقد اختفى موضع رحبة القاضى من بلنسية اليوم .

(٢) قص ابنُ بسام فى القطعة القيمة التى أوردها فى القسم الثالث من الذخيرة (ص ١٨ ب من المخطوط وما بعدها) تحت عنوان : « ذكر الخبر عن تغلب العدو عليها وعودة المسلمين =

ثم ملَكها الرومُ ثانية ، بعد أن حاصرها الطاغية جاقم البرشلونى من يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين ، وفى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان ابن مدافع بن يوسف بن سعد الجُذامى من المدينة — وهو يومئذ أميرها — فى أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية وقد تزيَّى بأحسن زى فى عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالوَجْة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سَلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرتُ ذلك كله ، وتوليتُ العقد عن أبى جميل فى ذلك . وابتُدئ بضَعَفَةِ الناسِ ، وسُيِّروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم برًّا وبحراً . وصبيحةَ يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم ، أحانَهُم الله[1] .

= إليها» (يريد بلنسية) أورد فيه تاريخ هذا المسكين جعفر بن جحاف وما أصابه وأصاب بلنسية على يد السِّيد . وقد نشر هذه القطعة دوزى *Recherches*, II, p. VI—XVII وترجمها إلى الفرنسية فى الفصل الكبير الذى أداره على السِّيد فى « أبحاثه » وقد أشرنا إليه . وأورد كذلك فى صفحة XXXIV ترجمتى الضبى والسيوطى لأبى جعفر أحمد بن عبد الولى البَتِّى البلنسى ، من علماء بلنسية ، وقد أحرقه السيد أيضاً . وانظر دفاع رامون منندذ پيدال عن ذلك العمل فى ص ٥١٨ — ٥١٩ فى الجزء الثانى من كتابه الذى ذكرناه « إسبانيا فى عصر السِّيد » .

(١) مراجعنا العربية قليلة عن سقوط بلنسية الأخير وخروجها من دار الإسلام ، وربما كانت هذه الإشارة من ابن الأبار أوفى ما لدينا ! فى حين أن المراجع الإسبانية كثيرة جداً ، ذكر بعضها أنطونيو بايِّستيروس فى تعليقاته الوافية التى أضافها على الفقرة التى ذكر فيها سقوط هذا البلد العربى الكبير . وكان الذى استولى عليه خايمه الأول المعروف بالغازى **Jaime I el Conquistador** ، وكان المحرض الأكبر على ذلك **Hugo Folcalquer** رئيس طائفة الاسبتارية **Orden del Hospital** فى إسبانيا و **Blasco de Alagón** من كبار أشراف قطلونية . وكان استسلام البلد وناحيته نتيجة لحروب طويلة بين رؤساء البلد من المسلمين . وقد =

١٣١ ــ أحمد بن رشيق الكاتب ، أبو العباس

كان أبوه من موالى بنى شُهيد ، ونشأ بمرسية ، وانتقل إلى قرطبة وطلب الأدب فبرز فيه ، وبَسَق فى صناعة الرسائل ، مع حسن الخط المتفق على نهايته . وشارك فى سائر العلوم ، ومال إلى الفقه والحديث ، وبلغ من رياسة الدنيا أرفع منزلة . وقدمه الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى على كل من فى دولته ، وولاه جزيرة ميورقة ، فكان ينظر فيها نظر العدل والسياسة ، ويشتغل بالفقه والحديث ، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ، ويصلح الأمور جهده . وهو آوى الفقيه أبا محمد بن حزم ، حين نُعى عليه بقرطبة وغيرها خلافه مذهب مالك ، [٩٢-ب] وبين يديه تناظر هو والقاضى أبو الوليد الباجى . قال / الحُميدى فى تاريخه ــ وأكثر خبره عنه ــ : ما رأينا من أهل الرئاسة من يجرى مجراه ، مع هيبة مفرطة وتواضع ، وحلم عُرف به مع القدرة ، وله رسائل مجموعة متداولة . وذكر أنه مات بعيد الأربعين وأربعمائة عن سن عالية ؛ وهو القائل يراجع أبا الحسن ابن سِيدَه الضرير معتذراً عن صلة وجه بها إليه من ميورقة ، وكان قد كتب إليه من دانية يستمنحه[1] :

أدأب، دهرى ، ولو تطاول لى ... فى حَطِّ ثِقْلٍ من الغرامة بى
أحدثه لى تصاونٌ وهوًى ... فى عفةٍ من دميم مكتسَبِ

= بدأ خايمه حملته فى يوليو ١٢٢٣ بالاستيلاء على بُرْيانة Burriana ثم استمر التقدم سنة بعد سنة حتى دُخلت بلنسية وسلمت كما وصف ابن الأبار فى سبتمبر ١٢٣٨ .

Cf : ANTONIO BALLESTEROS Y BERRETA, *Historia de España* (2a edicion, Barcelona, 1948), III, 212 - 215.

والتعليقات والمراجع ص ٣٦٤ — ٣٧٠ .

(١) معظم المادة — فيما عدا الأبيات وخبر أبى محمد بن حزم — وارد فى جذوة المقتبس للحميدى ، رقم ٢٠٧ ص ١١٤ — ١١٦ .

فمن رآنى وظاهرى لغِنًى فباطنى قلةٌ على رُتَب
أستغفر الله ، بل له نعمٌ وهى بذنبى إليه لم تَجب

١٣٢ — محمد بن مروان بن عبد العزيز الكاتب ، أبو عبد الله

أصله من قرطبة ، وسكن بلنسية ، ويعرف بابن رَوْبَش ، وسيأتى ذكر نسبه عند ذكر ابنه الوزير الأجل أبى بكر أحمد بن محمد . وكان أبو عبد الله هذا قد رأسَ فى آخر دولة المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر صاحب بلنسية ؛ فلما توفى المنصور وملك ابنُه المظفر عبد الملك بن عبد العزيز ، تمشّت حاله معه على ما كانت عليه فى حياة أبيه . وكان عبد الملك ضعيفاً ، تخلله صهره المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة ، فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وفى ليله عَرَفة لتسع خلون من ذى الحجة منها ، وملك بلنسية وما إليها من بلاد الشرق ، فاستخلف عليها أبا عبد الله بن عبد العزيز هذا ، وجعل إليه تدبير أمرها . ثم انتقل ذلك عند وفاته إلى أبى بكر ابنه ، فتناهت فيها حاله بعد موت المأمون بن ذى النون ، واستبد بالرئاسة ، وجرى على أحمدِ سَنَنٍ من السياسة ؛ ذكر هذا الخبر أبو بكر محمد بن عيسى بن مُزَيْن فيما وقفت عليه من تأليف له مختصر فى التاريخ .

وأما ابن حَيّان فذكر هذا المخنوعَ عبدَ الملك وأساء الثناء عليه ، وحَكى أنه كان ، فى مصير ملك أبيه إليه ، قد تخلى عن / أمر الإمارة أجمعه ، وفوضه إلى [٩٣-١] وزيره أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، الماضى لعبد الملك[1] ، مكانه عند توليه

---

(١) المراد محمد بن عبد العزيز والد أبى بكر ، وهو الذى كان يمضى الأمور لعبد الملك ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر . وظاهر أنه لا قرابة بين الكاتب محمد بن عبد العزيز=

وأشبَع الكلام فى صفة خلع عبد الملك ، ونسب محاولته إلى أبى بكر دون أبيه ، فدل ذلك على وفاته قبلها ، والله أعلم . ومن شعر أبى عبد الله بن عبد العزيز ما جاوب به الوزير أبا عامر بن عبدوس ، وقد كتب إليه :

يا أطيب الناس أعصاناً وأعراقاً ... وأعذب الخلق آداباً وأخلاقاً
ويا حيا الأرض ، لِمْ نكَّبْتَ عن سَنَنى ... وسُقْتَ نحوىَ إرعاداً وإبراقا ؟
ويا سَنَا الشمس، لِمْ أظلمتَ فى بصرى ... وقد وسِعْتَ بلادَ الله إشراقا ؟
من أىِّ بابٍ سمت عينُ الزمان إلى ... رحيب صدرك حتى قيل قد ضاقا ؟
قد كنتُ أحسَبُنى فى حُسن رأيك لى ... أنى أخذتُ على الأيام ميثاقا
فالآن لم يبقَ لى بعد انحرافك ما ... آسَى عليه ، وأبدِى منه إشفاقا
قد كنتُ أوليكَ إحساناً وإشفاقا ... وأثنى عنك مهما ثبتَ مشتاقا
وما ألَوْتُك نُصحاً لو جزيتَ به ، ... ولم يكن من ذميم الغدر ، ما عاقا
وكان من أملى أن أقتنيك أخاً ... فأخفق الأملُ المأمول إخفاقا
وقلتُ : غرسٌ من الإخوان أكلؤه ... حتى أرى منه إثماراً وإيراقا
فكان — لما انتهى إزهارُه ، ودنا ... إثمارُه — حنظلاً مرّاً لمن ذاقا

— وسيط المنصور بن أبى عامر ، إنما هو تشابه أسماء . وظاهر أن محمد بن عبد العزيز أو ابنه أبا بكر أحمد قد تمالأا مع المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون على خلع سبط ابن أبى عامر ، وتولاها الأب (محمد) باسم المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون . وذلك هو الذى جر على بلنسية البلاء ، لأنه جعلها تبعاً لطليطلة ، فلما تنازل عن طليطلة القادرُ حفيد المأمون تعهد له ألفونسو السادس بتمهيد الأمر له فى بلنسية ، فسار إليها فى حماية السيد القمبيطور الذى ندبه ألفونسو لذلك . فلما ثار أهل بلنسية على القادر بقيادة القاضى جعفر بن جحاف وقتلوه زعم السيد أنه صاحب الحق فى المطالبة بدمه وبدأ يحاصرها وبدأت مأساته فيها . وقد خلط رامون منندث بيدال بين بنى عبد العزيز هؤلاء فى كلامه عن أحوال بلنسية قبل تدخل السيد فى شئونها ، فليتنبه إلى ذلك عند مراجعته . وقد فصل الأمر ابن حيان (برواية ابن بسام فى الذخيرة ، قسم ٣ ص٤٨ ب وما بعدها) فى فصول ترجمته لأبى عامر التاكرنى .

فالآن أخلَقَ ما بينى وبينك مِن ثوب الوداد ـ لسوء الفعل ـ إخلاقا
ولستَ أولَ إخوانٍ سقيتهمُ صفوى وأعلقتهمْ بالنفس إعلاقا
فما جزَوْنى بإحسانٍ ولا عرفوا قدرى ولا حفظوا عهداً وميثاقا

١٣٣ ـ محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى[1] ذو الوزارتين ، أبو بكر

أصله من قرية بشِلْب[2] تعرف بشَنَبُوس ، ونشأ خاملا ينتجع بشعره ويطوف على ملوك الطوائف / عصرَه ؛ وقد تقدم ذكر اعترافه بقصد ابن طاهر [٩٢ ـ ب] فى الهيئة التى عرّض له بها فى نادرته .

وتعلق فى أول أمره بالمعتمد محمد بن عباد ، حين وجهه أبوه المعتضد محارباً لشِلْب ، فنزع إليه ، وبلغ من المنزلة لديه أن غلب عليه . ثم صحبه بإشبيلية ، وكان يُحضِره مجالسَ أنسه ويستدعيه إليها ، ويؤثره على خاصته ويستريح إليه بسره ؛ ومن ذلك قوله وكتب به إليه :

قد زارنا النرجسُ الذكىُّ وحان من يومنا العَشِىُّ
ونحن فى مجلسٍ أنيق وقد عطشنا ، وثَمَّ رِىُّ
ولى خليلٌ غـــدا سميِّى ياليتَـــهُ ساعدَ السَّمِىُّ

---

(١) الأصل : المهدى ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) شلب Silves مدينة صغيرة حالياً فى جنوب البرتغال تابعة لمديرية « الغرب » Algarve . وانظر موجزاً لتاريخها فى العصور الإسلامية فى دائرة المعارف الإسلامية : ٤٤٣/٤ ، وانظر أيضاً المادة الطيبة عنها فى الروض المعطار ، رقم ٩٦ ص ١٠٦ وص ١٢٩ من الترجمة الفرنسية مع التعليقات .

فأجابه واصلا وقائلا :

لبيك لبيك من منادٍ له الندَى الرحبُ والندِىُّ
ها أنا بالباب عَبْدُ قِنٍّ قِبلتُه وجهُك السنىُّ
شرَّفه والداه باسمٍ شرَّفتَه أنتَ والنبىُّ

وسرَى[1] إلى ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة إلى بعض كرائمه شعراً يعتذر فيه من اللحاق بها ، آخره « إن شاء ربى أو شاء ابن عمار » ، فقال :

مولاى ، عندى لما تهوَى مساعدةٌ كما تتابعَ خطف البارق السارى
إن شئتَ فى البحر فاركب ظهر سابحةٍ أو شئت فى البر فاركب ظهر طيارِ
حتى تَحُلَّ وحِفظُ الله يكلؤُنا ساحاتِ قصرك واتركنى إلى دارى
وقبلَ خلْعِ نِجادِ السيف فاسعَ إلى ذاتِ الوشاح وخذ للحب بالثار
ضماً ولثماً يُغَنِّى الحلْىُ بينكما كما تَجاوَبُ أطيار بأسحار

كما حكى أبو الطاهر التميمى السرقسطى فى ديوان شعر ابن عمار من جمعه عند إيراد هذه القطعة .

وقال ابن بسام فى « كتاب الذخيرة » : ذُكر أن المعتمد أقام برهة بقرطبة [٩٤-١] يرفع بعض الأمور السلطانية / فسئم طَلَقَه ، وتذكر — على عادته — خلقه ، ودعته دواعى نفسه ، إلى قينته وكأسه ، فاستشار يومئذ ابنَ عمار — وكان خاطَبَه فى ذلك بشعر ، وظن عنده أهبة ، إذ كانت عليه منه بعض الرُّقبة — فوجده

---

(١) كذا فى الأصل ، وصوبها دوزى (بنوعباد ٢/٨٨) : ووشِى ، ولا وجه له هنا . ولا بأس بسَرى فى هذا الموضع .

أهتكَ سِتراً ، وأقلّ عن اللذات صبراً ، وأشار عليه بتعطيل الثغر ، وإضاعة الأمر ، وجاوبه على ذلك بهذا الشعر — وذكر الأبيات .

ووجّه المعتمدُ أبا بكر بن عمار إلى شِلْب متفقداً لأعمالها ، فلما ودعه أنشده وقد اهتاج شوقه إليها ، وتذكر معاهد صباه وعهوده فيها ، إذ كان والياً من قبل أبيه المعتضد عليها :

ألا حَيِّ أوطانى بشِلْبٍ ، أبا بكر ... وسلهن : هل عهدُ الوصال كما أدرى ؟
وسلِّم على قصر الشَّراجِبِ عن فتًى ... له أبداً شوقٌ إلى ذلك القصرِ
منازل آسادٍ وبيضٍ نواعمٍ ... فناهيك من غيلٍ وناهيك من خِدْر
وكم ليلةٍ قدْ بِتُّ أنعَمُ جِنْحَها ... بمُخْصِبةِ الأردافِ مُجدِبةِ الخصر
وبيضٍ وسمرٍ فاعلاتٍ بمهجتى ... فعالَ الصِّفاح البيض والأَسَلِ السُّمْر
ليالٍ بسَدِّ النهر لهواً قطعتُها ... بذات سوارٍ مثل منعطف البدر
نضتْ بُرُدَها عن غصن بان منعَّمٍ ... نضير كما انشق الكَمَامُ عن الزهر

واتصل بالمعتمد فى بعض سفاراته عنه إلى جليقية أن الطاغية أذفونش ثقفه هنالك ، ثم وردَ الخبرُ بعدُ بضدِّ ذلك ، فلما قدم ابنُ عمار كتب إليه المعتمد :

لما رأيتَ نأى الكرى عن ناظرى ... وصرفتُه لما انصرفتَ عليهِ
طلب البشيرُ بشارةً يحظى بها ... فوهبتُ[1] قلبى واعتذرت إليه

إلى غير ما أوردت من الدلائل على لطف المنزلة ، وتمكن الحظوة ، وتضاعف الأثرة ، وحب الرئاسة فى رأسه يدور ، إلى أن نفذ بمصرعه على يديه المقدور .

ومن بديع صنيع ابن عمار إتلاف أشعاره المقولة فى الامتِيَاح[2] ، وقصائده

---

(١) الأصل : فوهبته .

(٢) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٨٩) : الاصطناع ، ولا محل لهذا التبديل فإن الكلمة فى الأصل صحيحة ، وفى موضعها .

[٩٤ - ب] المصوغة فى الانتجاع ، ومحو آثارها ، فما يوقف منها اليوم على شىء سوى / أمداحه فى المعتضد عباد ، وما لا اعتبار به لنزوره .

وقد ألّف أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى شعرَه ورتبه على حروف المعجم ، ولا شك أنه بحث عنه فى مظانّه ، واستفرغ جهده فى جمعه ، فلم يقع له على غير تقريظ المعتضد ، وأرى ذلك خدمةً منه لابنه المعتمد .

وكان ابن عمار شاعر الأندلس غير مدافَع ولا منازَع ، إلا أن مساوئ أفعاله ذهبت بمحاسن أقواله : أدمن الخمر ، وهوّن على نفسه الغدر ، فأداه ذلك إلى رَداه ، وكان كالذى نفخ فوه وأوْكتْ[1] يداه . قال ابن بسام : ولما خبط أبو بكر بن عمار سَمُرَات[2] ملوك الأندلس بعصاه ، وتردد ينتجعهم بمكائده ورقاه — وإنما كان يطلب سلطاناً ينثر فى يده[3] سلكَه ، وملكاً يخلع على نفسه[4] ملكه — جعل أبا عبد الرحمن بن طاهر موقع همّه ، ووجْه أمّه .

ولما ألقى المعتمد لابن عمار ما بيده[5] ، بعثه على حرب ابن طاهر ، بُغَاءً لنفسه ، وبناءً على أسّه ، فأقبلَه وجوهَ الجياد ، وأخذ عليه بالثغور والأسداد ، حتى فتّ فى عضده ، وانتزع سلطانه من يده . ولما قال عزمه وفعل ، وقام وزنُ أمره واعتدل ، مد يده وبسطها ، وكفر نعمة ابن عباد وغمَطها ، وانتزى له من

---

(١) الأصل : وأركت . و« نفخ فوه وأوكت يداه » مثل معروف .

(٢) فى الأصل بدون شكل . وسمرات جمع سمرة وهو نوع من شجرة العضاة جيد الخشب ، والمراد على هذا أنه تردد عليهم بمدائحه (اللسان : ٦/٤٥) .

(٣) جعلها دوزى : يديه .

(٤) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٩٠) : عِطْفَه .

(٥) نص ابن حيان كما جاء فى الذخيرة لابن بسام (قسم ٣ ، جايانجوس ، ورقة ٥١) وعنه ينقل ابن الأبار هنا : ولما ألقى المعتمد لابن عمار ما بيده ، وقلده — على ما شرحناه فى أخباره — تدبير دولته وبلده ..

حِينه على مرسية ، وقعد بها مقعد الرؤساء ، وخاطب سلطانَه مخاطبة الأكفاء ، مستظهراً على ذلك بجر الأذيال ، و إفساد قلوب الرجال ، معتقداً[١] أن الرئاسة كأس يشربها ، وملاءة مجون يسحبها . فقيض له يومئذ من عبد الرحمن بن رشيق ، عدوٌّ فى ثياب صديق ، مِن رجلٍ مِدره خَتْرٍ ، وجُذَيلٍ[٢] خديعةٍ ومكر ، فلم يزل يطلُع عليه من الثنايا والشِّعاب ، حتى أخرجه من مُرْسِيَة لا كالشهاب[٣] . قال : فصار ابنُ عمار مع ابن رشيق تحت المثل : « أنفقتُ مالى وحجَّ الجمل ! » . وقد تقدم ذكر السبب فى اعتقال الرشيد بن المعتمد ، وحصوله مع ابن عمار بأيدى الروم[٤] ، وانهزام عسكره المحاصِر لمرسية . قال ابن بسام : وفى أثناء تلك الحال ، التى أفضت بالرشيد إلى الاعتقال ، كتب — يعنى ابن عمار — إلى المعتمد بهذه الأبيات :

أصدِّق ظنى أم أصِيخُ إلى صحبي ... وأقضى[٥] غريبى أم أعُوج مع الركبِ؟
إذا انقدتُ فى رأيي مشيتُ مع الهوى ... وإن أتعقَّبه نكصتُ على عَقْبي
/وإنى لتثنينى إليكَ مودةٌ ... يغيِّرها ما قد تعرَّض من ذنبى[٦] [٩٥-١]

---

(١) الأصل : ومعتقداً . ويبدو أن ناسخ الذخيرة أسقط عبارة قبل هذه الكلمة ، وبقيت واو العطف ، فحذفناها للسياق .

(٢) جعلها دوزى (بنو عباد : ٢/٩٠) : وجزيل بالزاى ، والصواب ما أثبتناه . وهو تضمين لقول أبى بكر الصديق فى خطبة السقيفة : وأنا جذيلها المُحَكَّك .

(٣) كذا فى الأصل ، وقد أسقط دوزى حرف « لا » ، وما ورد فى الأصل أصح .

(٤) الأصح أن يقال هنا : بأيدى الإفرنج ، لأن المراد هنا رامون بيرنجير الثانى صاحب برشلونة ، وكان مؤرخو الأندلس يسمون أهل برشلونة بالإفرنج ، وقد سبقت سياقة الخبر بتفصيل أوفى فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر .

(٥) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٩١) : وأفضِى ، ورسْم الأصل أصح .

(٦) وردت القافية فى القصيدة كلها بدون ياء : ذنبِ ، قربِ ، قلبِ .. الخ ، فأضفت الضمير للمعنى .

فما أغرب الأيام فيما قضت به ترينىَ بُعْدى عنك آنسَ من قُربى
أخافُك للحق الذى لك فى دمى وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

قال : وهذا البيت — على سهولة مبناه — من أحسن ما قيل فى معناه ، وبمثله فلتُخدع الألباب ، وتُستعطف الأعداء للأحباب . إلا أن المصراع الأول كأنه شىء تكهَّنه من شانه ، وطِيَرَة ألقاها الله على لسانه . وصَدق : كان له فى عنقه رِبْقٌ ، وفى دمه حق ، حتى احتال له فناله ، والمرء يعجز لا المحالة .

وفيها يقول :

وكم قد فَرَتْ يمناك بى من ضريبةٍ ولا غرو يوماً أن يفلَّ من غَربى
وأعلمُ أن العفو منك سجيةٌ فلم يبق إلا أن تُخفِّفَ من عَتْبى
ولى حسناتٌ لو أمتُّ ببعضها إلى الدهر لم يُرتعْ لنائبةٍ سربى

فأجابه المعتمد بقوله :

تقدمْ إلى ما اعتدتَ عندى من الرحبِ وردْ تَلْقَكَ العُتبى حجاباً عن العتبِ
متى تَلْقَنى تَلْقَ الذى قد بَلَوْتَه صفوحاً عن الجانى رؤوفاً عن الصحب
سأوليك منى ما عهدتَ من الرضا وأصفح عما كان — إن كان — من ذنب
فما أشعرَ الرحمٰنُ قلبىَ قسوةً ولا صار نسيانُ الأذِمَّةِ من شِعْبى
تكلَّفتُه أبغى به لك سلوةً وكيف يعانى الشعرَ مشتركُ اللب ؟

فلم يزده جوابُ المعتمد إلا توحشاً ونفاراً ، وتوقفاً عن اللحاق به وازوراراً .

هذا ما أورد ابنُ بسام من خبر ابن عمار فى هذه القضية ، وابن قاسم الشَّلْبى — فى تاريخه المجموع فى أخبار المعتمد محمد بن عباد — أمتنُ علماً بها ، وأحسن سرداً لها ، وقد مضى من ذلك ويأتى ما يصح به قولى إن شاء الله تعالى .

وأما أبو الطاهر التميمى فحَكى أنّ ابنَ عمار كتب إلى المعتمد بحال أوجبت إيحاشاً :

* أصدِّق ظنى أم أصيخُ إلى صحبى *

الأبيات المتقدمة إلى آخرها ، وزاد فيها بيتا وهو :

/ولا بدّ ما بينى و بينك من نَثاً[1] يُطبِّقها ما بين شرق إلى غربِ [٩٥ - ب]

وأورد جوابَ المعتمد عنها كما تقدم ، ثم قال بعَقب ذلك : وقال أيضاً ، وكتب بها إليه — يعنى المعتمد — وقد ارتهن زعيمُ برشلونة ابنَه الرشيد لمالٍ توقَّف له[2] عنه وظُن بابن عمار فى ذلك سعىٌ ، قال : وذلك فى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة :

أأركبُ قَصْدى[3] أم أعُوجُ مع الركبِ فقد صرتُ من أمرى على مركبٍ صعبِ؟
وأصبحتُ لا أدرى أفى البُعد راحتى فأجعله حظى ، أم الخيرُ فى القرب
على أننى أدرى بأنك مؤثرٌ على كل حال ، ما يزحزح من كربى
أيُظلِم فى عينى كذا قمرُ الدجى وتنبو بكفى شفرةُ الصارمِ العضب ؟
[حنانيك فيمن][4] أنت شاهد جِدِّه وليس له — حاشا انتصاحك — من حسْب
[وما جئتُ شيئا فيه بَغْى][5] بطالب[6] يضاف به رأيى إلى الضعف والخب[7] .

---

(١) نثاً — على وزن نَوًى — هو الحديث الذى ينتشر ويذيع . (اللسان : ٢٠/١٧١).

(٢) الأصل : لهم .

(٣) فى قلائد العقيان لابن خاقان (ص ٩٠) : أأسلُك قصداً .

(٤ و ٥) بياض فى الأصل ، والتكملة من القلائد (ص ٩٠) .

(٦) فى القلائد : الطالب .

(٧) فى القلائد : العُجب .

[سِوى أننى أسلَمْتَنى لمُلمـــةٍ][1] فَلَلْتَ بها[2] حدى وكسَّرت من غَربى
أما إنه لولا [عوارفك][3] التى جرت فىَّ جرْى الماء فى الغصن الرطب
[لما سُمتُ نفسـ]ى[4] ما أسوم من الأذى ولا قلتُ إن الذنب فى ما جرى ذنبى
سأستمنِـحُ الرُّحْمى لديك ضراعةً وأسألُ سُقْيا من تَجاوُزك العذب
وإن نفحتْنى من سمائك حَرْجفٌ[5] سأهتف : يا بردَ النسيم على قلبى !

فأجابه المعتمد :

لدىّ لك العُتبى تُزاحُ عن العَتَبِ وسعيُك عندى لا يُضاف إلى ذنبِ
وأعزِزْ علينا أن تصيبَك وحشةٌ وأنسُك ما تدريه فيك من الحب
فدَعْ عنك سوءَ الظنِّ بى وتَعَدَّهُ إلى غيره فهو المُمَكَّن فى القلب
قريضُك قد أبدى توحُّشَ جانبٍ فجاوبت تأنيساً وعِلمُك بى حسبى
[٩٦-١] /تكلَّفْته أبغى به لك سَلوةً وكيف يعانى الشعرَ مشترَكُ اللب ؟

هكذا أتى بالقطعتين وجوابهما على نسق ، وترجم فى الثانية بالتفرقة بينها وبين الأولى ، فخالف ابنَ قاسم وابنَ بسام كما ترى ؛ ويحتمل أن تكونا فى قصة واحدة .

قال أبو الطاهر : وقد كان خاطب أبا الوليد بن زيدون فى أول تعلقه — يعنى بالسلطان — بأبيات استعاد بعضَها فى هذه القطعة ، وهى :

---

(١) بياض فى الأصل ، والتكملة من القلائد (ص ٩١) .
(٢) الأصل « به » ، والتصويب من القلائد .
(٣ و ٤) بياض بالأصل ، والتكملة من القلائد (ص ٩١) .
(٥) الريح الباردة الشديدة الهبوب .

تأملتُ منك البدرَ فى ليلةِ الخطبِ ونلتُ لديكَ الخصبَ فى زمن الجدبِ
وجرّدتُ من محروسِ جاهِك مرهفاً تولّتْ به خيلُ الحوادث عن حربى
وما زلتُ من نعماك فى ظل لذةٍ تذكّرُنى أيامُها زمنَ الحب
إذِ العيشُ فى أفياء ظلك باردٌ فمن مرتع خصبٍ إلى موردٍ عذب
أحِينَ سقَى صوبُ اعتنائك ساحتى فنعّمها واهتزّ روضىَ فى تُرْبى
ثَنيتَ لمطفٍ قد ثنيتُ مدائحى عليه ، وسِربٍ قد بَدَأتُ به سِربى ؟
أما إنه لولا عوارفُك التى جرتْ فىّ جرىَ الماء فى الغصن الرطب
لما ذُدتُ طيرَ الودّ عن شجر القِلَى ولا صنتُ وجهَ الحمد عن كَلَفِ العَتْب
ولكنْ سَأَكْنِى بالوفاء عن الجفا وأرضَى ببعدٍ بعدَ ما كان من قرب
وإن لفحتْنى من سمائك حَرْجَفٌ سأهتف : يا بردَ النسيم على قلبى !
وإنى إذا قَلَدتُ جاهَك مطلبى وأخفقتُ فيه ، قلت : يازمنى حسبى[1] !
أيُظلِم فى عينى كذا قمرُ الدجى وتنبو بكفى شفرةُ الصارم العَضْب ؟

وهذا أيضا مما نبّهتُ عليه قبلُ ، وعلى وقوعه نادراً ، حتى لا تعتل صحة المحكى عنه من ضياع منظوماته فى الانتجاع ؛ على أن حكم العتاب خارج عن هذا الباب .

وأما قصائده الشهيرة فى المعتمد وبنيه ، فلتَوْفِيَة حق الاصطناع ، وتعفِيَة ما أوقعه فى الارتياع ، ودفعه / إلى الاستعطاف والاستشفاع . وإن أطلت [٩٦-٢] — بحسب الاضطرار — الكلام ، واستسهلتُ فى دعوى الاختصار للذامَ ، فلنراية هذه الأخبار ، ورعاية ما يتخللها من الأشعار .

---

(١) وردت القوافى كلها دون الضمير المتصل .

ونعود إلى خبر ابن رشيق مع ابن عمار وما آل إليه أمره بعد ذلك : ذَكر أبو بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشلبى ما تلخيصه وإيجازه — مع زيادات تخيرتها ، وبعضه على المعنى دون اللفظ — أن ابن رشيق لما قرئ كتابُه — المتضمنُ دخولَه مرسية — بإشبيلية ، ارتاح ابن عمار وأعمل نظره فى اللحاق بها ، وأشار على المعتمد بذلك ، فما خالفه فُواقاً . فلم يترك ابنُ عمار بإشبيلية فى مِلك سلطانِه ، ولا مِلْكِ أحـــد من معارفه ، فرساً عتيقاً ولا مطيةً ولا زاملةً ، إلا استخرج ذلك من أيديهم رغبةً ورهبةً ، حتى لاجتمع له مائةُ جَنيبة ومائة زاملةٍ ، وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعهم ، من الديباج والخز إلى ما دون ذلك من نفيس الكُسا ، ليعمّ بذلك أهل مُرسية على قدر منازلهم عنده . ولم يَخْفَ عن ابن عباد وجهُ مراده ، فلما سلم عليه مودعاً قال له : « سر إلى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع » ، فقال : « لستَ بمخدوع ولـكنك مضطر » ، فحلم عنه .

وخرج من إشبيلية على باب مَقْرَانَة[1] ، وأقام بظاهرها أربعة أيام يستوفى أغراضه ، ثم رفع ألويته وقرع طبوله ، وسار لا يمر ببلد من أعمال ابن عباد إلا استخرج منه كل ذخيرة . حتى وصل إلى مرسية فدخلها فى يوم مشهور ، وابن رشيق بين يديه قد برز له ، وخرج يزفه إلى القصر . وجلس فى اليوم الثانى مجلسَ التهنئة للخواص والعوام ، فسجعت الشعراء بأمداحه ، وقد تزيّى بزىّ

---

(١) مَقْرَانة — وتكتب أيضاً : مَقْرِينة — حى من أحياء إشبيلية ، سمى بهذا الاسم نسبة إلى قصر رومانى قديم كان فيه يسمى قصر مكاريوس **Macarius** . وحتى القرن الماضى كانت هناك حديقة تسمى **Campo de los Macarios** ، وقد زالت هذه الحديقة الآن ، وحلت محلها مبان حديثة . ويقع حى مقرينة شمال البلد ، ولا زال قسم من السور القديم باقياً هناك ، وفيه باب مقرينة المذكور هنا ، وهو ليس الباب العربى القديم ، بل هو باب جديد وضع فى القرن الثامن عشر ، ولا يمتاز بأى جمال .

C : RAFAEL LAFFON, *Sevilla* (Barcelona, 1958) p. 29.

ابن عباد فى حمل الطَّويلة على رأسه ، وحكاه فى التصيير[1] وكتب : « ينفذ هذا إن شاء الله » فى أسفل قرطاسه ، وتختَّم فى كلتا يديه . وبلغه أن ابن عبد العزيز عاب ذلك عليه ، فكتب إليه :

قل للوزير وليس رأى وزير [أن يُتبَعَ التنزير بالتنديرِ][2]
ان الوزارة لو سَلكت سبيلَها وقف على التعزيز والتوقيرِ
وأرى الفكاهة جُلّ ما تأتى به [رُحماك][3] فى التعجيز والتصدير
وصلت دُعابتُك التى أهديتَها فى خاتَم التأمين والتأمير [٩٧-١]
وأخلتها للظاهرىّ[4] ، فإن تكنْ فخليقـــة التقديس والتطهير
ولعل يوماً أن يصيِّر نعتهُ[5] فى طينة التقديم والتأخير
وترى بلنسيَةَ وأنت قُدارها[6] سيناطها التَّدميرُ من تُدْمِير

---

(١) الأصل : التصير ، وقد صوبها دوزى كما أثبتناه (بنوعباد : ٢/٩٨) . والتصيير يراد به هنا التوقيع على الأوامر ، كأن يكتب مثلا : يصير هذا ، أى ينفذ . راجع تعليق دوزى اللاتينى (هامش ٩٧ من نفس الصفحة) حيث يقول إن معنى الفعل فى هذه الحالة : **effecit ut fieret**

(٢) بياض بالأصل ، والتكملة من القلائد (ص ٦٤ ، فى ترجمة أبى عبد الرحمن محمد ابن طاهر) . وقد جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٩٨) : « أن يتبع التنديرُ بالتنديرِ » .

(٣) بياض فى الأصل ، والتكملة من القلائد (ص ٦٤) . وقد ورد البيت هناك :

وأرى الفكاهة جلّ ما تأتى به رحماك فى التصدير والتظفير

(٤) المراد أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وقد سبق فى ترجمته ما يدل على اشتهاره بالفكاهة والنوادر .

(٥) فى القلائد : نَقشُه .

(٦) قُدار : رجل من ثمود يذهب المفسرون إلى أنه هو الذى أشار على قومه بعقر ناقة النبى صالح عليه السلام ، ويقولون إنه هو المراد بقوله تعالى فى سورة الشمس : « **إذ انبعث أشقاها** ، فقال لهم رسولُ الله : ناقةَ الله وسقياها ، فكذبوه ، فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يخاف عقباها » . وفى الأمثال : أشأم من قُدار .

وحكى غيره أن ابن طاهر هو الذى غمز على رسول ابن عمار المُعْلِم بخاتميه ، وأنه نسب أحدهما للمؤتمن بن هود والثانى لأذفونش بن فردلند[١] . وترجم أبو الطاهر التميمى على هذه القطعة فى مجموعه من شعر ابن عمار ، قال : وله للوزير[٢] الأجل أبى بكر بن عبد العزيز وقد ندَّر فيه حين بلغه أن أذفونش ملك الروم أعطاه خاتما عند اجتماعه به ولِياذِه ، فراراً من الوحشة الواقعة بينه وبين ابن عباد ، وتخوفاً منه ، فقال[٣] : أخاتم التأمير أم خاتم التأمين ؟ فقال ابن عمار ، واعتقد[٤] إنفاذها إليه ، وذكر الأبيات وزاد فى آخرها :

فرسا رهان أتتا فتجاريا لنقول فى التقديم والتأخير

قال ابن بسام : واستعمل ابنُ عمار خِساسَ عبيده على الحصون ، وأقطعهم الضياعَ ، وأعرض عن النصيح ، وأقبل على الغَبوق والصَّبوح ، وابنُ رشيق فى خلال ذلك يستبدل أولئك الأوباش ببنى إخوته وأخواته ، وكانوا جماعة . حتى إذا صارت عن آخرها فى ضبطه ، وعلم أن أمر ابن عمار قد نُقل لابن عباد ،

---

(١) المراد ألفونسو بن فرناندو الأول ملك ليون الذى وحد قشتالة وليون بعد حروب طويلة أعقبت موت أبيه سانشو الملقب بالكبير **Sancho el Mayor** . وكان فرناندو الأول من أكبر الملوك الذين ساروا بالحرب مع المسلمين المعروفة بالريكونكيستا ، ولهذا يوصف بالعظيم **El Magno** . وخلف فرناندو الأول هـذا ابناه : سانشو الثانى ملكاً على قشتالة وألفونسو على ليون ، ثم دارت حروب طويلة بين الأخوين انهزم ألفونسو خلالها ولجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة . وبعد موت أخيه سانشو اعتلى عرش قشتالة وليون باسم ألفونسو السادس ، وهو الذى استولى على طليطلة ، ثم انهزم فى موقعة الزلاقة . ومعظم علاقات ملوك الطوائف مع ألفونسو السادس ابن فرناندو الأول هذا .

Cf : RAFAEL BALLESTEROS Y BERETTA, *op. cit*, II, p.296 sqq.

(٢) فى الأصل : بالوزير ، وما أثبتناه أصح (وانظر أيضاً : بنوعباد ٢/٩٩) والمراد : ولابن عمار مخاطباً الوزير أبا بكر بن عبد العزيز .

(٣) أى قال ابن عبد العزيز متندراً بابن عمار .

(٤) اعتقد هنا معناها : عزم على ، أو قرّر . . وهو استعمال شائع فى الأندلس .

قطع عنه تلك المواد ، وأغرى الأجناد بطلب أرزاقهم منه ، فأيقظته الضرورة من سنة البطالة . وفى مدة إقبـــاله على سفاهته ، كان ابن عباد يستلطفه بأعيان الأصحاب ، فيذكّرونه بالأذِمَّة ويوعدونه على [... ... ...] وجاهرَ به[1]

وكتب إليه المعتمد :

تغيَّر لى ـ فيمن تغير ـ حارثُ ورب خليلٍ غيرته الحوادثُ
أحارثُ إن شوركتُ فيكَ فطالما نَعِمنا وما بينى وبينكَ ثالثُ

فجاوبه ابن عمار :

لكَ المثَلُ الأعلى ، وما أنا حارثُ ولا أنا ممن غيرته الحوادثُ
/ولا شاركتك الشمسُ فىّ وإنهُ ليُنأى بحظى منك ثانٍ وثالثُ [٩٧-ب]
فديتُك ، ما للبِشر لم يَسْرِ برقهُ ولا نَفحتْ تلك السجايا الدمائثُ
أظن الذى بينى وبينَك أذهبتْ حلاوَتَه عنى الرجالُ الأخابثُ
تنكَّرتَ ، لا أنى لفضلك ناكرٌ لدىَّ ، ولا أنى لعهدك ناكثُ
ولكن ظنونٌ ساعدتْها نمائمٌ كما ساعدتْ صوت المثانى المثالثُ
أبعدَ انقِضَا خمسٍ وعشرين حجةً[2] تجافتْ لنا عنها الخطوبُ الكوارثُ
مضتْ لم تُرَبْ منى أمورٌ شوائبٌ ولا تُليَتْ عنى مساع خبائثُ

---

(١) الفراغ بين الحواصر بياض بالأصل ، وعبارة « وجاهر به » يمكن أن تقرأ « رجا هربه »، وهكذا قرأها دوزى (بنوعباد: ٢/١٠١)، ولكننى أرى أن الصواب ما أثبته . ويمكن أن تقرأ العبارة هكذا : فيذكرونه بالأذمة ، ويوعدونه على [ما ذهب إليه من العصيان] وجاهر به .

(٢) فى الذخيرة (قسم ٢ مخطوطة بغداد ، ص ٢٦٨) جاء صدر هذا البيت هكذا :

* ألمّا مضت خمسٌ وعشرون حجة *

وهو أبلغ ، وأشبه بابن عمار .

حللتَ يداً بى هكذا ، وتركتَنى نِهاباً ، ولِلأيام أيدٍ عوابثُ
وهل أنا إلا عبدُ طاعتِك التى إذا مِتُّ عنها قام بعدىَ وارثُ ؟
أعِدْ نظراً ، لا توهنِ الرأىَ ، إنهُ قديماً كَبَا هافٍ وأدرك رائثُ
ستذكُرنى إن بان حَبلى وأصبحتْ تئنُّ بكفيكَ الحبالُ الرثائث
وتطلُبُنى إن غاب للرأى حاضرٌ وقد غاب منى للخواطر باعث
أعوذُ بعهدٍ نُطتُهُ بكَ أن تُرى تحلُّ عراه العاقداتُ النوافث

وذكر ابن بسام هذا الشعر بعد أن قال : وأفضت الحال بالرشيد إلى الاعتقال بأيدى نصارى الإفرنجة فى جملة من المال كانوا أكثروا بها[1] ، فحبسوا الرشيد بسببها إلى أن افتكّه أبوه المعتمد فى خبر طويل . وابن عمار صاحب ذلك الرحيل[2] ، والملوم فى المعلوم من أمره والمجهول ، وفسادُ حاله عند المعتمد يتزايد ، وتدابُرُه يتساند . وفى أثناء ماوقع من تدبير تلك الأمور ، ونجوم ذلك الاستيحاش والتغيير ، خاطبه المعتمد عاتباً متمثلا بهذين البيتين — وقد كان خرج عنه — وأوردهما[3] وجواب ابن عمار إلى آخره .

---

(١) سبق أن ذكرنا هذا الخبر فى تعليقاتنا على ترجمة أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، والمراد هنا أن رامون بيرنجير الثانى أكثر فى المطالبة بالمال الذى وعده به ابن عمار فى نظير معاونته فى الحصول على مرسية لتضم إلى أملاك المعتمد بن عباد .

(٢) فى الأصل : الرعيل ، وجعلها دوزى (بتوعباد : ٢/١٠٢) : الدغيل ، والتصويب من الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٦٧) ، وابن عمار كان صاحب الفكرة فى الخروج إلى شرق الأندلس مع الرشيد بن المعتمد بجيش من إشبيلية للاستيلاء على مرسية — وبلنسية إن أمكن — بمساعدة كونت برشلونة فى الأولى وألفونسو السادس فى الثانية . وقد اشتهر ابن عمار بمداخلته للنصارى وقدرته على إقناعهم وكسب جانبهم ، ولهذا رأينا المعتمد يقول له عند وداعه : « إننى لست مخدوعاً » فرد عليه ابن عمار : « إنك لست بمخدوع ، ولكنك مضطر » ، أى مضطر إلى الاستعانة به فى هذا المطلب .

(٣) أى أن ابن بسام أوردهما .

قال ابن قاسم : فكان لاينثنى عن هواه ، ولا يزلّ عن مرقاه ، حتى قال له من كان يعصيه من نصّاحه : / تعرف الحصنَ الفلانى ؟ قال : نعم ، أليس صاحبه [٩٨ - ١] فلان من عبيدى ؟ فيقول له : لا والله ! ما فيه إلا فلان ابن أخى ابن رشيق ، أو ابن أخته[١] . وجعل يعدد له المعاقل ، ويذكر خروجها من أيدى ثقاته ورجاله ، فسُقط فى يده ، وفر على وجهه من مرسية إلى جليقية ، لاحقاً بأذفونش بن فردلند[٢] ، وشاكياً إليه غدرَ ابن رشيق رجاء إعدائه عليه . لم يذكر ابن قاسم مروره ببلنسيّة فى خروجه من مرسية ، وهو صحيح . وفى ذلك يقول يخاطب ابن عبد العزيز صاحبها ، وقد أخرج إلى لقائه رجلا استعجله[٣] :

تناهيتُمُ فى برنا لو سمحتمُ بوجهِ صديقٍ فى اللقاء وسيمِ
وسَلسَلتمُ راحَ البشاشة بيننا لو أنكم ساعدتمُ بنديم
سألتمسُ العذرَ الجميلَ عن العُلا وأحتالُ للفضلِ احتيالَ كريمِ
وأثنى على روض الطلاقة بالجنى[٤] وإن لم أفز من نَشْره بنسيم

---

(١) جاء فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى : « وقدم إلى مرسية ابنُ رشيق ، فكان يطوّيها وينشرها ، وشَبَّك عليه المعاقل بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مدة غفلة ابن عمار عنه ، وإقباله على راحته » .

(٢) الأصل : فرندلند . والصيغة العربية للاسم أقرب إلى صورته الأصلية Ferdinandus وهى مأخوذة من صيغة الأبلاتيف للاسم : Ferdinando مع قلب حرف n الأول إلى l . والمراد ألفونسو السادس .

وانظر عن محاولات ابن عمار مع ألفونسو السادس « مذكرات الأمير عبد الله الزيرى» ص ٨٠ — ٨١ .

(٣) جاء فى الذخيرة (قسم ٢ ، مخطوطة بغداد ، ص ٢٦٠) : « اجتاز ببنى عبد العزيز على بلنسية ، وكانوا يضمرون عداوته ، وتخلفوا عن لقائه ، وناب فى ذلك عنهم أقوام عوام ، فكتب إليهم . . »

(٤) الذخيرة (نفس المخطوطة والصفحة) : بالحيا .

بخلتم بأعيانِ الرجال[1] على النوى فـــلم تصِلُونا منهمُ بزعيم
ولـكنْ سأستعدِى الوفاء وأقتضِى سماحَك بالأنسِ اقتضاء غريم

وحكى ابن بسام — فى أخبار ابن عمار من تأليفه — أنه قال هذا الشعر فى بعض رسالاته عن المعتمد واجتيازه ببلنسية ، لا عند فراره من مرسية .

قال ابن القاسم : وقد كان ابن رشيق قدَّم الحزمَ ، فاستمال أذفونش بألطافه وهداياه ، وغيَّره على ابن عمار ، فانصرف خائباً . ويقال إنه قال له بلسانه : « يا ابن عمار ، مثلك مثل السارق ، سرق السرقة فضيَّعها حتى سُرقت منه » . وعند ذلك عدل إلى سرقسطة ، بظاهِر الخدمة لواليها المؤتمن أبى عمر يوسف بن المقتدر بن هود والنيابة عنه بالوزارة ، فأمر له بدار تحمله ومن معه ، وأدرَّ عليه من الإجراء ما وسِعهم ووسِعه ، وتجافى عنه مع ذلك فأقام على البطالة مقبلا ، وفى ذلك يقول وقد عُذِل عن الإدمان :

نقمتم علىَّ الراحَ أدمِنُ شُربَها وقلتم : فتى لهوٍ وليس فتى مجدِ
[٩٨-ب] /ومن ذا الذى قاد الجيادَ إلى الوغى . سواى، ومن أعطى كثيراً ولم يُكْدِ؟
فدَيتُكمُ . لم تفهموا السرَّ ، إنما قليتُكمُ جهدى فأبعدتكم جهدى

وحكى غيره أنه سئم تلك الحالة ، فرحل إلى صاحب لاردة المظفر حسام الدولة أبى عمر يوسف بن سليمان المستعين ، وكان أكبر أولاده والذى يُحادّ المقتدر لما كان عليه من الشجاعة والأدب ، المفضل به على أهل بيته[2] ، فأكرمه

---

(١) الذخيرة : ضننتم بأعلاق الرجال .

(٢) هنا خطأ فى سرد أسماء أمراء بنى هود وتسلسلهم ، ولتصحيحه نورد فيما يلى جدولا بأمراء هذه الأسرة ليستعين به القارئ على تصحيح الخطأ :

سليمان بن محمد بن هود :

(أول من استبد بالثغر الأعلى من بنى هود . استولى على لاردة سنة ٤٣١ ثم سرقسطة وبقية الثغر سنة ٤٣٨ وقبل موته قسم أملاكه بين أولاده الخمسة) :

- أحمد المقتدر (سرقسطة . ثم ضم أملاك إخوته عدا يوسف حسام الدولة المظفر صاحب لاردة، ثم أخرجه منها وسجنه فى حصن روطة . توفى بين ٤٧٤ و ٤٧٥ بعد أن قسم أملاكه بين ابنيه :)
  - يوسف الحاجب المؤتمن (سرقسطة وغربى الإمارة ، ثم ضم أملاك أخيه المنذر)
    - أحمد المستعين (ورث الإمارة كلها . توفى فى رجب ٥٠١/يناير ١١١٠)
      - عبد الملك عماد الدولة (حكم الإمارة كلها حتى أخرجه منها القائد المرابطى محمد بن الحاج سنة ٥٠٣/١١٠٩)
  - المنذر (طرطوشة ودانية والجزء الشرقى من الإمارة)
- يوسف حسام الدولة المظفر (لاردة)
- محمد (قلعة أيوب)
- لُبّ (وشقة)
- المنذر (تطيلة)

سنة ٥١٢ / ١١١٨ سقطت سرقسطة والثغر الأعلى نهائياً فى يد ألفونسو المحارب بعد وفاة محمد بن عبد الله مزدلى آخر قواد المرابطين وحكام المسلمين فى الثغر الأعلى .

وأنزله ثم [.....][1] وكرّ عائداً إلى سرقسطة . وبلاردة قال قصيدته الفريدة التى أولها :

علىّ ، وإلا ما بكاء الغمائمِ وفىّ ، وإلا ما نِياحُ الحمائمِ ؟

و[. . .][2] أنفذها إلى المعتمد وهى تُنيف على تسعين بيتاً ، مَرّ له فيها إحسان كثير . ومن فاحش الغلط قول ابن بسام أن ابن عمار قال هذه القصيدة لما خاف من المعتضد لغلبته على ابنه المعتمد ، ففر من إشبيلية ولحق بشرق الأندلس ، وتمكن من المؤتمن بن هود . قال : ومن هنالك خاطبه بها ، فلما قرعتْ سمع المعتمد وجّه عن ابن عمار على الترغيب والتمكين واستوزره عدة سنين ، إلى الميقات المضروب والأجل المكتوب ؛ حكى ذلك فى « كتاب الذخيرة »[3] .

وفى أخبار ابن عمار من تأليفه — ولا أدرى كيف غاب عنه — أن ما ادعاه — لو صح — كان قبل الستين أو الخمسين وأربعمائة ، وولاية المؤتمن فى جمادى الأولى سنة أربع وسبعين . ولِقائل أن يقول : لعل ابن عمار صحبه فى حياة أبيه المقتدر ، وهو إذ ذاك مرشح لمكانه ، فيلزمه أن يأتى على مقاله بما يؤمّنه من إبطاله . والمتعارف أن ابن عمار لم يصحب المؤتمن بسرقسطة ، إلا عند فراره من حرسية . فغلطُ ابنِ بسام لا خفاء به ولا امتراء فيه .

قال ابن قاسم : واتفق أن انتزى عامل لابن هود — يعنى المؤتمن —

— انظر بحثنا : سرقسطة والثغر الأعلى فى عصر المرابطين . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ١١ ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ .

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بياض بالأصل ، ويبدو أنه لم يسقط شىء ، فإن الكلام متصل فى غير حاجة إلى زيادة .

(٣) قال ابن بسام ذلك فى القسم الثانى (مخطوطة بغداد) ص ٢٤٩ .

فى معقل منيع من أعماله ، وكانت بينه وبين ابن عمار معرفة ، فضمن له استنزاله . وسار إليه ، فلما نزل بساحته تشوّف ذلك العامل إلى بِرِّه ، ولم ير بأساً فى إرقائه إلى قصبة حِصنه فى رَجُلين من جملته ، فأوعز ابنُ عمار إلى الصاعدَين معه أن : « صُبّا سيفَكما عليه إذا رأيتمانى أماشيه ويدى فى يده ، ولو قتلتمانى وإياه » ، ففعلا ذلك . وفر أصحابه عند قتله وألقوا بأيديهم إلى ابن عمار ، متطارحين / عليه [٩٩ - ١] ومستشفعين به إلى المؤتمن ، فضمن لهم تأمينه إياهم وصفحه عن جنايتهم ، وخاطبه بذلك فورد جوابه بإمضاء ما التزمه عنه من الإغضاء ، ولَطُف محلُّه عنده واستأنف الاعتناء بشؤونه ، فخاطب المعتمد فى تسريح عياله وأبنائه الذين بإشبيلية ، فلم يَبعُد له عن الإسعاف . على أنه كتب فى أثناء مراجعته يحذره منه :

والشيخ لا يترك أخـــلاقهُ حتى يُوارَى فى ثرى رمْسِهِ
إذا ارعوى عاد إلى ضدهِ[1] كذى الضَّنى عاد إلى نكسه

قال : وكان إقبالُ الدولة علىّ بن مجاهد صاحب دانية ، قبل غلبة ابن هود عليه — يعنى المقتدر ، وذلك فى شعبان من سنة ثمان وستين وأربعمائة — قد استعمل ابنَه سراجَ الدولة على معقل شَقُورَة ، فلما استولى المقتدر على دانية واحتمل أباه إلى سرقسطة ، انفرد هو بشقورة و [ضبطها][2] ثم مات حتف أنفه وخلف على حُرَمه وولده فى قصبتها عبدَيْن ، أبوهما عبد لأبيه من سَبْى سردانية ، هما إبراهيم وعبد الجبار ابنا سُهَيْل ، فرأيا أنهما لا يستقلان بضبط المعقل ، فجعلا يساومان به الرؤساء المحيطين بهما ، حتى وصلت إشارتهما[3] إلى المؤتمن بن هود . فللذى اتفق لابن عمار قبلُ مع عامل المؤتمن المنتزى عليه ،

---

(١) المشهور : إذا ارعوى عاد إلى غيّه .
(٢) بياض فى الأصل ، وقد أضفت هذه الكلمة للسياق .
(٣) الأصل : إشادتهما .

سولت له نفسه الخائنة إعمال تلك الحيلة فى ابنى سُهَيل ، أو استنزالهما بالإرغاب فى الثمن ، فضمن لابن هود أمرهما ، وطلب منه تجهيزه فى عسكر يستعين به على محاولته ، فأسعفه . ولما وصل إلى حضيض شقورة لم يقدِّم شيئاً على الصعود إليهما مع صاحبيه الملازمين له ، وهما « جابر » و « هادٍ » اللذان يقول فيهما من كلمة له :

عطَّلتُ من حَلْيِ الرِّكاب جيادى ... وسَلبتُ أعناقَ الرجال صِعادى

فإذا كُسرتُ فثمَّ خِدنٌ « جابرٌ » ... وإذا ضَلَلتُ فثم آخرُ « هادِ »

كذا أنشد ابن قاسم ، ولا يُعرف هـذا البيت فى قصيدته . وهى شهيرة جليلة ، يراجِـع بها أبا عيسى بنَ لَبُون أو أخاه أبا محمد . والبيت الأول يرويه أبو الطاهر التميمى :

[٩٩-ب] / عَطّلتُ من حَلْيِ السروج جيادى ... وسلبتُ أعناق المَطى صِعادى

قال : ولما انتهى ابن عمار من مصعدها إلى دَرجٍ لا يتخطاه الصاعد حتى يُجذَب بضَبْعِه ، تقدم هو فرُفع بالأيدى ، وأشير على صاحبيه فوَلَّيا منحدرين . واحتُمل هو إلى ذِروة القصبة فشد وِثاقه ، وانصرف عسكر سرقسطة . وكان ابن عمار قد أحقد هذين العبدين ، حين كتب أيامَ رئاسته برسية إليهما بشعر أوله :

شمختْ بكم فشمختُمُ الأجبالُ ... [... ...][1] تستنزل الأفعالُ

وبعد قبضهما عليه طلبا بيعه من رؤساء الأندلس ، فتثاقلوا جميعاً عن ذلك ، وخفَّ ابنُ عباد إليه ، فأنفذ نحوَهما بكل ما سألاه ابنَه يزيد المسمى بالراضى ، فنزلا على حكمه وأسلماها إليه وإياه إليه[2] . فقدَّم على الحصن ، وانصرف إلى أبيه

(١) بياض فى الأصل .

(٢) أى أسلما قصبة شقورة وابن عمار إلى يزيد الراضى بن المعتمد .

المعتمد وهو بقرطبة ، وابن عمار بين يديه مقيد بين عِدْلَىْ تِبْنٍ على هُجُنِ زوامل العسكر ، وميل به إلى سجن قد أعد له . وعند قدوم الراضى شقورة لتسلمه كتب إليه :

قالوا : أتى الراضى ، فقلتُ : لعلها[1] خُلعت عليه من صفات أبيهِ
فألمّ جرى فعـى المؤيد واهبا لىَ من رضاه ومن أمان أخيـه
قالوا : نعم ، فوضعتُ خدى فى الثرى شـكراً له ، وتيمّناً ببنيه
يا أيها الراضى وإن لم تلقَنى من صفحة الراضى بما أدريه
هَبْكَ احتجبتَ لوجهِ عذرٍ بيّنٍ بَذلُ الشفاعةِ أىُّ عذرٍ فيه ؟
سهّلْ على يدك الكريمة أحرفاً فى من أسرتَ فتنثنى تَفْديه

ولما قارب قرطبةَ قال يخاطب المأمونَ الفتح بن المعتمد مستشفعاً به :

هلا سألت شفاعةَ المأمونِ أو قلتَ ما فى نفسه يكفينى ؟
ما ضر لو نبّهتَـه بتحيةٍ يسرى النسيمُ بها على دارِين[2]

يقول فيها :

بيدٍ من « المأمون » أوثقُ عصمةٍ لو أن أمرى فى يد المأمونِ[3]

---

(١) فى الأصل : لعله .

(٢) المراد هنا دارِين التى ذكرها ياقوت (٤/٢٥) وقال إنها فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ، وذِكرُها كثير التوارد فى الشعر العربى . والمراد – إذا صح هذا – تحية تحمل عطر المسك .

(٣) فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٠) :

بيدى من المأمون أوثق عصمة ولو أن أمرى فى يد المأمـون

وهذه الرواية أصح . وقد وردت « بيدى » فى المخطوط مصحفة : يبدى .

وعلى هذه الصورة تكون « المأمون » الثانية كناية عن المعتمد نفسه ووصفاً له بأنه مأمون .

[١٠٠-١] /أمرى إلى ملكٍ إليـــه أمره وكفَاه من فوق ، كفاه ، ودُونِ(١)
يا « فتحُ » جرِّدها عنايةَ فارسٍ(٢) دَرِبٍ على نصر الولىِّ أمينِ(٣)
واقْرِن شفاعتَك الكريمةَ عنده بتواضع عن عزةٍ ، لا هُونِ
فى شِكةٍ من هيبةٍ وسكينةٍ وبضجةٍ(٤) من رحمـة وحنينِ
يا فتحُ إنْ نازلتَه مستنزلاً ظاهناً بفتحٍ من رضاه مبينِ
[وليخلُصنّ إليك](٥) من أنفاله عِلقٌ يَشُد عليه كفَّ ضنينِ

وكتب إلى الرشيد بن المعتمد يستشفع به :

قل لبرق الغمام : ظاهِرْ بريدى قاصداً بالسلام قصرَ الرشيدِ(٦)
فتقلَّبْ فى جوِّه كفؤادى(٧) وتناثر فى صحنـــه كالفريد

---

(١) فى الذخيرة (نفس القسم والصفحة) :

* وكفاك من فوق ، كفاك ، ودون *

(٢) كلمة « فارس » هنا مستعملة استعمالا لطيفاً يشبه استعمال ما يقابلها فى الإسبانية caballero ، ويراد به الرجل الشهم الكريم ذو الأريحية .

(٣) فى الذخيرة :

* بطلٍ على حرب الولىِّ أمينِ *

(٤) وردت هذه الكلمة على هذه الصورة فى الذخيرة أيضاً ، ولكن المعنى يقتضى أن نقرأ هنا : ونصيحة .

(٥) بياض فى الأصل أكملته من الذخيرة ، ونص المصراع هناك :

* وليخلصن إليك من أعلاقه *

(٦) فى الذخيرة :

قل لبرق الغمام مظهراً لبريـد قاصداً بالسلام قصر الرشـــيد

وفيه خطأ عروضى فضلا عن عدم انسجام المعنى .

(٧) الأصل : كفو ، وجعلها دوزى (بنوعباد : ٢/١١١) : كفووج ! وقد أكملت اللفظ من نص الذخيرة .

وانتحِبْ فى صلاصِلِ الرعد تَحكِى ضَجَّتى فى سلاسلى وقيـــودى
فإذا ما اجتلاكَ أو قال : ماذا ؟ قلتَ : إنى رسول بعضِ العبيد
بعضُ من أبعدتْه عنك الليالى فاجتنى طاعة المحب البعيـــد

ثم قال يخاطب المعتمد وهو بقرطبة :

سجاياكَ ـ إن عافَيْتَ ـ أندى وأسمحُ وعذرُكَ ـ إن عاقبتَ ـ أجلى وأوضحُ
وإن كان بين الخُطَّتين مزيّةٌ فأنت إلى الأدنى من الله أجنحُ
حنانيْك فى أخذى برأيك ، لا تُطع وُشاتى ، ولو أثنَوْا علىَّ وأفصحوا
وإنَّ رجائى أنَّ عندك غير ما يخوض عَدُوى اليومَ فيه ويمرح
ولِمْ لا ، وقد أسلفتُ ودًّا وخدمةً يكرّان فى ليل الخطايا فيُصبح ؟
وهبْنى قد أعقبتُ أعمالَ مفسدٍ أما تفسَدُ الأعمالُ ثُمَّتَ تَصْلُح ؟
/أقِلنى بما بينى وبينك من رضاً له نحو روح الله بابٌ مفتَّحُ [١٠٠-م]
وعفْ على آثار جُرمٍ جنيتُهُ بهبّةِ رُحْمى منك تمحو وتُمْصِح(١)
ولا تستمع زور الوشاة وإفكهم(٢) فكل إناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك فى أمرى حديثٌ ، وقد أتى بِزُور بنى عبد العزيز مُوشَّح
تخيَّلتهم(٣) ، لا دَرَّ لله دَرُّهم ! أشاروا تِجاهى بالشمات وصرحوا

---

(١) مصح الكتاب يمصَح مصوحاً : دَرَس أوقارب ذلك (اللسان : ٣/٤٣٥) وهو لازم لا يتعدى إلا بالباء أو بالهمزة فيقال مَصَحْتُ به أو أمصَحْتُه ، وهذا شكلته : تُمْصِح .

(٢) الورقة التى تضم بقية القصيدة فى مخطوط الذخيرة (القسم الثانى) عندى ناقصة . وقد راجعت هذه البقية على نصها عند عبد الواحد المراكشى فى المعجب ، ص ١٢٧ . ونص هذا المصراع عنده :

* ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيهم *

(٣) فى المعجب (ص ١٢٦) : كأنى بهم .

وما ذاك إلا ما علمتُ ، فإننى إذا ثُبْتُ لا أنفك آسو وأجرح
وقالوا : سيجزيه فلانٌ بذنبه فقلتُ : وقد يعفو فلانٌ ويصفح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى[1] ولكن عفواً للمؤيد يرجُح
وبين ضلوعى من هواه تميمةٌ ستنفع لو أن الحِمام يُجَلَّح[2]
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبى ثابتٌ متصحِّح
نعم لى ذنبٌ ، غير أنَّ لحِلمِه صَفاةً يزلُّ الذنبُ عنها فيفصحُ
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى إلىّ فيدنو ، أو علىّ فينزَح
ويهنيه إن متُّ السُّلُوُّ فإننى أموت وبى شوق إليه مبرِّح

وكل ما صدر عن ابن عمار فى نكبته فمن حُرِّ كلامه ، وكفى بهذه القصيدة حُسن براعة ولطف ضراعة . وقد كان خاطب المعتمد قبل ذلك من معتقله بأبيات منها :

والله ما أدرى إذا قالوا : غداً يوم اللقاء
ما أقتلَ الحالين لى إن كان خوفىَ أو حيائى

فما أصغى إليه ولا أبقى عليه .

وحكى أبو محمد عبد الملك بن أحمد بن صاحب الصلاة الباجى ، عن بعض الكُتّاب ، أنه ماشَى أبا جعفر بن عَطية الوزير — فى صَدَره عن الأندلس

---

(١) وردت الكلمة فى الأصل : يوتمى ، والتصويب من المعجب .

(٢) الأصل يجلِّح ، وقد صوبتها بعد مراجعة لسان العرب (٣/٢٤٩ — ٢٥٠) والمراد يُزال أو يُكشف .

إلى مراكش ، وقد أحس بالتغير / عليه وتمكّن أعدائه منه فى مغيبه ، وذلك [١٠١-ا] فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة — قال : فرأيته مستوحشا قلقاً ، فاستدنانى واستنشدنى قول ابن عمار :

سجاياكَ — إن عافيتَ — أندى وأسمحُ وعذرك — إن عاقبتَ — أجلى وأوضحُ

فأنشدته القصيدة إلى آخرها ، فلما أكملتها قال : لقد كان ابن عبـاد قاسىَ القلب .

وقول ابن عمار فيها : « سيأتيك فى أمرى حديثٌ » البيت ، أراد به الوزيرَ الأجلّ أبا بكر أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، وكان واحدَ وقته رفعةً وجلالةً ، وضدَّ ابن عمار صيانةً وأصالةً ، فتولّع بانتقاصه ، وغَرِىَ[1] بذمّه ، فكان لا يصدُر عنه مجتازٌ به إلا أبلغه قدْحَه ، ولا يَرِد عليه شاعر إلا ألزمه ثَلْبَه ، ولا يحضره ضيف إلا أسمعَه استراحتَه فيه ، تعرُّضَ المشروف للشريف ، حتى لخاطَب أهلَ بلنسية يغريهم به ويحضهم على القيام عليه . وقيل : إنما قال ذلك حين غدره ابن عبد العزيز فى حصن « جُمِلَّة »[2] من أعمال مرسية[3] :

خَبِّر بلنسيةً ، وكانت جنةً أنْ قد تدلّتْ فى سواء النارِ
غدرتْ وفيًّا بالعهود ، وقلما عَثر الوفىُّ سعَى إلى الغدّار
يا أهلَها من غائبٍ أو حاضرٍ وقطينَها من راسخٍ أو طارِ

---

(١) أى أولعَ ، والمراد أن ابن عمار هو الذى تولع بذم ابن عبد العزيز .

(٢) جُمِلَّة Jumilla مدينة فى مديرية مرسية ، وهى مركز إدارى وقاعدة بلدية ، على ٧٤ كيلومتراً من مرسية .

Cf : *Diccionario Geográfico de España*, tomo XI, p. 290 - 292.

(٣) قال ابن بسام هنا (الذخيرة قسم ٢ ص ٢٧٠) : وفى بنى عبد العزيز أيضاً يقول (أى ابن عمار) مغرياً بهم ، خاطباً لنفسه ، ونحلَها ابنَ المطرز الشاعر .

جازوا بنى عبدِ العزيز فإنهمْ جَرُّوا إليكم أسوأ الأقدار

يقول فيها :

جاء الوزيرَ بها يكشِّف ذيلَه عن سوءةٍ سَوْءى وعارٍ عارِ
نكث اليمينَ وجار عن سَنن التقى وقضى على الإقبال بالإدبار
آوى لينصُر من نَبَا المثوى بهِ ودهاه خِذلانٌ من الأنصار
ما كنتمْ إلا كأمةِ صالحٍ فرماكمْ من طاهرٍ[1] بقُدَار
هذا وخصَّكمْ بأشأمِ طائرٍ ورمى ديارَكمْ بألأمِ جارِ

وفى هذه القصيدة :

كيف التفلُّتُ بالخديعة من يدىْ رجلِ الحقيقةِ من بنى عمارِ

[١٠١-ب] /فذيَّله المعتمدُ — لما اتصل به هذا الشعر — بقوله معرِّضا بابن عمار وزارياً عليه .

الأكثرين مُسوَّداً ومملَّكاً ومتوجاً فى سالف الأعصارِ
والمؤثِرين على العيال بِزادهمْ والضاربين لِهامةِ الجبـــار
الناهضين من المهود إلى العلا والمُنهِضين الغارَ بعد الغار[2]
إن كوثِروا كانوا الحصى،أوفوخِروا فمن الأكاسرِ من بنى الأحرار
يُضحِى مؤمِّلُهم يؤمِّلُ سيبهُ ويبيتُ جارُهمُ عزيزَ الجار

---

(١) الأصل : ظاهر ،والتصويب من الذخيرة (قسم ٢ — ص ٢٧١) والمرادأبوعبدالرحمن محمد بن طاهر.

(٢) هذه أيضاً رواية الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٧٢) ، ولكن دوزى جعلها :

* والمنهضين القار بعد القار *

تبكي عليهم شَنْبُوسُ بعَبرةٍ كأَتِيِّها المتدافع التيـــار

يقول فيها :

ياشمسَ ذاك القصرِ ، كيف تخلَّصَتْ فيه إليكِ طوارقُ الأقـــدارِ
[لما] تنَلْكِ شَموبُ حتى جاوزتْ غلْبَ الرقاب وسامىَ الأسوار[1]

يريد بشمسِ أمَّ ابن عمار ، وبشَنْبُوس قرية أوائله من نواحى شِلْب — فاهتاج ابن عمار لذلك واستوحش . وبلغت أبياتُ المعتمد إلى ابن عبد العزيز فطار بها سروراً ، وأحدثت له فى نفسه على ابن عمار مكيدة ، وذلك أنه دس إلى مرسِية نبيلاً من يهود الشرق[2] ، لابَس ابنَ عمار حتى اطمأن إليه ، وأحله محل الرواية لأشعاره فى هجاء ابن عباد ، ومن ذلك قوله :

ألا حَىٌّ بالغرب حيًّا حِلالا أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالاَ
وعَرِّجْ بيَوْمِين[3] أمَّ القُرى ونَمْ ، فعسى أن تراها خيالا

---

(١) أكملت بياض الأصل فى هذا البيت من الذخيرة ، ونصه هناك :

لما تنلك شعوب حتى جاوزت غلب الرجال وسامى الأسوارِ

قال ابن بسام فى الذخيرة بعد أن أتى بهذه الأبيات (قسم ٢ ص ٢٧٣) : وشنبوس التى ذكر هى قرية ببادية شلب ، كانت مقرسلف ابن عمار . وقوله : «يا شمس ذاك القصر» كانت والدة ابن عمار — زعموا — كانت تدعى بشمس مصغرة » وعلى هذا فقد كان اسمها شميس أو شميسة .

(٢) قال ابن خاقان فى ترجمته لابن عمار فى القلائد (ص ٩٢) فى سياق نماذج من شعره : فمن بديع ذلك ما طالع به أبا الفضل بن حسداى يصف موضعه المعتقل فيه :

أدرِك أخاك ولو بقافيـــة كالطَّل يوقظ نائمَ الزهـر

ومن المعروف أن أبا الفضل بن حسداى كان صديقاً لأبي بكر بن عبـــد العزيز ، وهو الذى كتب خطابات الدعوة لزواج المستعين بن المؤتمن بن هود ببنت أبى بكر بن عبد العزيز (راجع ترجمة أبى الفضل بن حسداى فى القلائد ، ص ١٨٤ — ١٨٥) . فهل يكون هذا هو اليهوى الذى استعان به ابن عبد العزيز فيما أراد بلوغه من ابن عمار؟

(٣) كذا ضبطت فى الأصل ، وقد سبق أن ذكرنا فى تعليقاتنا أن رسمها يُورِمين أضبط .

لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنـــــار فيها اشتعالا

وفيها إقذاع . ومنها :

سأكشف عِرضك شيئاً فشيئاً وأهتك سترك حالاً فحالا

ويَوْمِينُ اسم قرية منها أوَّلِيَّة بنى عباد ، فلما حصل اليهودى منها — وهى بخط يده — على بغيته ، طار بها صادراً إلى ابن عبد العزيز ، فطيَّرها مُدرَجةً [١٠٢-ا] طىّ كتابه إلى المعتمد ، فكان ذلك مما أحنقه / على ابن عمار وأحفظه .

ولما أتاه به ابنهُ يزيدُ الراضى ، أقام بقرطبة عدة ليالٍ يُحضره فى كل ليلة منها راسفاً فى قيوده ، فيقرره على غدره ويوبخه بفعله ، ويوقِفه على أشعاره المدرجة إليه طىّ كتاب ابن عبد العزيز . ثم انحدر به إلى إشبيلية فسجنه فى بيت خامل من بيوت القصر أياماً ، ثم قتله بيده . وكان أسرُه بشَقُورَة لستٍّ بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وقدومُ الراضى به على قرطبة يوم الجمعة السادس من رجب فيها .

وقيل إن القادِمين به مع الراضى لما سلموه إلى القصر ، دُعوا ذلك اليوم بعد العصر فى سلاحٍ شاكٍ وتعبئة ظاهرة ، ليصحبوه إلى إشبيلية ، فأقاموا على ذلك إلى الليل ينتظرون تسليمه إليهم ، ثم لم يرعهم إلا خروج المعتمد والشمع بين يديه ، والحُرَمُ حواليه ، وابن عمار بينهن على بغل ، وهن يهزأن به ويتضاحكن منه ، فأعرَبتْ حاله يومئذ بمبادئها عن سوء العاقبة فيها . وورد على المعتمد غيرُ ما خطابٍ فيه بالشفاعة ، فسدَّ الباب فى ذلك وشدَّ صِفادَه[1] هنالك .

---

(١) الأصل : صفاره . وجعلها دوزى (بنوعباد : ١١٨/٢) حصاده . وقد راجعتها على نص الذخيرة ، وابن الأبار يتابعه هنا ، وصوبتها من هناك (قسم ٢ ص ٣٧٥)

وحدث أبو بكر المنجم أن ابن عمار استدعى سَحاءة ودواة فى اعتقاله بقصر إشبيلية ، فبعث المعتمد إليه بزوج كاغد ، فكتب إليه شعراً يستعطفه به ، فعطف عليه وأحضره ليلتَه تلك ووعده العفوَ عنه . فخاطب ابنُ عمار الرشيدَ بن المعتمد بذلك ، فلمح المخاطبةَ وزيرُه عيسى ابن الأستاذ أبى الحجاج الأعلم ، فأشاع الحديث ، وبلغ ذلك أبا بكر بن زيدون — وكان شديد العداوة لابن عمار[1] — فتخلَّف عن الركوب إلى القصر حتى وجَّه فيه المعتمد ، فعرَّفه أن مجلسه مع ابن عمار وصل إليه ، فازداد المعتمد حنقاً عليه ، وحرَّك ذلك من ضِغْنه ، وقال لأحد المجايب : « سل ابن عمار كيف وجد السبيل — مع الترقيب — إلى إفشاء ما أخذتُ معه البارحة فيه ؟ » ، فسلك سبيل الإنكار[2] ، ثم قال : « إنى خاطبتُ الرشيدَ وأعلمته بما وعَدنى به مولانا من العفو » ، فانتقد المعتمد وقام من فوره وأخذ — زعموا — طَبْرَزِيناً[3] ودخل إليه ففزع

---

(١) فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٣) : « وانتهى الخبر إلى الوزير أبى بكر بن زيدون ، صاحب الدولة وقته ، وعداوته لابن عمار أوضح من أن تشرح ، فدمغته من ذلك دامغة ، وبات بليلة النابغة»

(٢) الذخيرة هنا أكثر تفصيلا (قسم ٢ ص ٢٨٣) : « فلما سأله أنكر ، قال المعتمد : فما أراد بالكاغد الذى طلب ؟ قال إنه أخبر أنه كتب إليه فيه بشعر . قال : هو فى ورقة مفردة ، فما فعل بالأخرى من الزوج الكاغد المبعوث به إليه ؟ قال : كتب فيه مسودة ذلك الشعر. قال المعتمد : خذها منه لأقف على ذلك ، فلما لم يجد بداً من النطق بالصدق رجع إلى الحق ، وقال : إنى خاطبت الرشيد . . الخ » .

ومثل ذلك عند عبد الواحد المراكشى ، مع خلاف فى الألفاظ (المعجب ، ص ١٢٧ — ١٢٨)

(٣) طَبْرَزِين : فأس مرهف الحدين hache à deux tranchants . جاء فى القاموس المعروف بالقوكابوليستا *Vocabulista in Arabico* (الذى نشره سكياپاريل Schiaparelli فى فلورنسا سنة ١٨٧١) : bipennis (= ذو حدين) و pica ferri (= فأس من حديد)

— كما[1] كان فى قيوده — إلى تقبيل رجليه ، فضربه به ثم أمر فأُجهز عليه .
ومما يشهد أنه باشر قتلَه قولُ عبد الجليل بن وهبون يرثيه ببيت مفرد وهو :

[٤٣ب-١] /عجباً لمن أبكيه ملء مدامعى وأقول : لا شُلت يمينُ القاتلِ

وأخبر ذو الوزارتين صاحب المدينة أبو محمد عبد الله بن سَلَام — بتخفيف اللام — الشِّلْبى ، وكان من صميم إخوان ابن عمار ، قال : إنى لفى أرْجَى ما كنتُ لإقالة ابن عمار ، وقد هيأتُ لخروجه مجلساً من أحسن مجالس دُورى يقيم فيه ريثما تُخلى له دُورُه ، إذا رسول المعتمد يستدعينى ، فما شككتُ فى تمام ما كنت أريده لابن عمار . فلما وصلت فَصِيل القصر ، إذا هو متشحِّط فى دمائه ، ممرَّغ فى ثيابه طريح فى قيده . فقال لى الفتيان : « يقول لك السلطان : هذا صديقك الذى كنتَ أعددتَ له ، سِرْ بِهِ وأنزِلْه » ، فأمرت من حضرنى من الحرس بسحبه فى أسماله ، طوراً على وجهه وتارةً على قَذَالِهِ ، إلى أساس جِدار قريب من سواقى القصر ، فطُرح فى حوض محتَفَر للجيّار ، وهُدِم عليه شَفيرُه . قال ابن قاسم الشِّلْبى — وأكثر خبر ابن عمار عنه ، إلى ما تخلله من الزيادات المفيدة عن ابن بسام وغيره : ووُجد له فى قِرابه بعد قتله بخط يده :

= وجاء فى قاموس بطرس القلعى .

FEDRO DE ALCALA, *Vocabulista aravigo en letra castellano.* Granada, 1505.

hacha que corta de dos partes (= فأس يقطع من الناحيتين) . وجاء فى كتاب « مفيد العلوم ومبيد الهموم » وهو تفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواردة فى الكتاب المنصورى للرازى (تحقيق چورچ س . كولان وه . ب . ج . رِفو ، الرباط ١٩٤١) : هو فأس السَّرج ، أى أنه كان يعلق فى السرج . ويكتب أحياناً طَرْبَزِين .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ٢/٢١ .

(١) الأصل : لما ، والتصويب من الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٤) .

يقول قوم : إن المؤيدَ قد أحال فى فِديتى على نقده
فقلت : ماذا الشراء ثانيةً تُرى لمعنًى يريب من عنده ؟
أوحشنى ، والسماحُ عادتُهُ سماحُه بالعـــلاء[1] فى عبده
الحمد لله ، إنْ يكن حرجاً فليس فى مثلها سوى حمـــده
وحيلةٍ إن وصلتُ حضرتَهُ أجعلُها رغبـــةً إلى جُنده
لو سامحوا فى الفِرِنْدِ أرمُقُهُ من طَرَفه لم أخَفْه من غمده
لـكنْ على الغرب عارضٌ زَجِلٌ[2] مرتميـــاً بالشرار من زنده
أخضر يَفْتَرُّ من جوانبـــهِ كالبحر فى جَزْره وفى مَدِّه
يارَبِّ بشِّر برحمـــةٍ وحيا يونس من برقه ومن رعده

ويُحكى عن المعتمد فى قتل ابن عمار خبر طريف من الحدثان ، تلخيصه أنه كان — أيامَ مُقامه بشِلْبٍ — قد أخذ / عليه وأمره إذا دعا أصحابه أن يكون [١٠٣-] أول داخل وآخر خارج ، ليأنس به ويتمتع بأدبه ، فكان يجده ينفر من ذلك ، ويُكثِر التسال من مجلسه . فتقدم ليلةً إلى أصحاب سُدَّته بترقُّبه ومنعِه بعد وعيد شديد . وقام ابن عمار — على عادته — فلم يحفل المعتمد بذلك ، حتى إذا انفضّ من كان عنده طلبه فما وجده . فأحضر الموكلين بترقبه وأخذ فى تعنيفهم ، فأخبروا أنهم لم يعاينوه ولا خرج عليهم ، فراب المعتمدَ أمرُه ، وشهر سيفه وجعل يطلبه والشمع بين يديه . فلما انتهى إلى بعض الدهاليز ، إذا بحصير مطويّ ، وابن عمار فيه أغمضُ من سر خفيّ ، عريان كأنه أفعوان ، فأمر بحمله وجعل يعجب من

---

(١) الذخيرة : بالغلاء .
(٢) الرجل هو الذى تصوت فيه الريح .

فعله ، ولابن عمار بكاء [ورَوْ][1] ع مفرط . فلما أفرخ روعه ، ورقأ دمعه ، سأله عن شأنه فأخبر أنه — كلما أخذت منه الشمُول — [سمع كأن][2] قائلا يقول : « هذا يقتلك ! »[3] فينفُر عند ذلك ويَنْفَرّ[4] ، ويحمل نفسه على القرار فلا تقر ، حتى أمضى الله على يديه ما كُتب من ذلك عليه ؛ والمقدر كائن .

أتيت بخبر ابن عمار على الكمال ، فكثيراً ما يُتشوف إليه ؛ ولا يوقف عليه ؛ وما أعلم أحداً ساقه هذا المساق ، ولعل عذر الإفادة يقاوم لومَ الإطالة . ومن شعره فى غير ما تقدم ، أهدى إلى المعتمد ثوب صوف بحرى يوم نيروز وكتب معه :

لما رأيتُ الناس يحتشدون فى ... إتحاف يومك جئتُه من بابهِ
فبعثتُ نحو الشمس شبهَ أيَاتها[5] ... وكسوتُ متنَ البحرِ بعضَ ثيابه

فوجّه إليه المعتمد بمكبَّة فضةٍ فيها خمسمائة دينار — وقيل خمسة آلاف دينار — ذهباً وكتب معها :

هِبةَ أتتك من النضار أُلوفُها[6] ... فاغنم جزيلَ المال من وَهّابِه

---

(١) لم يرد فى الأصل من هذه الكلمة إلا حرف العين . وقد وردت الحكاية عند ابن بسام (الذخيرة ، قسم ٢ ص ٢٨٥) بلفظ مختلف ، فهو يقول فى هذا الموضع : « وابن عمار يبكى فيضحِكك ، ويشكو فيشكّك» . وأورده عبد الواحد المراكشى فى أسلوبه السهل الواضح ؛ وهو يقول هناك (المعجب ، ص ١١٨) وهو يقص الخبر بلسان ابن عمار : « فلما رآنى فاضت عيناهُ دموعاً ، وقال : يا أبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ »

(٢) تكملة من الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٥) يقتضيها السياق .

(٣) فى الذخيرة : يا مسكين ! هذا يقتلك !

(٤) كذا فى الأصل ، ولم أجد انْفَرّ فى باب فَرَر فى المعاجم ، ومعناه — أحسب — يطلب الفرار .

(٥) أى شبه ضيائها .

(٦) فى الأصل « لهيبها » وورد لفظ « ألوفها » إلى جانبه ، وكأن الناسخ أراد أن يصحح به لفظ « لهيبها » . و« ألوفها » أوفق للمعنى ، فأثبتناه .

فلو أنّ بيتَ المـال يحوى قُفْلُه أضعافَها لـكسرتُه عن بابه
وملأتُ منه يديكَ لا مستأثراً فيه عليك لـكى تُرى أولَى به
فالبحر يطفح جودُه لك زاخراً لـما كسوتَ البحرَ بعضَ ثيابه

وأهدى أيضاً تفاحاً و إجّاصاً إلى بعض أصحابه[1] وكتب معها :

/ خُذها كما سَفرتْ إليك خدودُ أو أوْجسَتْ فى راحتيْك نهودُ [١٠٣-ب]
دُرَراً من التفاح تُنثَر بيننَا ولهـا بأجياد الغصون عقودُ
خذها وناوِلْها النِّدامَ فإنها راحٌ دهاها فى الشتاء جمود
وشفَعتُ بالإجّاص قصداً ، إنه شكلُ الجمال وحدُّه المحدود
عذراً إليكَ فإنما هى أوجهٌ بيضٌ تقارنها عيونٌ سود

وأهدى أيضا خمراً وطبقاً فيه تفاحتان ورمانتان وكتب معها[2] :

خذوها مثلما استهديتموها عروساً ، لا تُزَفُّ إلى اللئـــام
ودونـكمُ بها ثديَىْ فتـــاةٍ أضفتُ إليهما خدَّىْ غلامِ

وله فى الخوشف :

ونَبْتِ ماء وتُربٍ جودُها أبداً لمن يُرجِّيه فى ثوب من البَخَلِ
كأنها ، فى جمالٍ وامتناعِ ذُرًى خَوْدٌ من الروم فى درعٍ من الأسَلِ

---

(١) فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٦٠) أنه أهدى ذلك إلى ذى الوزارتين أبى عيسى بن لُبُّون .

(٢) فى الذخيرة : واستهدى منه بعض إخوانه خمراً ، فبعث بها مع تفاحتين ورمانتين ، وكتب مع ذلك ...

ولم يورد ناسخ « الحلة » الأبيات ، بل ترك مكانها فراغاً ، فأتيت بها برواية ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٦٠) .

وله فى طبقٍ من الفضة مذهَّبِ الباطن :

وسماء من الغِنَى قد أسالتْ ذهباً فى قرارةٍ من لُجَيْنِ
فاجتنتْ حولَها العيونُ بلطفٍ زَهرَ الحُسنِ من بنانِ اليدينِ

وله فى زورق :

وجاريةٍ مثل الهلال أَلِفتُها على نَهَرٍ مثل السماء رقيقِ
تَجلَّى لنا الإصباحُ وهو زمردٌ فألقتْ عليه الشمسُ ثوبَ عقيقِ

وله ، وضمَّن أوائلَ الأبيات اسمَ قينة[1] :

نفسى — وإن عذَّبتِها — تهواكِ ويهزُّها طربٌ إلى لُقيـــاكِ
عجباً لهذا الوصل أصبح بيننَا متعذراً ومُنايَ فيـــه مُناكِ
ما بالُ قلبى حين رامَكِ لم ينلْ ولقـــد ترومكِ مقلتى فتراكِ
[١٠٤-ا] /اللهُ أعلمُ ما أزور لحاجـــةٍ ذاك المحلُّ لغيرِ أنْ ألقاكِ
ليتَ الرقيبَ — إذا التقينا — لم يكنْ فأنالَ رِيًّا من لذيذ لَمَاكِ
متنزهاً فى روض خدكِ شارباً كأسَ الفتور تُديرها عيناكِ
حَكَتِ الغصونُ جمالَ قدكِ فانثنتْ والفضلُ للمحكىِّ لا للحاكى
لا تعزُبى يا روضـــةً ممطورةً حتى أمدَّ يدى إلى مَجْناكِ

وله :

أنا ابن عمارَ لا أخْفَى على بشَرٍ إلا على جاهلٍ بالشمسِ والقمرِ
وبين طبعى وذهنى كلُّ سابقةٍ كالسهم يُبعد بين القوس والوتر
إن كان أُخِّر فى دهرى فلا عجبٌ فوائد الكتب يُستلحقن فى الطُّرر

---

(١) أوائل الأبيات الأربعة الأولى تكون اسماً معروفاً لجارية : نُعْمَى . أما أوائل الأبيات الباقية فلا تكوّن إلا لفظ « المحل » .

لم أجد هذه الأبيات الثلاثة فى ما جمع أبو الطاهر التميمى من شعر ابن عمار ، فأضفتها إليه وكتبتها فى نسختى منه . وقد وقعت فى بعض نسخه : وكذلك قوله مبتدِهاً فى المعتصم محمد بن معن بن صمادح ، وقد مرّ بقصره وحوله جماعة من الشعراء كانوا قد مدحوه ، وأبطأ عنهم عطاؤه وتعذر عليهم القول فى استنجازه ، فارتجل على ألسنتهم :

يا أيها الملكُ الذى شاد العلا مَعْنٌ أبوه وخالُه المنصــورُ
بفِناء قصرِك عُصبةٌ أدبيّةٌ لا زال وهو بجَمعهم معمورُ
زَفُّوا إليك بناتَ أفــكارٍ لهمْ واستبطأوك ، فهل لهن مهور ؟

١٣٤ — أبو محمد بن هود الجذامى ، ذو الوزارتين

لم أقف على اسمه ، وهو أحد النجباء الأدباء من أهل بيته ملوك سرقسطة والثغر الأعلى ، ونَبَتْ به دارُهم فتجوَّل بمَوْسطَة الأندلس وغربِها قاصــداً رؤساءها ، واختص منهم بالمتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فولاه مدينة الأشبونة من أعماله ، ثم صُرف عنها وصَدر محمودَ السيرة معروفَ النزاهة . وهو القائل / فى خروجه من سرقسطة يخاطب قومه : [١٠٤-ب]

ضللتم جميعاً ، آلَ هودٍ ، عن الهدى وضيَّعتمُ الرأىَ الموفقَ أجمعا
وشِئتم يمين المُلك بى فقطعتم بأيديكم منها — وبالغدر — إصبَعا
وما أنا إلا الشمس غير غياهبٍ دجت ، فأبت لى أن أنير وأسطعا
وإن طلعتْ تلك البدورُ أهلةً فلم يبق إلا أن أغيب وأطلعا
ولا تقطعوا الأسباب بينى وبينكم فأنفُـكم منكم وإن كان أجدعا

وله وقد احترق بيته أيام مقامه بطليطلة :

تركت محلى جنـــةً فوجدتهُ على حكم أيدى الحادثات جهنما
لتصنع بى الأيام ما شئن آخراً فما صنعت بى أولاً كان أعظما

وله فى المتوكل أيام سلطانه ببابُرة :

[... ... ...] [... ...] فالذى يخشى من الحذر
[... ... ...] [... ... ...] بالخبر(١)

وله مما نُقش على رِئاس سيف المتوكل :

لا تخشَ ضيماً ولا تصبح أخا فَرَقٍ إذا رِيَاسى فى يُمنى يديكَ بَقِى
أصبحتُ أمضَى من الحَيْن المتاح فَصُلْ على الكُماة وبى عند الوغى فَثِقِ
لولا فتورٌ بألحاظِ الظباء إذاً لقُلتُ إنى أمضَى من ظُبى الحدق

وله وقد سئل عما اكتسبه فى ولايته :

وســـائلٍ لىَ لما صدَرْتُ عما وَليتُ :
ما نلت ؟ قلت : ثناء يبقى معى ما بقيتُ
فإن أمتْ كان بعدى مخـــلداً لا يموتُ
[١٠٥-١] / عفت الفضولَ لعلمى أن ليس يُعدم قوتُ
وصُنتُ قدرىَ عنها مجمِّـــلاً فغَنِيتُ

---

(١) ورد هذان البيتان فى الأصل هكذا ، معظمهما بياض ، ولم أعثر عليهما فى أى موضع آخر لأكملهما ، وقائلهما يكاد أن يكون مجهولا حتى من ابن الأبار ، وهو من سلائل بنى هود الذين تفرقوا فى نواحى الأندلس بعد أن استولى المرابطون عليها ، ثم سقوطها نهائياً فى يد ألفونسو المحارب على ما حكيناه . وسيعود بيت بنى هود إلى الظهور بعد ذلك كما سنرى .

١٣٥ – أبو عيسى بن لُبُّون[١] ، ذو الوزارتين

هو لُبُّون بن عبد العزيز بن لُبُّون[٢] ، وكان من جملة أصحاب القادر يحيى

(١) يكتبه بعضهم بفتح اللام ، وصحته فيما أرى بضمها . فهو صيغة التكبير من الاسم المعروف لُبْ ، وهو إسبانى معرب ، من lobo أى ذئب شبه الجزيرة . وقد قال عنه المقرى فى نفح الطيب (١/١٨٥) : « ولها سبع يعرف باللُّبّ ، أكبر بقليل من الذئب ، فى نهاية القحة ، قد يفترس الرجل إذا كان جائعاً » . ولفظ lobo إسبانى دارج من lupus اللاتينى ، ويقال فى الدارج أيضاً lupo ويسمى به الناس ، ويسمون أيضاً باسم lup . أما López فمعناه ابن لُبْ .

وعلى هذا فلُبون إما أن تكون Lobón أو Lupón ، وفى كلتا الحالتين تضم اللام ، وهى صيغة تكبير أخذتها اللغة الإسبانيةعن اللاتينية ، وقبسها العرب وطبقوها على أسمائهم فقالوا : حمدون وزيدون وفرحون .

(٢) المادة التى يقدمها ابن بسام فى القسم الثالث من الذخيرة عن أبى عيسى بن لبون لا تغنى كثيراً (وهى ساقطة من مخطوطة أكاديمية التاريخ فى مدريد وموجودة فى مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد) . أما ابن سعيد فقد أورد ذكر بنى لبون فى الفصل الخاص بلورقة ، وقال : ملكها فى مدة ملوك الطوائف أبو محمد عبد الله بن لبون ، وتوفى ، فورثها أخوه أبوعيسى ابن لبون الذى ملك معقل مُرْبِيطْرْ من أعمال بلنسية ، ووليها بعده أخوه أبو الأصبغ سعد الدولة ابن لبون ، وصارت للمعتمد بن عباد ، إلى أن تداول عليها ولاة الملثمين ، إلى أن كانت الفتنة عليهم ، فقدّم أهلها أبا محمد عبد الله بن جعفر بن الحاج . (المغرب : ٢/٢٧٥ – ٢٧٦) .

والمعروف أن أبا عيسى بن ليون كان قاضياً ووزيراً فى بلنسية أيام أبى بكر بن عبد العزيز ، فلما توفى هذا فى ٧ صفر ٦/٤٧٨ يونيو ١٠٨٥ اضطرب أمر بلنسية ، وانقسم أهلها قسمين : قسما مال إلى تصييرها لبنى هود أصحاب سرقسطة ، وقسما مال إلى إسلامها لبنى ذى النون أصحاب طليطلة . وفى نفس الوقت كان السِّيد القمبيطور معسكراً مع جنوده فى منطقة بلنسية ، فأطمعه اختلاف أهلها فى الاستيلاء عليها ، وفرض عليها ضريبة ثقيلة وأقام فيها وكيلا له يسمى ابن الفرج ليجمع الإتاوة . وفى هذه الظروف فضل ابن لبون الانسحاب من البلد ، فلجأ إلى مربيطر دار أهله ، وبعد ذلك بقليل دخل بلنسية القادر حفيد المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، بعد أن أسلم هذا البلد الأخير لألفونسو السادس ، فى مقابل مساعدة هذا الأخير له على تولى حكم بلنسية . وقد دخل القادر فى حماية قوة قشتالية كبيرة يقودها أَلْبَرْ هانِس Alvar Hanez من =

ابن ذى النون . ورأسَ بمُرْبِيطَر من أعمال بَلَنْسِيّة ، ثم تخلّى عنها لأبى مروان عبد الملك بن رَزِين ، صاحب شَنْتَمَرِيَّة الشرق ، أيامَ تغلب رُذْرِيق المعروف بالكنبيطور على بلنسية و إحراقه لرئيسها أبى أحمد بن جَحّاف ، وسار معه إلى شَنْتَمَرِيَة ؛ ثم ندم بعد ذلك واستقل ما كان يُجْرى عليه فقال :

ذرونى أجُبْ شرقَ البلاد وغربَها ... لأشفىَ نفسى أو أموتَ بِدائى
فلستُ ككلب السوء يُرضيه مربضٌ ... وعظمٌ ، ولكنى عُقابُ سماء
تحُوم لكيما يدرك الخِصبَ حومها ... أمامَ أمامى أو وراء ورائى
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لى تنكرتْ ... شددتُ إلى أخرى مَطِىَّ إبائى
وسِرتُ ولا ألوى على متعذرٍ ... وصَمَّمْتُ لا أصغى إلى النصحاء
كشمسٍ تبدَّتْ للعيون بمشرقٍ ... صباحاً ، وفى غربٍ أصيلَ مَساء

وله من أخرى فى مثل ذلك :

خليلىّ ما بالى على صدق عَزمتى ... أرى من زمانى وَنْيَةً أو تعذُّرا
ووالله ما أدرى لأىِّ جريمةٍ ... تجَنَّى ، ولا عن أى ذنب تغيَّرا
ولم أكُ عن كسب المكارم عاجزاً ... ولا كنتُ فى نَيْلِ أُنيلُ مقصِّرا
لئن شان تمزيقُ الزمان لدولتى ... لقد رَدَّ عن جهلٍ كثيرٍ وبصَّرا
وأيقظ من نوم الغَرارة نائماً ... وكسَّب علماً بالزمان وبالورى

= كبار فرسان ألفونسو السادس ، وزعم السِّيد القمبيطور أنه يمثل ملك قشتالة فى هذه الناحية وأنه حامٍ للقادر بن ذى النون ضد خصومه من أهل البلد ، وأخذ يحاصره ، وبدأت بذلك محنة بلنسية وأهلها على يد السِّيد ، وقد فصلها ابن علقمة فى كتابه « البيان الواضح عن المسلِم القادح » وقد عثرنا على قطع منه . انظر علاوة على المراجع الواردة فى التعليق :

DOZY, *Recherches* (*1ère* édition, 1848), 465 et note 2.
Primera Crónica General (1906), 549.

وكان أبو عيسى معدوداً فى الأجواد ، موصوفاً بتجويد القريض . وطالت إقامته فى كنف ابن رَزِين إلى أن توفى هنالك ، وقيل بل توفى بسَرَقسْطة .

وأما أخوه أبو محمد عبد الله بن لُبُّون ، فكان والياً على لُورْقَة/ وتوفى بها [١٠٥-ب] بعد وقيعة الزلاّقة بيسير — وسيأتى ذِكره — فقال أبو عيسى يرثيه ويذكر أخويه المتوفيين قبله — أبا وهب عامراً وكان ضابطاً لقصر بلنسية ، وأبا شجاع أرقم وكان والياً على وَبْذَة[1] من سنت ابرية[2] — وكان إبراهيم أبو الأصبغ من كبار أصحاب المأمون بن ذى النون وهو الذى استخلف على بلنسية فى خروجه لتملك شاطبة :

قل لصَرفِ الحِمام : لمْ ذا التناهى ... فى تلقِّيك لى بهذى الدواهى ؟
كان فى « عامرٍ » و « أرقمَ » ما يكـ ... ـفى ، فهلا أبقيتَ « عبد الإله » ؟
فَبِهِ بعدُ كنت أستدفع الخطـ ... ـب وأسطو على العِدا وأباهى
أى شمسٍ وافَى عليها أفول ... فلَّ غَرْبَىْ عزائمى ونواهى

وله يخاطب أبا اليَسَع كاتبَ أخيه والذى خلفه بعدُ على لُورْقَة :

لو كنتَ تشهد يا هـذا عشيَّتَنا ... والمُزْنُ يُمسِك أحياناً وينحدرُ
والأرض مصفرةٌ بالقَطْر كاسيةٌ ... أبصرتَ تبراً عليه الدرُّ ينتثر

وهذا كقول الأسعد بن بِلِّيطة ، وأجاد ما أراد :

لو كنتَ شاهِدَنا عشيةَ أمسِنا ... والمزنُ يبكينا بعينْ مذنبِ

---

(١) وَبْذَة Huete مركز لقسم إدارى فى مقاطعة كُونْكَة Cuenca ، وتقع على بعد ٥٠ كيلومتراً غرب هذه الأخيرة . وتقع وبذة على نهر وبذة ، أحد نهيرات نهر تاجه .

(٢) كذا ، والمراد — دون شك — شَنْتَبَرِيَّة Santáver ؛ فإن وبذة تقع فيها بحسب التقسيم الإدارى الأندلسى .

والشمس قد مدتْ أديمَ شعاعها فى الأرض تجنح غيرَ أنْ لم تغربِ
خِلتَ الرذاذَ بُرادةً من فضةٍ قد غُربلتْ من فوق نطعٍ مُذْهَبِ

ولابن لُبُّون :

سقى أرضاً ثَوَوْها كلُّ مُزنٍ وسايَرهمْ سرورٌ وارتياحُ
فما أَلْوَى[1] بهم هُلكٌ ولكنْ صروف الدهر والقدر المتاحُ
سأبكى بَعدَهم حزناً عليهم بدمعٍ فى أعِنَّتِه جِماحُ

وله :

ياليت شعرى، وهل فى «ليت» من أربٍ؟ هيهات، لا تُبتَغى[2] من «ليت» آرابُ
أين الشموسُ التى كانت تطالعُنا والجوُّ من فوقه لليل جلبابُ ؟
[١٠٠٦-ا] / وأين تلك الليالى إذ تُلِمُّ بنا فيها وقد نام حُرّاس وحُجّابُ ؟
تُهدِى إلينا لُجيناً حشوُه ذهبٌ أناملُ العاجِ والأطرافُ عنّابُ

وله :

قم يا نديمُ أدِرْ علىّ القَرْقَفَا أوَ ما ترى زَهرَ الرياض مُفَوَّفَا ؟
فتَخالُ محبوباً مُدِلاًّ وَرْدَها وتظن نرجِسَها مُحبًّا مُدنَفَا
والجُلّنارَ دماءَ قتلى معركٍ والياسمينَ حَبابَ ماءٍ قد طفا

وله :

يارب ليلٍ شربنا فيه صافيةً حمراءَ فى لونها تَنْفِى التباريحا

---

(١) الأصل : الورى ، وصوبتها للمعنى والوزن .
(٢) الأصل : تُنْتَقَى ، وصوبتها للمعنى .

ترى الفَراش على الأكواس ساقطةً كأنما أبصرت منها مصابيحا

وله يعاتب :

لحا اللهُ قلبي ! كم يحنُّ إليكمُ وقد بِعتمُ حظي ، وضاع لديكمُ
إذا نحن أنصفناكمُ من نفوسنا ولم تُنصفونا ، فالسلامُ عليكمُ !

وله فى زهده و إقلاعه والتزامه بيتَه عند انخلاعه :

نفضتُ كفي من الدنيا وقلتُ لها : إليكِ عني فما فى الحق أغتبنُ
من كِسْرِ بيتي لى روضٌ ، ومن كتُبي جليسُ صدقٍ على الأسرار مؤتمنُ
أدرِي به ما جرى فى الدهر من خبرٍ فعنده الحق مسطورٌ ومختزَنُ
وما مضى بى سوى موتى ويدفنني قومٌ وما لهم علم بمن دفنـــوا

---

١٣٦ — أبو عامر بن الفرج ، ذو الوزارتين[1]

كان من بيت رئاسة ، تصرَّف آباؤه وقومه مع بنى ذى النون ملوكِ طليطلة . و إلى أبى سعيد منهم — وهو وال على كُونْكَة — توجَّه المظفرُ عبد الملك ابن المنصور عبد العزيز بن أبى عامر ، حين خلعه المأمون بن ذى النون من

---

(١) أورد عنه ابن بسام (الذخيرة ، قسم ٣ ، مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو غير مرقم) بعد ترجمة ابن طاهر مادة قصيرة لا تغنى ، وقد نقل ابن سعيد معظمها فى المغرب (٢/٣٠٣ — ٣٠٤) . وأحسن ما لدينا عنه ما أورده ابن سعيد من كلام الحجارى فى المسهب (المغرب ، ٢/٣٠٤) وفيه « وكان أبوبكر بن عبد العزيز يقصدهم (فى بلنسية) لمكانهم من بلده ، ويخفى لهم ما أظهره بعدُ من حسده ، فتصدى لهم بالموبقات ، وأخرجهم عن بلنسية ، فتفرقوا على حواضر ملوك الطوائف ، وكلٌّ صادف محلا قابلا ، وصار أبوعامر وزيراً للمأمون ابن ذى النون (فى طليطلة) » .

بلنسية فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وأبو عامر هـذا هو القائل يستدعى أبا محمد المصرى[1] إلى مجلس أنس :

أنا قد أهبتُ بكم وكُلُّكُمُ هوًى وأحقُّكم بالشكر منى السابقُ
[١٠٦-ب] /والشمسُ أنتَ وقد أطلَّ طلوعُها فاطلع وبين يديك فجرٌ صادقُ

وله يعتذر :

ما تخلَّفتُ عنك إلا لعـذرٍ ودليلى فى ذاك حرصى عليكا
هبك أن الفرار عن غير عذرٍ أتراه يكون إلا إليكا ؟

وله إلى وسيم من معارفه يستدعى منه خمراً لعلاج ابنه :

أرسل بها مثلَ وُدِّكْ أرقَّ من ماء خدِّكْ
شقيقة النفس فانضحْ بها جوى ابْنِي وعبدِكْ

١٣٧ – أبو الحسن بن اليسع الكاتب ، ذو الوزارتين[2]

كتب لأبى محمد بن لُبُّون صاحب لُورْقَة ، وخلَفه عليها بعد وفاته ، واستبد

(١) أبومحمد عبد الله بن خليفة القرطبى ، عرف بالمصرى لطول إقامته بمصر . وقد وصفه ابن بسام فى الذخيرة (القسم الرابع ، مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة ، ورقة ١٢٠) بأنه كان « شيخ الفتيان وآبدة الزمان ، وخاتمة أصحاب السلطان ، وكان رحل إلى مصر واسمه خامل ، وسماؤه عاطل ، فلم ينشب أن طرأ على الأندلس وقد نشأ خلقاً جديداً ، وجرى إلى النباهة طلقاً بعيداً » ، وقال إن المطاف انتهى به عند المأمون بن ذى النون ، وقال إنه اشتهر بالطب ولذلك لقب بالحكيم ، ثم انتقل إلى إشبيلية ، وخدم المعتمد بن عباد حتى خُلع هذا ، وقد توفى يوم الجمعة منتصف رجب سنة ٤٩٠ .

انظر أيضاً : المغرب لابن سعيد (١٢٨/٢ – ١٢٩) وتعليقات الدكتور شوقى ضيف .

(٢) لم يورد أحد ممن ترجموا له اسمه الكامل . وأضاف ابن خاقان فى القلائد (ص ١٦٧) أن المعتمد بن عباد ولاه مرسية ، فصار فيها قائداً ووزيراً ، فائتمر به أهلها وخلعوه ، بسبب إسرافه فى الخمر والمجون على الأغلب .

بضبطها دون بنيه ، إلى أن تخلى عنها للمعتمد محمد بن عباد ، وندِم عليه بقرطبة ، وحضر غزوة الزَّلاّقة معه . وذكر أبو بكر بن قاسم الشِّلْبي فى تاريخه المجموع فى أخبار ابن عمّار ما يخالف هذا ، وسيأتى نصه بعدُ إن شاء الله تعالى . وكان ابن اليسع ماجناً صاحب بطالة وراحة ، أديباً شاعراً ؛ وهو القائل يخاطب أبا بكر ابن اللبانة :

تشرِّق آمالى وسعيي يغرِّبُ وتطلُع أوجالى وأُنسِىَ يغرُبُ
سَريْتُ أبا بكرٍ إليك وإنما أنا الكوكب السارى تخطاه كوكبُ
فبالله إلا [ما][1] مَنحتَ تحيةً تَكُرُّ بها السَّمْعُ الدرارى وتذهب
وبعدُ فعندى كلُّ عِلْقٍ تصونُهُ خلائق لا تفنى[2] ولا تتقلب
كتبتُ على حالين : بُعدٍ وعُجمةٍ فيا ليت شعرى كيف ندنو فنُعرب ؟

وكان فى ليلة الشك من شعبان بخارج قرطبة ، إذ قدِم على المعتمد فى لمَّة من أعيانها ، منهم أبو الحسين بن سِرَاج ، وقد غلبوه على المسير معهم ، فخرج مكرهاً وغرضه الاستراحة ، وكان تحته فرس عتيق . فأخذ معهم فى أمره حيلة فى إجرائه والانفصال عنهم على تلك الحال ، وركَضه مولياً عنهم وراجعاً إلى منزله / ليخلو [١٠٧-ا] براحته ، فما انصرفوا إلا وهلال رمضان ظاهر ؛ فكتب إليه أبو الحسين ابن سراج :

عَمْرِى أبا حسنٍ لقد جئتَ التى عطفَتْ عليك ملامة الإحوانِ
لما رأيتَ اليومَ ولّى عمرُه والليـــل مقتبل الشبيبةِ دانِ
والشمس تنفُض زعفراناً بالرُّبى وتفتُّ مِسكتَها على الغيطان

---

(١) إضافة من المغرب (٢/٨٦) يستقيم بها الوزن .

(٢) الأصل : لا تبقى ، والتصويب من المغرب لابن سعيد ، وقد جعلها دوزى (ص ١٩٤) : تبلى .

أطلعتَها شمســـاً وأنت عطاردٌ وحففْتَها بكواكب النُّدمان.
وأتيتَ بدعاً فى الأنام مخـــلداً فيما قرنتَ ولات حين قران
ولهِيتَ عن خِلَّيْ صفاء لم يكن يلهيهما عنك اقتبـــالُ زمان.
غَنِيا بذِكرِكَ عن رحيقٍ سلسلٍ وحدائقٍ خُضرٍ وعَزفِ قِيان
ورضيتَ فى دفع الملامة أن تُرَى متعلقاً بالعـــذر من حَسّان.

فراجعه بقوله :

وأنا أسأتُ فأين عفوُك مُجمِلاً هبنى عَصيْتُ اللهَ فى شعبانِ
لو زرتَنى والآن تحمد زَوْرَتى كنتَ الهلالَ أتى بلا رمضانِ

وله فى أبى بكر بن القَبْطُورْنة يستهدى مشروباً وهو ببَطَلْيَوْس فى غزاة الزلاّقة :

عطشتُ أبا بكرٍ وكفُّك دِيمةٌ وذُبتُ اشتياقاً والمزار قريبُ
نخفِّفْ ولو بعض الذى أنا واجدٌ فليس بحقٍّ أن يُضاعَ غريبُ
ووفِّر لنا من تلك حظًّا نُرى به نشاوَى ، وبعد الغزو سوف نتوب

فوجَّه إليه مطلوبه وتضييفاً معه وكتب إليه :

أبا حسنٍ مثلى بمثلِك عالمٌ ومثلُك بعد الغزو ليس يتوبُ
فخُذها على مَحض الصفاء كأنها سَنًا مالَها بعد الحساب ثُؤُوبُ

وله إلى أبى بكر بن عمار :

لمـــا دنوتَ وعندى حظ من الشوق وافِ
[١٠٧-ب] /قدَّمتُ قلبىَ قبلى فصـــنْه حتى أوافى

ولما تحرك المعتمد إلى لُورْقَة — فى الجيش الذى ترك عنده ابن تاشفين

بعد غزوة الزَّلاقة ، وغرضه التمكن من ابن رشيق لتمنُّعه عليه بمرسيَة — كتب إليه أبو الحسن بن اليسع وقد قرب منه :

هٰذى سماؤك فلتصعد إلى أمل أمنيَّتى منه رعيي فى كواكبها
منعتُها وملوكُ الوقتِ تطلبُها سعياً لمُلكك فلتهنأ به وبها

وقصد المعتمد مرسية فى هذه الحركة فلم يظفر منها بطائل ، وخدعه ابنُ رشيق وداخلَ الواصلين معه من المرابطين على جيش ابن تاشفين ، فانصرف إلى إشبيلية . وفى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، حرك المعتمد ابنَ تاشفين للغزو ، بعد أن أجاز إليه البحر ، ولقيـــه على وادى سَبُوا[1] وبمنعطف منه يعرف « بالدَّخْلة » ، فقصدوا جميعاً حصن أَلْبِيط — وبينه وبين لُورْقَة اثنا عشر ميلا — والروم يعيثون منه فيما حوله ، وابن رشيق يعينهم . وعلم الطاغية أذفونش بذلك ، فتحرك لغياث الحصن والدفاع عن أهله ، فوقع الانزعاج واستراب ابن تاشفين ، وتحيز إلى لورْقَة وأقام هناك أياماً . ويقال إن جيش الطاغية فى حركته هذه نيَّف على ثمانية عشر ألفاً بين خيل ورَجْل ، فأهلكهم الله بالوباء ولم ينصرف إلا فى أقل من خمسة آلاف . ولما فصلت جيوشُ المسلمين مع ابن تاشفين — وقد صار أمر مرسية إلى المعتمد ، وكان ابن رشيق فى قبضته — ترك ابنَ اليسع على لُورْقَة والياً ، وترك ابنَ رشيق مسجوناً عنده[2] ؛ فقال فى ذلك أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورْقى :

---

(١) كذا ورد الاسم فى الأصل ، والمشهور بدون ألف بعد الواو وبتسكين السين : « سبُو » . وقد رسمه البكرى أيضاً بالألف بعد الواو (انظر فهرس الأعلام) .

(٢) أورد الأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته (ص ٧٩ — ٨١ ، ثم ص ١٠٩ — ١١٢) تفاصيل وافية عما صنع ابنُ رشيق أول الأمر مع ابن عباد وابن عمار فى مرسية ، ثم موقفه أثناء حملة لبيط ، وكيف ترك يوسف بن تاشفين الفقهاء يفتون فى أمره ، فقرروا « إزاحته عن المسلمين » ، فسُلم إلى المعتمد بن عباد فقتله .

قل لى ، أبِنْ لى ، هل تأملتَها أو هل تدبرتَ لها عاقبهْ ؟
بالأمس أعيتْك رشـــيقيّة واليومَ أحدثتَ لها صاحبهْ

هذا خبر ابن الشلبي مع ما انضاف إليه من غيره .

---

١٣٨ — حَرِير بن حَكم بن عُكّاشة

[١٠٨-١] / صحب أبوه حَكم أبا الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السَّقّاء(١) ، وزير أبي الوليد بن جَهْوَر رئيس قرطبة ، فسُجن عند قتله مع أصحاب الجرائم ،

---

(١) أورد ابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢ ص ١١٤ وما يليها) فصلا كبيراً لابن حيان عن بنى جهور وولايتهم لأمر قرطبة أيام أبى الحزم بن جهور وابنه الوليد وابنى هذا عبد الرحمن وعبد الملك ، وكيف قسم أبو الوليد بينهما شئون الإمارة ، فجعل عبد الرحمن للشئون الإدارية والمالية وعبد الملك للشئون العسكرية . وكان عبد الملك شهما جريئاً ، وهو الذى قتل ابن السقاء وخلص دولة بنى جهور منه . ويفهم من كلام ابن حيان (ص ١٢٣) أن ابن السقاء كان صاحب الأمر فى قرطبة أيام أبى الوليد بن جهور ، فحسده عليه ابنُ عباد ، وكان طامعاً فى قرطبة ، فأوقع بينه وبين عبد الملك بن أبى الوليد حتى قام عبد الملك بقتله . وفى القسم الرابع من المجلد الأول من الذخيرة (القاهرة ١٩٤٥ ، ص ١٨٦ وما يليها) أورد ابن بسام فصلا آخر لابن حيان فى نفس الموضوع فصّل فيه تاريخ أبى الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء هذا ، وذكر كيف نشأ فقيراً يبيع السَّقَط فى درب ابن أبى سفيان فى قرطبة ، ثم صار متولياً للنظر فى المسجد الجامع ، ثم اختاره أبو الوليد بن جهور ورفعه إلى الرياسة والوزارة ، فتغيرت حاله وأغراه السلطان وطمع فى المال حتى أصبح من الأغنياء ، واستبد بأمور البلد و « اتخذ لنفسه جند سوء » ليستظهر بهم على أقادم الجند بقرطبة ، واتخذ لنفسه داراً خاصة بالغلمان سماها الناس « دار اللذة » فقام عليه عبد الملك بن أبى الوليد محمد بن جهور وقتله بيده مع نفر من أصحابه يوم السبت ٢٣ رمضان ٤٥٥ . وقد ريع أبو الوليد لمقتل وزيره ، ولكنه لم يستطع شيئاً ، وفى هذا اليوم يقول ابن حيان : « سُلبت كسوة مسجد ابن السقاء وثرياه ، وعطلت فيه الصلاة ، فصار مثوى للثاوى» .

وكان حَكم بن عكاشة من رجال ابن السقاء هذا .

إلى أن هرب من محبسه ولحق بالمأمون بن ذى النون فنصح له . وكان شهماً صارماً ، فولاه بعض الحصون المجاورة لقرطبة ، فدخلها بعد خلع بنى جَهْوَر فى خبر طويل[1] ، وقتل أميرها حينئذ عَبّاداً الملقب بسراج الدولة بن المعتمد محمد ابن عباد ، و بعث برأسه إلى المأمون وهو ببلنسية ، وذلك فى سنة سبع وستين وأربعمائة ، فورَد المأمونُ قرطبةَ وأقام بها نحواً من ستة أشهر ، ثم توفى فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، واحتُمل إلى طليطلة فدُفن بها . و بقى حَكَمُ ابن عُكّاشة بقرطبة ، نائباً عن القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون بن ذى النون ، بعد أن جُددت له البيعة بها ، و بلغ ذلك المعتمدَ محمد بن عباد فأقبل فى جموعه طالباً بثأر ابنه عَبّاد . وعلم ابن عُكّاشة أنه لا طاقة له به ، فهرب عند ذلك وأسلم قرطبةَ فدخلها المعتمدُ ، وأتبعه خيلا لحقته فقُتل وجىء له به فصُلب مع كلب[2] .

وولىَ ابنهُ حَرِيز هذا قلعةَ رَبَاح[3] للقادر بن ذى النون ، وهو الذى

---

(١) فصل ابن حيان (الذخيرة ، قسم ٢ مجلد ٢ ، ص ١٣٣ وما يليها) هذه الأحداث . وكان خلع بنى جهور سنة ٤٦٢ ، خلعهم المعتمد بن عباد ، وكان عبد الملك بن أبى الوليد محمد ابن جهور قد طلب منه مدداً يدفع به خطر المأمون بن ذى النون عن قرطبة ، وكان قد ضايقها وحكمها مدة ، فبعد انصراف ابن ذى النون قام جند المعتمد بخلع بنى جهور ونفاهم هو إلى جزيرة شلطيش .

(٢) روى ابن بسام أخبار هذه الحوادث عن ابن حيان (الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ، ص ١٢٣ وما بعدها) ولكن كلامه فى تلك القطعة يخلو من تلك الصراحة وذلك الوضوح اللذين تعودناهما منه .

(٣) قلعة رباح مدينة تابعة لمدينة طليطلة فى التقسيم الإدارى الأندلسى ، وتوصف بأنها — مع طَلَبِيرة Talavera — حد فاصل بين أرض النصارى وأرض المسلمين ، ويحددها الرازى بأنها شمال شرق قرطبة وجنوبى طليطلة ، وأنها تقع على وادى آنة ، وهى مسماة فى الأغلب باسم التابعى على بن رباح اللخمى الذى اشترك فى فتح الأندلس . وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن هو الذى بنى حصنها ومدنها ، وحلت محل مدينة أوريط Oreto القديمة . وقد سقطت قلعة رباح =

امتحن أبا الحسن بن السِّيد البَطَلْيَوْسى [1] لما اتهمه وكاتِبَه بمداخلة المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس ، فبطش بالكاتب وأفات نفسَه ، وحبس أبا الحسن فى بيت ضيق ، وكان يُجرى عليه رغيفاً لا شىء معه ، إلى أن ضعف وهلك .

وقُتِل حَرِيز فى سنة ثمانين وأربعمائة على حصن مَسْطاسَة [2] ، وقد كان

= فى يد ألفونسو السادس مع طليطلة سنة ٤٧٦/١٠٨٥ ، وقد استعادها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بعد انتصاره فى وقعة الأرك بعد أن تبادلها المسلمون والنصارى عدة مرات ، وقدسقطت وخرجت عن حوزة الإسلام نهائياً سنة ١١٤٧ . وأصبحت بعد ذلك مركزاً لطائفة مشهورة من الرهبان المرابطين (كالداوية والاسبتارية) وهى طائفة قلعة رباح **La Orden de Calatrava** التى تجردت لحرب المسلمين ومغاورتهم ، وموضع قلعة رباح العربية يسمى اليوم **Castillo de Calatrava la Vieja** على ١٢ كيلومتراً شمال شرق مدينة **Ciudad Real** عاصمة المديرية التى تحمل نفس الاسم جنوبى مديريتى مدريد وطليطلة .

راجع : الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، رقم ١٥٠ ص ١٦٣ وص ١٩٦ من الترجمة الفرنسية وتعليق ٢ ، وكذلك .

MADOZ, *op. cit.*, V. 269 - 273.

(١) لا نعرف صلة أبى الحسن بن السِّيد البطليوسى هذا بالعالم المعروف أبى محمد عبد الله ابن محمد بن السِّيد النحوى الفقيه الفيلسوف مؤلف الكتب الكثيرة مثل كتاب « الحلل فى شرح أبيات الجمل » و« شرح الموطأ » و« التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة » و « كتاب الحدائق » (مدخل فى المنطق والفلسفة) . وقد ولد هذا الأخير سنة ٤٤٤/١٠٥٢ فى بطليوس وتوفى فى بلنسية سنة ٥٢١/١١٢٧ . وإذا حسبنا حساب التواريخ كان ابن السيد العالم ابناً أوابن أخ لأبى الحسن المذكورهنا .

انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٦٣٩ ص ٢٨٧ . وقد نشر آسين پلاثيوس دراسة وافية عن أبى محمد عبد الله بن السيد البطليوسى كمقدمة لتحقيقه لكتاب « الحدائق » :

MIGUEL ASIN PALACIOS, *Ibn al-Sid de Badajoz y su «Libro de los Cercos»* (*Kitab al-Hadaiq*). Al-Andalus, 1940, tomo V, fasc. 1. pp. 45 - 154.

(٢) مسْطاسَة **Mestanza** قرية فى مديرية **Ciudad Real** تابعة لمركز كامپو دى كالاترافا **Campo de Calatrava** (فحص قلعة رباح) غير بعيد من المُدَوَّر **Almodóvar del Rey**

Cf : MADOZ, *op. cit.* XI., p. 397.

أهل فَحْص البَلوط[1] أسروه ، وسيق إلى المعتمد فمنّ عليه وأطلقه . ومن شعره ما حَكى الفتحُ بن عبيد الله فى « كتاب مطمح الأنفس » من تأليفه أن الوزير أبا مروان بن مثنى كتب إليه :

يا فريداً دون ثانِ وهلالاً فى العِيانِ
عُدِم الراحُ فصارتْ مثل دُهن البَلَسَانِ

فبعث بمطلوبه وجاوبه بقوله :

جاء من شِعرك روضٌ جاده صَوْبُ البيانِ
فبعثناها سُـــلافاً كسجاياك الحسانِ
/يافريداً لا يُجارَى بين أبنـــاء الزمانِ [١٠٨-ب]

---

(١) فحص البلوط كورة متوسطة الاتساع فى التقسيم الإدارى الأندلسى ، يقول الرازى إنها تقع جنوب غربى أوريط (وادى الحجارة) وقال إن سهلها تحيط به جبال البرانس المعروفة الآن باسم جبال طليطلة وتسمى اليوم **Los Pedroches** ، وهى الجزء الشمالى من مديرية طليطلة بين **Hinojosa del Duque** وجبال المعدن **Sierra de Almadén**. وكانت أهم مدن الكورة فى العصور الإسلامية بطْرَوْش **Pedroche** وغافق، ويسميه الإدريسى إقليم البَلاَّلِيطَة ؛ والنسبة لفحص البلوط البَلَّوطى .

انظر : ياقوت ، معجم البلدان : ٤/٣٦٥ — الإدريسى ، ص ١٧٥ والترجمة الفرنسية للدوزى ، ص ٢١١ — الروض المعطار ، رقم ١٢٧ ص ١٤٠ والترجمة الفرنسية ص ١٦٨ وتعليق ١ .

١٣٩ — عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، أبو عبيد — الوزير

هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب [بن عمرو من أبناء][1] الأمراء [... ...][2] يكنى أبا [عبيد الله . ولى][3] أبو زيد محمد بن أيوب وَلْبَةَ وشَلْطِيش[4] وما بينهما من الثغر الغربى وأصلهم من لَبْلَة[5] .

(١) كتبنا فى بحثنا عن « الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٧ و٨ ، ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ، ص ٣٠٣ وما بعدها) بحثاً مطولا عن أبى عبيد البكرى وبيته رجعنا فيه إلى كل ماكتب ونشر عنه . والثابت لدينا أنه عبد الله ابن عبد العزيز بن أيوب بن عمرو ، فجعلنا اسمه هكذا مع أن الناسخ ترك فراغاً بين« عبد العزيز» و« ابن محمد » . وأكملنا النسب بعد ذلك ، وأضفنا عبارة « من أبناء » للسياق .

(٢) بياض فى الأصل .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) فى التقسيم الإدارى الأندلسى تدخل ولبة وشلطيش فى كورة أكشونبة **Ocsonoba** ، وكانت تشمل الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة مما يلى كورة إشبيلية غرباً ، وجزء منها داخل فى حدود البرتغال حالياً ، وفيه شِلْب **Silves** ، والباقى داخل فى حدود إسبانيا . وولبة **Huelva** وشلطيش **Saltes** داخلتان اليوم فى زمام مديرية ولبة الحالية . أما ولبة فيطلق حالياً على مديرية كبيرة مساحتها ١٠٠٨٥ كيلومتراً مربعاً تتاخم مديريتى إشبيلة وقادس من الشرق وحدود البرتغال من الغرب ، وشمالها مديرية بطليوس ويمر فيها نهر صغير يسمى النهر الأحمر **Rio Tinto** ونهر آخر يسمى الأوديل **Odiel** ومصباهما متقاربان فى خليج واسع تقع فيه جزر صغيرة ، أكبرها شلطيش **Saltes** . وبين المصبين ، على رأس يفصل بينهما ، تقع ولبة الحالية ، وهى ميناء كبير ومركز هام لصيد السمك وقاعدة المديرية المسماة باسمها . وقد سقطت ولبة وخرجت من دار الإسلام نهائياً سنة ٦٤٦/١٢٤٨ على يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس ، وسقطت تبعاً لها جزيرة شلطيش . ويشرب أهل شلطيش من مياه الأمطار ، يخزنونها فى صهاريج ، وينقل إليها الماء من ولبة بالسفن إلى الآن ، كما كان الحال أيام العرب.

(٥) فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت لبلة **Niebla** قاعدة كورة تحمل نفس الاسم تقع شمال كورة أكشونبة المذكورة فى التعليق السابق ، وكانت تسمى لبلة الحمراء . ولبلة على خمسين كيلومتراً غربى إشبيلية ، على الضفة الغربية للنهر الأحمر **Rio Tinto** ، وهى تابعة لمديرية —

وكان أيوب بن عمرو قد وَلى خطةَ الردِّ بقرطبة ووَلى أيضاً القضاءَ ببلده ، وسَماه ابنُ حيّان فى الذين سمعوا من هشام المؤيد ما أمرَ بعقده للمنصور محمد بن أبى عامر مجدِّداً للألفة ، وسمّى معه محمد بن عمرو أخاه ، وتاريخ هذا العقد شهر صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة . وذكر أبو القاسم بنُ بشكوال أيوبَ بن عمرو المذكور فى تاريخه .

قال ابن حيان : لما تولى الوزيرُ أبو الوليد بن جَهْوَر الإصلاح بين ابن الأفطس والمعتضد – بعد امتداد شأوِهما فى الفتنة – وسَنى اللهُ السلمَ بينهما فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين – يعنى وأربعمائة – اعتدى إثر ذلك المعتضدُ على جارَيْه ابنِ يحيى أمير لَبْلَة وأبى زيد البكرى أمير شَلْطِيش ووَلْبَة ، فأخرجهما عن سلطانهما الموروث ، وحصل له عملُهما بلا كبير مؤونة ، وضمه إلى سائر عمله العريض . وازداد بذلك المعتضدُ سلطاناً وقوة ، وذلك أنه لما خلا وجهُه من المظفر بن الأفطس فرغ لابن يحيى بلَبْلَة ، وصمّم فى قصده بنفسه ، فنزل له عن لَبْلَة وخرج عن البلد ، وانزعج إلى قرطبة مسلوبَ الإمارة ؛ لائذاً بكنف ابنِ جَهْوَر سادِّ الخَلَّة ومأوى الطريد . وكان من الغريب النادر أن شاركه المعتضد بقطعة من خيله وصَّلته إلى مأمنه بقرطبة .

ثم سقط إلينا[1] النبأ بعدُ بامتداد يده إلى ابنى بكرى بوَلْبَة وشَلْطِيش . وكان

= ولبة . وقد ذهب بروفنسال إلى أن أصل اسمها لاتينى هو **Ilipla** ولكن الغالب أنه **Nebula** بدليل أن النسبة إليها **nebulense** . وقد دخلت لبلة فى حوزة الإسلام على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٤/٧١٤ وخرجت عنها نهائياً سنة ٦٥٥/١٢٥٧ على يد ألفونسو العاشر .

انظر : صفة الأندلس للرازى ، ص ٩١ – ياقوت : ١/٣٧٨ – الإدريسى ، ص ١٧٤ – الروض المعطار ، رقم ١٥٨ ص ١٦٩ ، والترجمة الفرنسية ص ٢٠٣ .

(١) فى الأصل : إليها . وقد أسقطها دوزى فيما نشر من كلام ابن حيان فى الذخيرة (بنوعباد : ١/٢٥٢) والصحيح « إلينا » لأن المتكلم هنا هو ابن حيان ، وهو يروى الأخبار من مقامه فى قرطبة بحسب ورودها إليه ، وعبارة « سقط إلينا النبأ » كثيرة الورود عنده .

هذا الفتى وارثَ ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة ، والاتصال القديم بسلطان الجماعة ، وكان له ولسلَفِه إلى[1] إسماعيل بن عَبّاد — جَدِّ المعتضد — وسائلُ وأذِمَّة خلَّفاها فى الأعقاب ، اغترَّ بها عبدُ العزيز البكرى فبادر البعثةَ إلى المعتضد ساعةَ دخل لَبْلَة يهنئه بما تهيأ له منها ، وذكَّره/ [١٠٩-١] بالذِّمام الموصول بينهما ، واعترف بطاعته وعرض عليه التخلى عن وَلْبَة وإقراره بشَلْطِيش إن شاء ، فوقع ذلك من المعتضد [موقع إرادة][2] ، ورد الأمر إليه فيما يعزم عليه ، وأظهر الرغبـــة فى لقائه وخرج نحوه يبغى ذلك ، فلم يطمئن عبدُ العزيز إلى لقائه ، وتحمَّل بسُفنه جميعَ مالِه إلى جزيرة شَلْطِيش[3] ، وتخلى للمعتضد عن وَلْبَة ، فحازها حوزه لِلَبْلَة ، وبسط الأمانَ لأهلها ، واستعمل عليها ثقة من رجاله ، ورسم له القَطْعَ بالبكرىّ ، ومنعَ الناسَ طُرًّا من الدخول إليه ، فتركه محصوراً وسط الماء ، إلى أن ألقى بيده من قرب[4] . ولم يعزُب عنه الحزمُ ، فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاقَ صاحبه ، فأمَّنه ولحق بقرطبة ..

وبوشِرَ منه رجل سَرِىٌّ عاقل عفيف أديب ، يفوت صاحبَه ابنَ يحيى خلالاً وخصالاً ، إلى زيادةٍ عليه ببيت الثَّرْوِ والشرف ، وبابنٍ له من الفتيان ، بذَّ الأقرانَ جمالاً وبهاء وسَرْواً وأدباً ومعرفةً ، يكنى أبا عبيد[5] .

وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ ، أنه لما احتل شَلْطِيش عَلِم أنه لا يقاوم عَبّاداً ، فأخذ بالحزم أولا ، وتخلّى له عنها بشروط وَفَى له بها ، فباع منه

---

(١) فى الذخيرة (بنوعباد : ١/٢٥٢) : قِبَل ، وهو أصح .

(٢) فى الأصل : فوقع له ذلك من المعتضد ، فقومت العبارة على نص كلام ابن حيان فى الذخيرة ، وأضفت الناقص .

(٣) نص الذخيرة المنشور (بنوعباد : ١/٢٥٣) : « وتحمل يسبقه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش » ، ونص ابن الأبار أصح .

(٤) أى بعد قليل .

(٥) يريد أبا عبيد الله بن عبد العزيز البكرى العالم اللغوى الجغرافى المعروف .

سفنَه وأثقالَه بعشرة آلاف مثقال ، واحتل قرطبة فى كنف ابن جَهْوَر المأمونِ على الأموال والأنفس ، وصفَتْ لعبّاد تلك البلاد لو أن شيئاً يدوم صفاؤه[1] ؛ والمُلك الباقى لله وحده .

وحكى غيره[2] أن البكرى فى قصده قرطبةَ اجتاز « بإقليم البَصَل » وطَلْيَاطَةَ[3] ، وقد أعدَّ المعتضدُ له النزلَ والضيافةَ هنالك ، ومذهبُه القبضُ عليه وعلى نِعمته ، فقدَّم إلى صاحب قَرْمُونة[4] محمد بن عبد الله البِرْزالى يُعْلمه باجتيازه عليه ، وبأنه لا يأمن غائلةَ عَبّاد ، وسأله مشاركتَه وخفارتَه ، فعجَّل له

---

(١) جعلها دوزى (بنوعباد : ١/٢٥٣) : وإن شاء الله يدوم صفاؤها ! وعلق على لفظ الجلالة فى الهامش بقوله : **hoc vocabulum ego addidi** (هذه الكلمة أضفتها) .

(٢) أى غير ابن حيان .

(٣) طَلْيَاطَة قرية كانت على سبع مراحل شمالى إشبيلية ، وتسمى اليوم **Tejada** ، وهى اليوم خرائب مهجورة **despoblado** على ٣٠ كيلو متراً شمال غربى إشبيلية . ومن ضواحى إشبيلية اليوم موضع يسمى **Tablada** كتبه ابن عذارى أيضاً طلياطة ، فى كلامه عن غزوات المجوس (النرمانيين) على الأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ، والأصح أنه طلباته وهو **Tablada** مع تقديم حرف على حرف . وهذا الموضع اليوم مطار بظاهر إشبيلية .

Cf : DOZY, *Recherches*, 3e éd. I, 308 - 309.

والروض المعطار رَقم ١٢١ ص ١٢٨ ، والترجمة الفرنسية ص ١٥٥ وتعليق ٦ – وبحثنا عن « غزوات النورمان فى المغرب والأندلس » ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٥٠ ،

(٤) قَرْمُونة : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت قرمونة كورة واسعة تضم مدناً أخرى وحصوناً كثيرة ، وقاعدتها تحمل نفس الاسم (انظر : صفة الأندلس للرازى ، ص ٩٤ وياقوت ٤/١٩٦) . وأوسع وصف لمدينة قرمونة أورده ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار (رقم ١٤١ ص ١٥٩) والترجمة الفرنسية ص ١٩٠ . وأصل اسمها لاتينى : **Carmo** . وقد دخلت قرمونة فى حوزة الإسلام سنة ٩٢/٧١٢ وسقطت نهائياً سنة ٦٤٤/١٢٤٧ فى يد ألفونسو الثالث . وهى **Carmona** الحالية وهى مركز إدارى فى مديرية إشبيلية ، وتقع على بعد ٣٥ كيلومتراً شمال شرقيها . (انظر مادة زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ، ـ ١ ص ٨٤٩ أ).

قطعة من خيل مجردة ، لقيته بموضع اتفقا عليه . ولم يَلْوِ البكرىّ على موضع النزل ، وحثّ حمولتَه حتى لقيته خيلُ ابن عبد الله ، فوصل معها إلى قرمونة ، ثم توجه منها إلى قرطبة ونجا من حبائل المعتضد .

قال : وكانت مدة البكريين بشَلْطِيش وما إليها إحدى وأربعين سنة .

فى أول هذا الخبر عن ابن حيان ذِكْرُ ابنِ يحيى وأبى زيد البكرى .

وأبو زيد إنما هو محمد بن أيوب والد عبد العزيز ، ولم يدرك المعتضدُ زمانَه ؛

[١٠٩-ب] وأما عبد العزيز فكنيته أبو المصعب ، وكان جواداً / ممدحاً ، وفيه يقول أبو على إدريس بن اليمانى من قصيدة فريدة — وكان إدريس هذا مقدما فى فحول شعراء الأندلس[1] :

فِدًى للتى لم يَثْنِ لِينٌ فؤادَها ... على كبدٍ جارَ الفراقُ فآدَها

من البيض ريا فى رداء ذوائبٍ ... يُبارى سوادُ العين منها سوادَها

يقول فيها :

---

(١) أبو على إدريس بن اليمان ، قال فى حقه الحميرى فى الجذوة : « شاعر جليل عالم ، ينتجع الملوك فينفق عليهم [شعره] ، ذكره أبو عامر بن شهيد فنسبه إلى بلده ، فقال : اليابسى ، وينسبه آخرون فيقولون : الشَّبينى بالباء المعجمة ، لأن الغالب على بلده شجرة الشبين وهى شجرة الصنوبر (تسمى فى الإسبانية Sabina) ، وقد أدركتُ زمانه ولم أره » (الجذوة ، رقم ٣١٣ ص ١٦٠) .

ونقل نفس المادة الضبى (بغية ، رقم ٥٦٠ ص ٢٢٢) .

وقد عقد له ابن بسام فصلا فى الذخيرة (قسم ٣ ورقة ٦٠ وما بعدها من مخطوطة جايانجوس ، وترجمة إدريس بن اليمان هناك ناقصة الأول ، فرجعت إلى مخطوط معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد) وهو يقول بعد أن يذكر نسَبه اليابسى : « وأخبرت أن أصله من قسطلية العرب من عمل شنت برية ابن هارون (كذا) ، وبدانية قرأ وبها نشأ ومنها انبعث » . ثم ذكر بعد ذلك كيف حدد أجر قصيدة المديح بمائة دينار كاملة .

[... ... ...] الروض [...][1] سقاها الصبا السلسال حتى أَنَادَها[2]

تقود بلا رفق خيولَ مدامعى لتُورد هيجاءَ الملام وِرادَها

وما أنصفَتْها حين ضنت بجودها عليها وحثَّت بالطِّراد جيادَها

أفدْتُ غداةَ البَين منها التماحةً شكرتُ صنيعَ البينِ بى إذ أفادَها

أعيدى سَقَى مثْواكِ ألْعَسُ أشْنَبٌ إذا مرضتْ أرضُ الأحبةِ جادَها

يضوع بواديك الأغنُّ أغانياً متى ما يُعِدْها لم تَمَلَّ مُعادَها

إذا ما أجادت كفُّه حول روضةٍ حسِبنا جَدَى[3] عبدِ العزيز أجادها

ثم تصرف فى المديح تصرفَه فى النسيب وأحسن وأبدع .

وابن يحيى هو يحيى بن أحمد بن يحيى اليَحْصُبِىّ من أهل لَبْلَة ، استولى عليها أحمد أبوه فى بضع عشرة وأربعمائة ، وملكها نحواً من عشرين سنة ، إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين فوليها بعده .

وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام ؛ ذكره ابنُ بشكوال فى تاريخه ، وحكى أنه كان يمسك كتبه فى سَبَانِى الشَّرب[4] وغيرها إكراماً لها . قال : وجمع كتاباً فى إعلام

---

(١) لم يورد ابن بسام هذه القطعة فيما أورد من شعر إدريس بن اليمان ، ولم أجدها فى مرجع آخر.

(٢) أناد = أمال (ناد ، ينود ، نَوْداً ونُوَاداً ونَوَداناً — تمايل من النعاس . اللسان ٤/٤٤١) .

(٣) فى الأصل : جرى ، وصُوبت فى الهامش بخط مخالف .

(٤) سبانى جمع سَبَنِيَّة وهى المنديل الكبير أو الملاءة البيضاء ، وهو لفظ إسبانى : sabana ، ولا زال يستعمل فى المعنى الثانى فى إسبانيا إلى اليوم . وسَبَانى الشَّرب هى المناديل الكبيرة التى كانوا يستعملونها أثناء الطعام . وكانت تتخذ من رفيع القطن أو الكتان ، وهى أغلى السبانى . وبلغ من إعزاز أبى عبيد البكرى للكتب أنه كان يلفها فى السبانى الغالية .

نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ، أخذه الناس عنه ؛ وتوفى فى شوال سنة تسع وثمانين وأربعمائة[١] .

وحكى الفتح بن عبيد الله — فى ما وجد بخط ابن حَيّان على زعمه — أن أبا عبيد صار إلى محمد بن مَعْنٍ صاحب المرية ، فاصطفاه لصُحبته وآثر مجالسته والأنس به ، ورفع مرتبته ووفر طعمته[٢] . ومن شعره يخاطب أبا الحسن إبراهيم ابن محمد بن يحيى المعروف بابن السَّقّاء ، وزير أبى الوليد بن جَهْوَر بقرطبة ،

[١١٠-١] وقد خرج رسولا إلى بادِيس بن حَبُّوس بغرناطة ، أنشدها / له ابن حَيّان فى تاريخه الكبير ونقلتُها من خط أبى الوليد بن الدباغ المحدِّث :

كذا فى بروج السعد ينتقل البدرُ وتحسُن حيث حلّ آثاره القطرُ
وتقتسم الأرضُ الحظوظَ : فبقعةٌ لها وافرٌ منها ، وأخرى لها نَزْرُ
لَذَلّ مكانٌ غابَ عنه مُمَلِّكى وعَزّ مكانٌ حَلّه ذلك البدرُ
فلو نقلتْ أرضٌ خطاها لأقبلتْ تهنيه بغداذٌ بقُربك أو مصرُ

وله فى المعتمد محمد بن عباد عند إجازته البحرَ مستجيراً بيوسف بن تاشفين :

يهونُ علينا — مركبَ الفلك — أن يرى محيي العلا لما نَبا مَركبُ الجدِّ[٣]

---

(١) هذا كلام ابن بشكوال فى الصلة (بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢) ، رقم ٢٦٣ ص ١١٧ .

(٢) راجع مناقشتنا لهذه العبارة فى كتابنا « الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ص١١٨-١١٩ .

(٣) البيت قلق ، ولم يروه إلا ابن الأبار من أصحاب الأصول التى وردت إلينا ، وقد ورد فى الأصل هكذا :

يهون علينا مركبُ الفلك أن يرى محيى العلا لما قبا مركب الجد

وقد قومته على قدر فهمى لمعناه ، وربما كان أول الشطر الثانى : مُحَيَّا .

فجزتَ أجاج البحر تبغى زلالَهُ وذقتَ جَنى[الأهوال](١) تبغى جنى الشهد
يذكرنا ذاك العبابُ إذا طما ندى كفكَ الهامى على القرب والبعد

ومنها :

محمدُ يا ابنَ الأكرمين أُرومةً ليَهْنِكَ تشييدُ المكارم والمجدِ
فلو خُلِّد الإنسانُ بالمجد والتُّقَى وآلائه الحُسنى ، لهُنِّئتَ بالخلدِ

وله :

أجَدَّ هوًى لم يألُ شوقًا تجددا ووجداً إذا ما أتهمَ الحبُّ أنجدا
وما زال هذا الدهرُ يلحَنُ فى الورى فيرفع مجروراً ويخفض مبتدا
ومَن لم يُحطْ بالناس علماً فإننى بلوتهمُ شتى : مسوداً وسيدا

وله ، وكان مولعاً بالخمر منهمكاً فيها :

خليلىَّ إنى قد طربتُ إلى الكاسِ وتُقتُ إلى شم البنفسج والآسِ
فقوموا بنا نلهو ونستمعُ الغِنا ونسرق هذا اليومَ سرًّا من الناسِ
فليس علينا فى التَّعلُّل ساعةً ـ وإن وقعتْ فى عقبِ شعبانَ ـ من باسِ(٢)

---

(١) أضفتها للسياق والوزن ، وقد راعيت فيها المقابلة بين « الأهوال » و« جنى الشهد » مثل المقابلة بين « أجاج البحر» و« زلاله » فى المصراع الأول .

(٢) بعد هذه القطعة تقرأ فى المخطوط : « وأنشد له ابن فرج فى الحدائق :

سقيا لهم من ظاعنين حسبتهم وسط الهوادج لؤلؤاً مكنـــونا

الأبيات . .

وهى لا يمكن أن تكون لأبى عبيد البكرى ما دام راويها هو ابن فرج فى الحدائق ، فإن ابن فرج كان معاصراً للحكم المستنصر وعاش إلى أيام المنصور بن أبى عامر وتوفى أثناءها ، وقد ترجمنا — لهذا — أنها لعبد الله بن عبد العزيز المروانى الذى سبق ذكره ، وقد شرحنا فيما سبق سبب هذا الخلط .